عبد الحميد كشك

قصة أيامي
مذكرات الشيخ كشك

عبد الحميد كشك

قصة أيامي
مذكرات الشيخ كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد .. فإن الدهر مدرسة .. أساتذتها الأيام والليالي وعلى كل عاقل أن يكون بصيراً بزمانه !!

والأيام مطية ابن آدم ، فهنيئاً لمن استعملها في طاعة الله ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

وقال ﷺ : « لا تزول قدما عبد من بين يدي الله عز وجل حتى يسأل عن أربع شبابك فيم أبليته ؟ وعمرك فيم أفنيته ؟ ومالك من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟ وعملك ماذا صنعت فيه ؟! والكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ ، وإذ يقول : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ؟!

فعلى أولي الأبصار أن يعتبروا ويعلموا أن الحياة أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يُجزى كل امرىء بما فعل ، فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء ، وما الجيل في الزمان إلا لبنة في بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعدم البقاء !!

دقات قلب المرء قائلة له :
إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمرٌ ثان
واصبر على نعم الحياة وبؤسها
نعم الحياة وبؤسها سيان

هذه قصة أيامي بحلوها ومرها ، وضحكها وعبوسها ، وليلها ونهارها ، أقدمها إلى الذين يريدون أن يأخذوا من الأيام عبرة ، فهي تجربة نصف قرن من الزمان كان فيه العرق والدموع ، واليقظة والجوع ، والحرية والسجون ، عسى الله أن ينفع بها من أراد أن يأخذ من الأيام عبرة.

عبدالحميد كشك

قصة أيامي

أكتبها بما تيسر من التقديم، وتقدر من التبسير، وأمركز عناصرها الأساسية، وأعنصر مراكزها الأصلية، والله ولي التوفيق.

الاسم: عبدالحميد عبدالعزيز محمد كشك

المولد والنشأة

ولدت في العاشر من مارس ١٩٣٣ في بلدة شبراخيت إحدى مراكز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية من أبوين ليسا من ذوي البسطة في المال، فالمال ظل وعارية [illegible]، وكان ترتيبي الثالث بين ستة من الأخوة، ولدت سليما معافى، من الأمراض وما إن بلغت السادسة من عمري حتى أصيبت عيناي برمد صديدي اختفت بسببه إلى حلاق القرية، ومازلت أذكر وأمي تحملني إلى محل الحلاق حيث كان يعبث بمروده في عيني مما أدى إلى ضياع العين اليسرى، وبقيت اليمنى وبها ضعف كأنها تشكو ضياع أختها، فظللت بها أصارع شدائد الحياة حيث ذهبت إلى جمعية تحفيظ القرآن الكريم لأعوض عن نور البصر بنور من كتاب الله الكريم، كان والدي يعمل تاجراً في محل صغير، وأشهد أنه لم يكن من الذين يجدون ما ينفقون، بل كان ممن يلهث وراء الحصول على لقمة العيش بشق الأنفس حيث أعباء الحياة ثقل بها كاهله. وقد كان جدي لأبي من الذين يحفظون القرآن لأبناء البلدة وتولى على يديه أناس نبوءوا مكانة كبيرة في علوم الإسلام ويوم مات جدي لم يترك درهما ولا دينارا، إنما ترك لنا تقوى الله، فكانت الأسرة المكونة من الوالدين وستة من الأولاد وجدة لأبي تعيش قانعة راضية سعيدة، إذ ليست السعادة في الانغماس بالكؤوس المترعة أو الاستمتاع بالعيد الأماليد، إنما السعادة في الرضى حيث يقول الصادق المصدوم ﷺ: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس» كما جهد في مراحل التعليم مما ضاعف أعباء الحياة وتكاليفها حيث لم يكن أحد منا يستطيع أن يسعى لكسب الرزق.

وبعد أن حفظت القرآن في البلدة التحقت بمعهد الإسكندرية الديني، وكان لهذا المعهد ميزة حيث كان الطلاب يحولون إلى مسكن على حساب الأزهر، وكان من مبنى الدراسة

ومبنى سكن مزرعة اكتست ثوب خضر من زروع النضير ، وأذكر أن هذا المعهد كان به نخبة من الأساتذة العلماء أذكر منهم شيخين جليلين كان لهما أثر طيب في تكوين شخصيتي : الأستاذ أحمد الكومي وهو عالم غزير المعرفة في الفقه والحديث والتفسير ، وقد عوضه الله عن نور البصر ذكاء القلب ، وكان له موقف أذكره بالعرفان والشكر في تحويل مجرى حياتي وسوف أعرض له في حينه .

والأستاذ محمد مصطفى حماد وكان له باع أطول ، ومعرفة واسعة بعلوم العربية من النحو والصرف والأدب مما جعلني أعشق هذه العلوم وأهواها وكأنها بالنسبة لي الماء والضياء والهواء .

عندما كنت في السنة الثالثة الابتدائية وقد بلغت من العمر ستة عشر عاما لأنني التحقت بالمعهد بعد حفظ القرآن وكان عندي ما يقرب من ثلاثة عشر عاما .. أذكر بعدما أديت امتحان السنة الثالثة الابتدائية وعدت إلى بلدتي لقضاء عطلة الصيف جلست مع بعض الإخوة الزملاء بعد ما صلينا العصر وأخذنا بأطراف الأحاديث بينما طرح أحدنا سؤالا قال فيه : من منكم يستطيع أن يلقي درسا على المصلين في أحد مساجد البلدة ؟ وجاءت الإجابة مني بأني أستطيع ذلك بمشيئة الله تعالى ؛ وكان ببلدنا ثلاثة مساجد : المسجد البحري ، والمسجد « الوسطاني » ، ومسجد الجمعية واخترت المسجد البحري لإلقاء أول موعظة ، وحددت الزمان بعد صلاة الفجر ، وسألت ربي أن يلهمني ما أقول . وصلينا الفجر وما أن سلم الإمام التسليمتين حتى انتفضت واقفا دون ما تردد وكسرت حاجز الخوف الذي كان بيني وبين مخاطبة الناس ، لم يكن عندنا في المعهد الابتدائي من الزاد العلمي ما يمكننا من إرشاد الناس ووعظهم فقد كانت العلوم تدور بين النحو والصرف والفقه والتاريخ والجغرافيا والقراءات السبع للقرآن الكريم ، لذا وقفت أجول بخاطري في أي علم أتكلم وما إن ذكرت المقدمة التي اشتملت على البسملة والشهادتين حتى خطر بذهني هذا الحديث الجامع : « سبعة يظلهم الله تحت ظله » مع شيء من السيرة النبوية التي كنا ندرسها في السنتين الأولى والثانية من القسم الإبتدائي .. واستغرقت موعظة حولي ثلث الساعة تلقيت بعدها تهاني الطيبة من المصلين ، والتشجيع وعبارات الثناء والقبول ، مما دفعني إلى الأمام فعكفت على قراءة التفسير لبعض الآيات ، والشرح لبعض الأحاديث ، وبعد أن كنت أعظ الناس في الفجر في المسجد البحري أضفت إلى ذلك درس العصر في مسجد « الوسطاني » ، والشيء الذي لم أكن أتوقعه من الإخوة الزملاء أنهم سرعان ما قاصبوني العداء حسداً من عند أنفسهم ، لكني استعنت بالله عليهم وتذكرت ما قاله العلامة ابن هشام في أول كتابه : قطر الندى :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدم لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

صعود المنابر

كان عبدالملك بن مروان يقول : إنما شينا صعود المنابر ؛ ذلك لأن أمر مسئولية فحشية المنبر لا تحتمل الفشل لأن الواقف على درجة إنما يتأسّى بسيد الخلق وحبيب الحق .

كان عمي الشيخ عبدالفتاح كشك مأذون البلد يقوم بإلقاء خطبة الجمعة في الجامع « الوسطاني » وذات يوم وبعد ما بلغه أنني أقوم بإلقاء الدروس في المساجد كلفني إلقاء خطبة الجمعة في مسجده ، وكان هذا المسجد أكبر مساجد البلدة ويضم نوعيات مختلفة من البشر : ما بين تاجر وموظف ، وصانع ، واستعنت بالله ، وصعدت المنبر لأول مرة وتدبر موضوعها حول محاربة الفساد الإداري في البلدة ، وبدأت في الكلام عن تحريم الرشوة في نطاق قوله ﷺ : « لعن الله الراشي والمرتشي والرائش » وتناولت فيها ما يدور في مستشفى من إهمال للمرضى وسوء معاملتهم مما دفع مديرها إلى أن يتقدم بشكوى ضدي إلى مأمور المركز . وبدأت المتاعب عندما هاجت عقارب الحقد في قلوب الشانئين ، لولا بقية العطفة الصبغية وبدء العام الدراسي . مما أسدل ستارا مؤقتا على تلك المآسي ودخلت العام الدراسي السنة الرابعة الابتدائية وهي شهادة ، وأعلنت جمعية الشبان المسلمين عن مسابقة في القرآن الكريم حفظاً وتجويداً .

وعكفت على قراءة القرآن العظيم ودراسة أحكامه ودخلت المسابقة ، ثم أقمت إجازة نصف العام وكنت قد شعرت بعيني التي تأخذ في الضعف ودخلني شعور رهيب بألم دفين وكأنني كنت أنظر من وراء الحجب لأستشفّ ماذا ينتظرني كمن يساق إلى الموت وهو ينظر ، فحياتي حياة علم وممارسة وحاسة البصر بعد حاسة السمع في تحصيل العلم ، فماذا أصنع لو فوجئت يوما بأنني في حاجة إلى من يأخذ بيدي بعد أن كنت حراً طليقاً ؟ ثم ماذا أصنع عندما أكون في حاجة ممن إلى من يقرأ لي علوما أدخل به الامتحان وأحرص بها على نرتيبي في النجاح . وكان صيف السنين السابقة الأول ؟ ثم ماذا أصنع قبل هذا وبعده عندما أجدني رهين المحبسين : « الميت والعمى » مفيد الحرية محمود الحركة؟ وبين خلايات الاستفهام تتعاظم أمامي رتيبة كأنها الجبال الشوامخ إذا بوالدي يقطع عليّ هذا الصمت الرهيب ببشرى طيبة . قال لي : إن جمعية الشبان المسلمين أرسلت بطريق التليفون أنك قد حصلت على جائزة قدرها خمسة جنيهات . وكان هذا النبأ وقع صيب على نفسي التي ضمت عليه ضموه كأنه وكأنها حمامة وصقور . ولكن سرعان ما تشمر حجر في حذاء يعصر

وصارت الجنيهات الخمسة خمسمائة على ألسنة الناس . وتوقعت بعد ذلك أمرا : أن العين حق وأن الله أمرنا أن نستعيذ من شر حاسد إذا حسد .

هي الأيام لا تبقي عزيزا ... وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم ... وأشرق فارتقب يوما أفوله

وصحبني والدي إلى الإسكندرية ليصرف الجائزة مستعينا بها على بعض شدائد الأيام بعد ما عضه الدهر بنابه وأناخ عليه بكلكله .

كان والدي يعطيني كل شهر خمسة وأربعين قرشا بالإضافة إلى بعض الخبز والجبن الذي كنت أحمله إلى الاسكندرية .

ومرت الأيام سريعة وكلما انشق فجر وأضاء نهار ازدادت الظلمة في عيني وقبل الامتحان بشهر عدنا إلى بلدنا الذكر وقد أوشكت الدنيا أن تحكم حلقاتها من حولي . وكأني أمشي خطى سريعة إلى سجن العمى . ولما عزمت على الرحيل لأداء الامتحان كانت تراودني فكرة هزتني من الأعماق هزا عنيفا : هل إذا ذهبت لأداء الامتحان وحدي سأستطيع أن أعود من هنالك وحدي؟ وتوكلت على الله وأديت امتحان الشهادة الابتدائية وما أن فرغت من أداء الامتحان حتى كنت إذا أخرجت يدي لم أكد أراها وإخواني من الطلبة لم يدركوا أنني كف بصري ؛ ذلك لأنني كنت أتنقل في أماكن محدودة حفظتها أيام كنت بصيرا فكنت أتحسس خطى بناء على عهد مضى . لكن الموقف الذي كنت منه في حرج هو أنني كيف أعود؟ وكيف أسافر وحدي؟ هل أرسل إلى والدي؟ ولكن كيف؟ من الذي سيكتب في الرسالة التي تخبره بحالي وأنا الذي لا أستطيع أن أكتب ؟! وأخيرا كان لابد أن انصرف فقد أوشك الطلبة على الرحيل إلى بلادهم فهل سأظل وحدي ؟! وهداني الله إلى أن أقصد زميلا عهدت فيه طيبة القلب أمليت عليه خطابا بحجة أنني متعب لا أستطيع الكتابة وقد كنت كذلك . ووصلت الرسالة إلى والدي وعلى جناح السرعة رأيته يأتي مهرولا . كنت قابعا في ركن من أركان الغرفة كئيبا كاسف البال ، قليل الرجاء ، يعتصرني الجوع ، ويعتلني اليؤس . وقطع عليّ صمتي العميق صوت والدي يلقي عليّ السلام . ومد يده مصافحا دون أن أراه . فأخطأت يدي الطريق إلى يده . وكان رحمه الله تعالى ذكيا سرعان ما أدرك أن في الأمر شيئا . وبنبرة حزينة قال لي : ماذا حدث ؟ وعلى سبيل السرعة قلت له : لقد أصبحت لا أرى شيئا . فما كان منه إلا أن قال : لا تحزن ، وسوف أعمل على علاجك حتى ولو بعت ثوبي هذا ، وأخذني من يدي وتوجهنا إلى بلده وعقدت العزم على لزوم بيتي وألا أقابل أحدا .

ورغم أن والدي قد عانت بكاهلها الأعباء بإقلاله الأرزاء ؛ فالأولاد كُثُر ، وجسده قد ضعف حيث أصيب بمرض صدري ، إلا أنه أخذ يعمل على توفير شيء من المال للعلاج .

وذات يوم أحس إلى حد بجاور حيث هناك طبيب قد ذاع صيته . وكان نصرانياً وبعد توقيع الكشف علق همس في أذن والدي بكلمات جعلته يفقد اتزانه . ولكنه أتبعها بقوله : ساجري له عملية ولا يأس مع الحياة . وأخذني والدي عائدين إلى منزلنا . وعلى درج سلم العمارة أخذته رعشة خفيفة فحملته حتى بلغ فأجرى الله على لساني هذه الآية :

﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾

فمضى بصورة حقيقية فيه رغم حزن عميق : اللهم أنزل علينا الصبر ورضّنا بما قسمت . وعدت إلى البيت وقلت له أن نستدين المال للعلاج حيث ظللت عاما كاملاً أتردد على عيادة هذا الطبيب الذي جعل من عيني حقلا للتجارب . وبحكم وجودي هذه المدة الطويلة تحت العلاج عرفت ماذا تعني هذا الطبيب . قد تصاب العين بما يسمى بالكتاراكت (أي المياه البيضاء) وهي لا تؤدي البصر لكن طبيب العيون لا يستطيع أن يجري جراحة بعين إلا بعد أن تفقد الإبصار تماما وعندئذ يقال إن المياه قد استوت فيجري المريض وهو فاقد البصر . وبعد إجراء العملية وكشف الضمادات عنه يرى أحسن مما كان يرى من قبل . عندئذ يعرف الناس أن هذا الطبيب قد أبرأ الأكمه فقد ذهب إليه فلان وفلان وأعاد البصر بعد فقده . أما ما اشتهت به أمي فكان يسمى الحوكومة « المياه الزرقاء » وهي أخطر ما تصاب به العيون إذ أنها تأكل البصر كما تأكل النار الحطب ، ودون جدوى رجعت كما أتيت ، كل ذلك ولأسرة في حالة بؤس ، فالمولود قد ضعفت وأعباء الحياة في ازدياد . وذات يوم نظرت إحدى المجلات المصرية صورة لطبيب في القاهرة يجري عملية ترقيع بقرنية ، وقالت عنه كلاماً يشعر القارئ بأنه « المسيح بن مريم » في القرن العشرين . والكشف يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار .

وهكذا عوملت الصحافة التي تنهث وراء المادة والإثارة ، والتي شعارها « أعذب الشعر أكذبه » وكما يقولون « بالغربي عشمك مافيش » فقد عزمت على الذهاب إلى هذا الطبيب بالقاهرة ورفعنا الكشف ، وقال بعد توقيع الكشف إنه يلزمه عملية للعين يسرى وبسيطة تحتاجها حسب في مكة ... ويلزمني خمسون جنيه تدفع قبل إجراء العملية . وكان الطبيب قيمة يومه في عام ١٩٥١ وعبثا حاولنا إقناعه بأن يأخذ نصف الأجر مقدما والنصف الآخر بعد إجراء عملية ولكن بالفعل لم نبع ترمس ! وقال لي والدي ... يا بني القاهرة قد سُرّ وذهب إلى مستشفى قصر العيني . وفي صباح توجهنا إلى هناك وكم وجدنا قلوبنا تضرب حتى من رحمة بني للفقراء ، موطنع قدم هناك !!

قعدنا أدراجنا لتدبر المآل الذى سنجرى به العملية عند هذا الطبيب . كانت شقيقتى الكبرى تملك بعض الحلى فصممت على بيعه وكان عندنا مدياع بعناه ثم توجهنا إلى الطبيب وصممنا على إجراء العملية وقت صلاة الجمعة – على الرغم من أنه مسلم ، وعبثاً حاولت أن أؤخرها إلى ما بعد الصلاة ، ولكنه أصر وأجريت العملية ، ومكثت على طهرت خمسة عشر يوما ، وجاءت الساعة الرهيبة وهى ساعة حل الرباط ، وحين نزعت وجرؤت يده أمامى على أن شيئا ؟ فأجبت بالنفى !! فردّ فى عصبية وعنف قائلا : إنك ترى وتكتمى تكرر ، فأجبته أن الإنكار ، وإنه هدى أتمنى أن أرى ؟ وكم خدعت فى الطبيب ذلك خدعت فى هذا حيث صمت عاما أتردد على عيادته وقد أتعبت فى تمكين مع شقيقتى الأكبر التى كان طبيب بكلية الحقوق فقد استأجرت غرفة فى شقة فى حى حدائق القبة ، ولما لم تجد فى علاج والدة فضلت رجوعها إلى بلدى وقد انقطعت عن الدراسة حوالين كاملين ، فعاد حسن ؟ تحركت أحداث حسه بسرعة عجيبة دخلت البيت عائدا من القاهرة وجدت حسن يعرفه التى كنا نقاه به قد سقط ، وتيمت على أعمدة من خشب فبعث هذا فى نفوسنا – عميقا ، وانطويت على نفسى ، وذات ليلة كنا نجلس جميعا فقال لى الوالد فى صوت حنون : ما فكرك لو واصلت التعليم وسأوفى عليك زملاءك أن يرعوك ؟ وتأثرت فى نفسى ذكريات الأم !! من ذا سيأخذ بيدى ويقوم على خدمتى ويذكرنى بالعلوم ؟! وتحركت علامات الاستفهام أمام ناظرى كأنها ألسنة اللهب لولا أن أطفأتها دموع غزيرة فأسدل الستار على هذا المشهد الكئيب !!

مرض الوالد

فى صيف ذات يوم من يوم شهر أغسطس كنت أجلس على إحدى درجات سلم أستقبل نسمات فى حر الصيف إذ دخل الوالد قادما من بعض شجارى ولكنه دخل مسرعا حيث جمعه وقد ذرعه القيء فاستند ثم أوى إلى السرير فسمعت له أنينا كأنين من ذبح وحيدة فى حجرها ، وكنت أعلم أنها سيحانة صيف ما تبث أن تشبع ، ولكن لم تقصر تلك قصر قضاه وكانت المأساة التى ما زلت أعانى فى نفسى آلامها حتى الآن ، ولم أجد نفسى حتى تحمل مثقال ذرة من رحمة ، إنما وجدت قلبى كالحجر أو أشد قسوة ، ونفوسنا هى أنا ، وبخالب ، ولم تفتح لى وجدت نفسى وقد عدمت الحياة ، ولا حب فى ولا قوة ، وحسبنى أغدو وأروح كطير يمنى من الأم وهى مسجى ، تلاهى والأقرباء تكرر لنا ما بدت أحوالنا المادية وعكر علينا !!

إذا قلّ مالى قلا حل يصاحبنى ... وفى الزيادة كل الناس خلانى
كم من عدو لأجل المال صادقنى ... وكم من صديق لفقد المال عادانى

كنت ألازم والدى فى مرضه فقد أقعدته شدة المرض كما أقعدنى فقد البصر، وكان إذا جن عليه الليل يشتد أساه وكأنه كان ينتظر الموت كل ليلة لو كان الليل كان سيغير الموت إليه !!

وفاة الوالد

فى صبيحة يوم السبت السادس من سبتمبر ١٩٥٢ ولأمر ما انتقل الوالد من حجرة داخلية إلى حجرة تطل على الطريق، وكانت الأم مشغولة فى هذا اليوم بصناعة الخبز فى فرن البيت . و « يوم الخبز » كما يسمونه ثقيل على نفسى، وكنت فى هذا اليوم - أيام الطفولة - أغادر البيت فلا أعود إلا ليلا، وعاودتنى أيام الطفولة فى يوم لم استطع فيه حراكاً حيث كنت رهين المحبسين، كنت أجلس بجانب والدى ومرت جنازة فى طريقها إلى المقابر وخلفها صبية صغار يكونون أترابهم ، كان ذلك فى تمام العاشرة صباحاً وإذا بوالدى يهمس فى أذنى قائلا : إننى عما قليل سألحق بهذا الميت ! فإذا وقد ملك الإعياء عليه كله وكأنه كان يشعر بشبح الموت يرفرف من فوقه وقام ليناه على السرير ، وفى الساعة الثانية نادى على أخى الأصغر وكان يلعب حيث كان طفلاً ، واستغاث به أن يذهب مسرعاً إلى الطبيب ليدركه ، ولكن كان ملك الموت أسرع من الطبيب إليه ، ومازالت هذه الكلمة ترن فى أذنى وهو يقول لى : « أسأل الله أن يغفر لى » وسرعان ما غسل وكفن ووضع فى سرير المأتم وودعته من البيت حيث سيق إلى مثواه الأخير وبانقضاض ليلة المأتم انفض أهل والأصحاب !!

الواقع المر !!

« يكن هناك بد من مواجهة الواقع فقد هدم ذلك الجدار الذى كان يمثل فى حياتى حاجزا منيعا ضد عوامل الخبرة . وشعرت بعواصف هوج تثور من حولى ، وزمجرت الرياح لتواصف تزعج حياتى . لقد حضر إلينا أحد الأقرباء . بل هو فى مقام الوالد . إنه خالى وشقيق أمى ، الذى سلمها حقها فى ميراث أبيها وقام بتوزيع الأدوار علينا : أشار على أخى الأكبر وكان يومها طالبا بالسنة الثالثة من كلية الحقوق . أشار عليه أن يترك التعليم ويعمل كان لى جدى الحاكم . كما أشار على وكنت يومها أعمل لشهادة الابتدائية الأزهرية . أشار

عليّ أن أعمل مؤذنا في أحد المساجد مقابل ثلاثة جنيهات . كما أشار على أخي الذي يصغرني ، وكان يومها تلميذا في المدرسة الثانوية أن يعمل في محل البقالة الذي تركه والدي ، وكان ذلك المحل يومها خاويا على عروشه ، فلم يبق فيه ما يسد الرمق وكأنه أصبح حزينا على موت صاحبه !! فالوفاء في الأشياء قد يكون أكثر منه في ابن آدم !!

مررت على المروءة وهي تبكي ... فقلت : علام تنتحب الفتاة
فقالت : كيف لا أبكي وأهلي ... جميعا دون خلق الله ماتوا

كما أشار على أصغرنا أن يلتحق بإحدى الصناعات ليتعلم ويأكل لقمة عيشه . ولكن إرادة الله لا تتبع هوى أي إنسان ، فإن في السماء مملكة استوى ربها على العرش :

(عبدي أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد . فإن سلمت لي فيما أريد ، كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد) .

كان العام الدراسي الجديد قد أوشك أن يبدأ . وفي خلوة بيني وبين شقيقي الأكبر أشار عليّ أن ألتحق بمعهد القاهرة الديني لأواصل مسيرة التعليم بالأزهر ، على أن يقوم بتحويل أوراقي من معهد الإسكندرية إلى هناك . وقد كان المعهد قد احتسب العامين اللذين انقطعت فيهما عن التعليم للعلاج – قد احتسبهما رسوبا حيث لم يبق لي سوى سنة استثنائية ، إذا رسبت فيها كان المصير فصلاً من التعليم لا يقبل شفاعة الشافعين . وتصورت نفسي كأني أضع قدمي على شفا جرف هار لو زلت لكانت الهاوية . وما أدراك ما هي ؟!.

وفي يوم من أيام أكتوبر ١٩٥٢ وقبل أن تبرز الغزالة من خدرها وتطل علينا بقرنها والناس ما زالوا في بيوتهم ، اصطحبني شقيقي إلى القطار ، وخرجت من بلدي أتسلل تسلل القط مستخفيا أتجنب أسئلة الفضوليين ، وما أكثرها !، وما أسوأ وقعها على النفس التي تناوشتها السهام من كل جانب ، ومزقتها رياح الشدائد من كل اتجاه ! ووصلنا إلى مدينة دمنهور ، وتنفست الصعداء فقد جاوزت حدود البلد . وركبنا القطار إلى القاهرة حيث كان شقيقي قد استأجر غرفة يقيم بها وهو طالب . وأخذ يسعى جديا في تحويل أوراقي قبل أن ينفرط عقد الأيام فتضيع السنة الاستثنائية ، وكما أن المصغر لا يصغر . كذلك لا استثناء في الاستثناء .

ولن أنسى موقف هذا الشيخ الجليل : الشيخ سيد الجراحي الذي كان يعمل أستاذا في كلية الشريعة . والذي كانت تربطه بوالدي صداقة ، حيث كانا رفيقين في كُتّاب البلدة . فإن الناس لم تنكروا لنا ، بل وتنكر لنا الأهل والأقرباء . ظل هذا الشيخ وفيا ، فقد سعى سعيا حثيثا ، حتى قدّم الأوراق إلى معهد القاهرة وإن كان ذلك قد تم بعد أن انصرم نصف العام الدراسي . ولكن كان لابد مما ليس منه بد . فكان لزاما عليّ أن أحرص على حضور

خاصة وأن فى السنة الأولى الثانوية علوما لم نكن قد درسناها فى القسم الابتدائى مثل : الحديث الشريف والبلاغة والمنطق والعروض . فكيف أقرؤها من غير أن أفهمها ؟

بين المسكن والمعهد

كانت الغرفة التى أقطنها أنا وشقيقى فى حى شبين بدير الملاك، وكان المعهد الذى أختلف إليه بحى الدراسة بالقرب من الأزهر، وكان ذلك يمثل عبئا ثقيلا على نفسى ويكلف أخى الكثير من وقته وجهده . فكنا نركب من دير الملاك وننزل بالعتبة ثم نقطع شارع الأزهر والسير فيه صعب لازدحامه وطوله . كنا نقطعه مشيا على الأقدام . فأصل إلى قاعة الدرس وقد بلغ الإعياء منى مبلغه عندما أجمع أنفاسى المبعثرة ، ثم يأخذ أخى طريقه إلى كلية الحقوق بجامعة عين شمس على أن يعود إلىّ بالمعهد ليصحبنى إلى المسكن . وكثيرا ما كنت أنتظره طويلا حيث كان مرتبطا بمواعيد الدراسة . وكم كان يحز فى نفسى أن ينصرف الطلاب فرحين بانقضاء يوم ملىء بالعلوم . فرحين لأنهم ذاهبون إلى مساكنهم ليأخذوا نصيبهم من الراحة . وأقف أنا وحدى تمر علىّ اللحظات كأنها سلسلة من الحبال ، وتساورنى الظنون وتشد الأوهام أذنىّ : لماذا تأخر أخى ؟.. وهكذا إلى أن يقطع هذا السكون الرهيب صوت أخى يلقى علىّ السلام فينزل سلامه على قلبى كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى فنزرع الطريق إياباً .

ورأيت بمشاعرى أن أوفر بعض الراحة لأخى حتى يتمكن من مذاكرة دروسه ، فأشرت عليه أن يأخذ بيدى إلى الحافلة « الاتوبيس » ويتركنى وحدى على أنزل محطة العتبة مستعينا بأحد الناس الذاهبين فى طريق المعهد . واستعنت بالله فقد كنت أملك عزيمة صلبة أواجه بها شدائد الأيام إذا عصفت ، وخطوبها إذا ادلهمت . فقد عزمت بعون من الله أن أواصل الطريق مهما تراكمت أمامى العقبات . فقد رأيته محفوفا بالأحراش والأشواك التى آوت إليها العقارب والحيات . إذا سلم السالك فيه من لدغة العقرب فقد لا يسلم من نهشة الثعبان .

مجىء الأم إلى القاهرة

كانت أمى تقيم بالبلدة مع بعض إخوتى ، ورأينا أن نجتمع كلنا فى القاهرة حتى يكون فى ذلك نوع من الاستقرار ، فجئنا ببقية الأسرة إلى القاهرة ، بعد ما استعنا بالله وبعنا الحل الذى كان يعمل فيه أبى ، كما بعنا بعض الضروريات التى أردنا أن ننفق من ثمنها ولكن سرعان ما نفذ ذلك المال القليل أمام مطارق الأيام الشديدة التى نهالت فوق رءوسنا . ثم صبر

أخي إلى أن يذهب إلى أحد الأقرباء ، وكان يملك المال الكثير . كان يملك ثمانين فدانا من الأرض الجيدة، وما أن علم ذلك الثري بقدم أخي حتى ولى هاربا مختبئا ، فكلم أخي زوجة ذلك الثري وكانت على صلة القرابة بنا ، وأنه جاء ليقترض ثلاثين جنيها ، ويضع أوراق البيت الذي كنا نملكه في بلدنا تحت يدي ذلك الثري ليكون في ذلك استيثاق برد الدين ، ولكن جاء ذلك الكلام كله دون جدوى . وعجيب أمر هذه الدنيا ، إذا أقبلت على أحد خلعت عليه محاسن غيره فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه !!

وعاد أخي إلى القاهرة والحزن يعتصره فقد عاد بخفي حنين وباتت الأسرة حزينة كئيبة كاسفة البال . فبعنا بعض ما تبقى من الأثاث ، ولم نجد بدا من أن نبيع البيت الذي ورثناه عن أبينا وعرضناه للبيع ، وكانت المأساة بل الملهاة في موقف الناس منا : إذا عُرض ثمن مشرف همس أهل الشر في آذان المشترين بأنه لا يساوي هذا الثمن حتى بعناه بيع المضطر بثمن بخس دراهم معدودة . وتلك طبيعة الناس إذا فقدوا المروءة والوفاء :

يغني الفقير وكل شيء ضده ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى ... حنّت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا ماشيا ... نبحت عليه وكشرت أنيابها

وهكذا حكموا على الأشياء حكما باطلا ، فكل حسنة لفقير اعتبروها سيئة ، وكل سيئة للغني اعتبروها حسنة ، بالفقير إذا كان فصيح اللسان قالوا : إنه ثرثار كثير الكلام ، وإذا كان كريما قالوا : إنه مسرف متلاف ، وإذا كان شجاعا في الحق قالوا : إنه منهور سفيه والغني إذا كان عيّ اللسان قالوا : إنه عاقل رزين ، وإذا كان بخيلا وإذا كان جبانا . قالوا : إنه حكيم راجح العقل .

إن الغنى وإن تكلم باخطأ ... قالوا أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المجالس كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
نعم اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السلاح لمن أراد قتالا

وما أجمل ما قاله أحد الحكماء :

رأيت الناس قد مالوا ... إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال ... فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا ... إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب ... فعنه الناس قد ذهبوا

- رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضة

لم يكن تحت أيدينا سوى ثمن هذا البيت الذي مثّل الجولة الأخيرة في حياتنا المادية ، وكنا حريصين على ثمنه لا ننفق منه إلا في حدود **الضرورة** حرص السجين على طعامه . وقد صدق الصادق المعصوم حيث يقول : « **لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء** » . وحيث يقول : « **ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ، وهو يعلم** » .

وإذا تحول المجتمع إلى قوم يستحلبون الضحر ، وقوم تتمرغ النعمة في أعتابهم يشتهون إلا أن يدوسوها بأقدامهم ، تهب عليهم النسمات معطرة بالأرج . وغيرهم يلفحهم قيظ الهواجر من لفح جهنم . يوم يصير المجتمع هكذا فقد حقّ فيه قول الله تعالى : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة . فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ . وحق فيه قوله جلّ شأنه : ﴿ **وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ . وقوله جل جلاله : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ .

على أبواب الامتحان

ذكرت فيما سبق أن هذا العام الدراسي كان عاما استثنائيا .. الرسوب فيه يؤدي إلى فصل من المعهد . وكان عاما مليئا بالمشاكل مفعما بالأحداث الأليمة . وقد فاتني شهره ، لكي يهنيني في الله ونلقى به قد عزمت على أن أخوض غمار هذه الشدائد حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . وجرت عادة الطلاب أن ينصرفوا قبل الامتحان بشهرين . يتفرغون فيهما استعدادا لدخول الامتحان ، وهنا لاحت أمامي أسئلة وعلامات استفهام كان لها وقع السهام على نفسي : من الذي سيذاكر لي هذه العلوم التي فاتتني ؟ وإذا لم أجد من يذاكر لي فبأي شيء أدخل الامتحان ؟. وكنت أجعل ذاكرتي أكثر مما تحتمل إذ كنت أحرص على أن أظل ذاكرتي يقيه عليّ الأساتذة في قاعات الدرس حتى لا أنساه فأحتاج إلى من يقرؤه لي . ورأيت من الحكمة أن أتفق مع أحد الطلبة لنتذاكر سويا ، والاتفاق مع أحد الطلبة يمثل مشكلة بعدانها المكفوفون فليس ذلك بالأمر السهل إذ أن الذين يعملون الخير ابتغاء مرضاة الله قليلون . فما الذي يدفع البصير إلى أن يذاكر للكفيف إلا أن تكون المنفعة المتبادلة بينهما . فالكفيف ، وقد عوضه الله عن نور البصر ذكاء القلب ، حريص غالبا على حضور الدراسة ، مواظب على السماع من شفاه المدرسين . وتلك جوانب قد تفوت الطالب المبصر ، تجد في مذاكرته مع الكفيف ما فاته . مهما يكن من شيء فقد اتفقت مع أحد الطلبة على المذاكرة معه ، وتحمست على ذلك وظننت أنني قد اجتزت هذه العقبة وما أدراك ما العقبة ؟ لقد ضلّ على

عهده معي خمسة أيام بعدها افتقدته فلم أجده . وكنت لا أعرف حينذاك فقد كان يأتيني لنذهب سويا إلى أحد المساجد إذ كان ضيق المسكن لا يسمح لنا بالمذاكرة فيه . وبارك الله في بيته ، فقد كانت وما زالت وستظل مهابط الرحمة ومنازل السكينة ومساكن الملائكة . في رحابها تعقد مجالس العلم والذكر فتغشاهم الرحمة وتحفهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة ويذكرهم الله فيمن عنده ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾

مفاجأة !!

توقفت بعد خمسة أيام من مذاكرتي مع هذا الصديق بانقطاعه وقلت : لعله أمر عارض يعود بعده مواصلا ما بدأناه ، وإن الأمر جد وما هو بلاعب . ولكن مرت الأيام ، واقتربت ساعة الامتحان دون أن يذكر لي أحد ، ولم يعد ذلك إلا قليلا أنني فوجئت به برسالة يقول فيها : لقد سافرت إلى أمي لأذاكر هناك ، وجئت برسالة متأخرة مما يدل على أن هناك ناسا لا يشعرون شعور الآخرين ولا يحسون بإحساسهم ولا يقيمون للمسئولية وزنا . هؤلاء حمل ثقيل في الحياة لأنها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وأحدث حلقات السلسلة تضيق وكأني بقول أحد الحكماء :

زمان الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فكنت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقول آخر :

هامت على نفسي الهموم كأنها ... وكأنني قربة وصلور
يا ليل أين النور إني تائه ... هل للنفي آه ليس بعدك نور

إن الفرج مع الضيق !!

صدقت يا ربنا فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا . لن يغلب عسر يسرين وبيان ذلك أن العسر جاء في الآية منكرا والنكرة إذا أعيدت معرفة كانت غير الأولى والعسر جاء معرفا بأل والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى . فلن يغلب عسر يسرين .

رأيتني أمام باب اللجنة ، وكان الامتحان للمكفوفين شفويا وكان في الغرفة لجنتان : إحداهما تشدد في الامتحان وتطوى رقاب الممتحنين ، بفتح الحاء ، كما يطوى البرق تُعْصِرات العمام والأخرى سهلة ميسورة . فكأن الطلبة يتحينون الفرصة التي تمكنهم من الامتحان أمام اللجنة التي ترفق بهم ووجدت من يأخذ بيدي فيجلسني أمام اللجنة المتشددة، وحاول أنسى أن يعفيني من يد هذا الذي أنعذل حتى يذهب بي إلى اللجنة الأخرى ، ولكن دون جدوى .

مرت أمامي أشباح رهيبة قبل أن أجلس أمام اللجنة فقد فوجئت بهذا الطالب الذي عمر بالمعهد وتركني ، فوجئت به يقول لي على باب اللجنة : إن رسبت فسوف أقوم بالمذاكرة لك حتى لو نجحت أنا وسبقتك . وأنا من الذين يتفاءلون بالكلمة الطيبة ولا أحب أن أسمع الكلمة التي تجرح المشاعر وتضيق صدري ولا ينطلق لساني إلا بقول : « إن الله معي » وقلت له : إن وليّ الله الذي يزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

كما مرّ بي شيخ رهيب وأنا على وشك أن أتلقى سهام الأسئلة من اللجنة . قلت في نفسي : لو لم أوفق في الامتحان أمام لجنة شديدة البراس فماذا يكون المصير ؟ وكيف يكون الحال أمام متاعب الأيام ومصاعبها ؟. ولكن سرعان ما زال هذا الشبح أمام قول رسول الله ﷺ « لا يقولنّ أحدكم لو كان كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

أمام اللجنة

ياصاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه	لا تيأسنّ فإن الكافي الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنّ فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله في كل لك الله

جرت على لساني آيات ودعوات قبل أن أتلقى سهام الأسئلة من لجنة سبقتها سمعتها في التشديد والصعوبة كنت أردد قوله تعالى . ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ . وقوله جلّ شأنه : ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ . كما رددت هذا الدعاء المأثور : « ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث » .

وجلست أمام اللجنة ورأيتني وأنا جالس على مفترق الطرق فإما نجاح يفتح الباب أمام مستقبل زاهر ترتوي فيه النفس بماء المعارف وإما إخفاق يؤدي إلى سلسلة متصلة الحلقات من الشدائد لا يعلم إلا الله وحده مداها . وبينما تتقاذفني تلك الأمواج العاصفة إذ تنبهت على صوت أحد العصوين سألني عن اسمي . وقلت في نفسي إن هذا الصوت ليس غريبا عليّ . ورجعت القهقرى ثلاث سنوات وعلمت أنه صوت الأستاذ الفاضل الشيخ « أحمد الكومي » وهو رجل معروف بالعلم فهو ذو قدم راسخة فيه . ولن أكون مبالغا إذا ما قلت : إنه رجل يتفجر العلم من جوانبه . وكان قد سبق أن تتلمذت عليه في القسم الابتدائي بمعهد الإسكندرية . وجلست أمامه في خان الامتحان ، وبحق كان صوته وهو الرجل الكفيف ، بمثابة الأمل الذي أضاء في ليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم . سألني الشيخ بصوت مليء بالرحمة : بأي العلوم تحب أن تبدأ الامتحان ؟ وفهمت من هذا السؤال أنه يريد أن أختار علما أكون متمكنا فيه ليبعث في نفسي رباطة الجأش وفي قلبي برد اليقين . وطلبت أن أبدأ بعلم النحو لأنني والحمد لله أحبه . بل هو يمثل في نفسي متعة عقلية فقد تتلمذت فيه على يد عالم فاضل جعلت منه قدوة طيبة لي هو الشيخ محمد مصطفى جاد . عليه سحائب الرحمة فقد كان شابا عالما أنار الله قلبه بمعرفته . وانعكس ذلك النور من قلبه على وجهه . فكنت تعرف في وجهه نضرة النعيم . نعيم التقوى .

ليس الجمال بأثواب تزيننا ... إن الجمال جمال العلم والأدب

كان الرجل يؤدي عمله كرسالة بعيدا عن قيود الوظيفة . فكان العام الدراسي إذا أوشك أن ينقضي دعانا إلى الحضور ليلا لنتلقى على يديه من الدروس الإضافية ما شاء الله أن نتلقى حتى يكمل لنا المنهج ونتصرف بعد الكمال والتمام . هذا رجل والرجال قليل . وهذا القليل فيه الخير والنفع العظيم .

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وديننا ... صحيح ودين الآخرين عليل

زارني محمد ابن الشيخ محمد مصطفى جاد وكان طالبا في كلية أصول الدين ، زارني بجامع الملك وأنا إمام المسجد . وبعد أن عرفني بنفسه أخبرني أن والده قد توفي . وقد أوصاه أن يعودني فإذا ما اختلفوا في مسألة من المسائل أن يرجع إليّ في الخلاف وسألته أن يحدثني عن شيء من حياة أبيه فإني أحب الصالحين وأعلم أنه إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة . فقص عليّ مشيئا مهيبا : كان أبوه رحمه الله إذا فرغ من أداء واجبه ومن إلقاء الدروس بمعهد انصرف خدمة مسجد مجاور بيته يقوم فيه بالإمامة وقراءة درس في التفسير والحديث والفقه . وإذا ما انصرف المصلون بعد صلاة العشاء قام بنصف المسجد بما في ذلك دورة

المياه ، وذات يوم وقف على سلم متنقل فسقط من فوق درجة وانكسرت ذراعه اليمنى . ووُضع في الجبس وبات راضيا عن قضاء الله وقدره . فقضاء الله لا يقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل . ولكنه وهو الراضي عن قضاء الله كان حزينا على كسر ذراعه حيث لن يتمكن من القيام بواجبه في تنظيف المسجد . ولكنه وهو الراضي الحزين ما أن غزا الكرى عينيه حتى رأى في المنام رسول الله ﷺ ورؤياه حق فقد أخبر : « **من رآني في المنام فقد رآني حقا . فإني الشيطان لا يتمثل بي** » . لقد مدّ الرسول يده إليه مصافحا وشدّ على ذراعه المكسور فقام من نومه وقد شفاه الله وعافاه . عكست شخصية هذا العالم انطباعا حيّاشا من حب العلم والاعتراف من حياضه مما جعلني أعتز به وبعلمه . فكان علم العربية حبيبا إلى نفسي .

مع الشيخ أحمد الكومي

فأنا بعلم النحو والرجل لا يريد أن يعرفني بنفسه وكأنه لا يعرفني ولا أعرفه حتى لا يشعر العضو الآخر بذلك فيشدد عليّ في أسئلته وأنا أعلم أن الشيخ الكومي رجل لمّاح الذكاء . وفي الإشارة ما يغني عن العبارة ، وفي التلميح ما يغني عن التصريح . ودخلت في نقاش عنيف مع العضو الآخر في مسألة من مسائل النحو تقول : كل ما جاز أن يُعرب عطف بيان جاز أن يعرب بدلا إلا في مسألتين وتدخل الشيخ الكومي وهو يعلم أنني كنت على حق . تدخل بصوت خفيض وخاطبني بقوله : إن فضيلة الأستاذ يريد أن يبصر بمسألة طال فيها الخلاف بين النحاة ، فكن على بينة من ذلك . وعلمت أنه يريد أن ينهي هذا الجدال . ثم انتقلنا إلى المواد الأخرى وقلبناها على بساط البحث والأسئلة . وجاء موضوع الإنشاء وكنا على وشك الانتهاء من الامتحان فأراد الشيخ أن يعطيني إشارة أستدل بها على أنه يذكرني جيدا ويعرفني فقال لي : صف لنا ذلك المنظر البديع عندما تشرق الشمس فتبدد عباهب الظلمات وينطلق الناس سعيا وراء لقمة العيش والأمل يملأ نفوسهم وقد بدّد عباهب اليأس فقال العضو الآخر وكان شيخنا ضريرا : إن هذا الموضوع يحتاج إلى إنسان مبصر وهذا الطالب كفيف . فقال له الشيخ : لقد كان مبصرا وكُفّ بصره بعد سبعة عشر عاما ، وأنا أعلم عن حياته الكثير وتحدثت في موضوع الإنشاء ما شاء الله لي أن أتحدث ، وكان مسك الختام في الامتحان القرآن الكريم . وأراد الشيخ أن يعلمني بنتيجة الامتحان وذلك بسؤالي في القرآن الكريم بالآيات المبشرة . أراد أن يسلط أضواء الأمل على قلبي فقال لي : اقرأ من سورة الزمر : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ . وختم الأسئلة في القرآن الكريم بسورة الضحى ووقف

في عند قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ . وانصرفت وقلبي يلهج بالرضا ولساني يردد الحمد لله . فقد كنت أشعر بنعمة لا تعادلها نعمة وهي أن الله تعالى سيجعلني من حماة الإسلام وحراس العقيدة ...

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

إن يد الله تعمل في الخفاء لدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

سبحانه وتعالى عزّ كل ذليل وغنى كل فقير وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش تكفل برزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

لا تضيقن بالأمور فقد تكشف غمازها بدون احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

سبحانه لا ينقصه نائل ، ولا يشغله سائل واحد لا تعدد . قائم بلا عمد ، دائم بلا أمد :

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

البحث عن صديق

استبدت العطلة الصيفية ولم يكن لي صديق أو رفيق في وحدتي إلا كتاب الله أتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، فهو كما يقول الإمام الشافعي

وخير جليس لا يُمل حديثه وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع في ظلماته من التعير ينقاه سنا متهللا

فمن أراد مؤنسا فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ومن أراد واعظا فالموت يكفيه ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

ظهرت النتيجة وجاءنى شقيقى عبدالمختار يحمل كشف الدرجات فرحا مسرورا فقد كانت النهايات الكبرى فى العلوم تزين الكشف كما تزين النجوم سماءها . وحمدت الله تعالى فقد كان الكشف بالنسبة إلىَّ ضوءا أخضر ينير لى الطريق ويضع معالمه على الجانبين مبشراً بمستقبل طيب كريم . لكن كان يعكر علىَّ صفوى ما سأعانيه من عدم وجود رفيق يلازمنى فى غدوى ورواحى إلى المعهد ، ويقرأ لى الدروس حتى تسير سفينة الحياة فى جو معتدل ، فكان لابد من البحث عن صديق وفىّ يصدق الوعد أقيم معه فى مسكن قريب من المعهد .

العام الجديد

انقضت العطلة الصيفية وأقبل العام الجديد وتحركت مواكب الأيام وكما قال القائل :

غدا سيصبح أمسى لا يعارضنى ... فى ذاك حىٌّ وأمسى لن يصير غدى

فأيامنا خمسة : يوم مفقود ، ويوم مورود ، ويوم مشهود ، ويوم موعود ، ويوم عميد ، أما اليوم المفقود : فهو الذى مضى ولن يعود ، وأما اليوم المورود : فهو اليوم الذى يناديك فجره : يابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة . وأما اليوم المشهود : فهو اليوم الذى لا يعلم ما فيه إلا علام الغيوب فهو فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله .

ورأى الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه ملك الموت فى المنام فسأله : كم بقى من عمرى فأشار له الملك بأصابعه الخمس فقال له الإمام : أخمس سنوات أم شهور أم أيام ؟ ولكن الإمام استيقظ قبل أن يجيبه الملك فذهب إلى من يعبر له الرؤيا فقال له يا إمام : ما أراد الملك بها سنوات ولا شهورا ولا أياما إنما أراد أن يقول لك : إن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله . ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ .

واليوم الموعود : هو اليوم الذى يتم اللقاء فيه بين الروح وخالقها :

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثان
واصبر على نعم الحياة وبؤسها ... لعمى الحياة وبؤسها سباق

اليوم العميد : هو اليوم الذى لا يوم بعده ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ ﴿ يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء . لمن الملك اليوم لله الواحد

القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب ﴾

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التي كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

هل من صديق ؟!

بذلت الجهد الجهيد بحثا عن صديق نعيش سويا سعيا وراء طلب العلم ، ورزقني الله إنسانا قضيت معه أربع سنوات حتى حصلت على الشهادة الثانوية الأزهرية وكانت المرحلة الثانوية يومها خمس سنوات . كان هذا الصديق هو الأخ محمد الطوخي . والحق أنه كان معي وفيّاً وبي حفيّاً . فقد استأجرنا غرفة في أحد الأحياء القريبة من الأزهر في بيت أكل الزمان عليه وشرب وأناخ عليه الدهر بكلكله فقد كان عريقا في القدم قد كاد يهدمه النسيم ، وكادت تذروه الأعاصير . وتراه من فرط الهزال تكاد تنقبه المواطر .

كان هذا الطالب قد مات أبوه في صغره وكفله جده لأبيه وكما يقولون « وهبّه للعلم » وذات يوم زاره جده في تلك الغرفة التي كنا نقيم بها وسأله عني فقال له : إنه طالب أهل علم وأدب ، فسُرّ الرجل إذ وجد من يلزم حفيده في طلب العلم فأوصاه بي خيرا . كما أوصاه أن يأتي بي معه عند انتهاء العام الدراسي قبل الامتحان لنستذكر معا . ووقعت هذه الكلمة من نفسي موقع الماء البارد في فم الظمآن ، فوجدت مكانا خاليا في القلب فتمكنت منه فضل تمكن . فقد كان في نفسي فراغ رهيب يحتاج إلى من يطبع النفسيات الصادقة ، وذلك من حيث من يقوم معي باستذكار العلوم .

كثيرا ما كنت أعاني من فقد الصديق الصّدُوق .

فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفوُ الوداد طبيعةً ... فلا خير في ود يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ... ويظهر سرا كان بالأمس في خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفى بصدق الوعد منصفا

أوشك العام الدراسي أن ينقضي ، وقد أخذ الطلاب يتصرفون إلى بلادهم ليذاكروا الدروس استعدادا لدخول الامتحان . وكنت في العام الماضي أعاني من هذه الأيام التي يتصرف فيها الطلاب فرحين مقبلين على الجد وتحصيل الدروس ، وأنا الحزين الذي أبحث عن صديق يلازمني في القراءة فلا أجده . لكني والحمد لله كما قال تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ . لقد علمت أن هذا الأخ سيصحبني إلى بلده للذاكر سويا ومن ثم فإنني سأدخل الامتحان وقد اتخذت له عدته فيصير خول أمنا وقلقي ضمانة ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ . وأنا من الذين يتحملون شظف العيش وقسوة الحياة في سبيل العلم . فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم . ومن أراد هما معا فعليه بالعلم .

العلم في حياة النفوس كما ... تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلو سواد الظلمة القمر

والعلماء ورثة الأنبياء . في سبيل هذه المبادىء عانت عليَّ شدائد الأيام . لم يكن سفري إلى بلد صديقي أمرا هيّنا على نفسي . ذلك والحق يقال أنني شديد الحساسية في مأمني وبيتي ومأكلي ومشربي وملبسي . فليس كل مأكل أقبل عليه متأنيا في ذلك بالحديث الشريف : « ما عاب رسول الله ﷺ طعاما قط إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه » وفي مأمني أحب الهدوء وتؤلمني الضجة . وفي ملبسي أحب النظافة ، والبساطة لا أطيق عرقة إذا أشعر عندها باختناق . أحب الماء لأنه يعطيني دفعة قوية . وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أحب وضوءا واغتسالا ، وأحبه شرابا باردا وأحب سماعه خريرا متدفقا . وقد حلى جلاله الله إذ جعل من نعيم الجنة أنهارا تنوعت حسنا وجمالا ﴿ مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾ .

فهل سأجد هناك حيث الإقامة التي ستستمر خمسة وأربعين يوما ، هل سأجد هناك ما أنشده من هذه المطالب وتستريح له نفسي ؟ لكن كل هذه التساؤلات قد زالت في سبيل الهدف الأعلى .

﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾

ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذي يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها ... فلا عزني خال ولا ضمني أب

وقال آخر :

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

وقال ثالث :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقال رابع :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

حقيقة أن الله تعالى يعوض عن نور البصر ذكاء القلب . ولما كُف بصر الإمام عبدالله بن عباس قال :

إن أذهب الله من عيني نورهما ... ففي فؤادي وعقلي منهما نور
عقلي ذكي وقلبي ماحوى دخلا ... وفي فمي صارم كالسيف مشهور

سافرنا إلى بلدة صديقي وكانت إحدى قرى محافظة القليوبية . وتمتاز قرى القليوبية بحدائقها الغناء وأزهارها الفواحة الأريج وهوائها العليل . وكانت القرية التي يقيم بها صديقي تسمى « كفر الجمال » وتشتهر بزراعة الذهب الأصفر : حدائق البرتقال ، فكنا نخرج في نسيم الفجر إلى تلك الحدائق ونفتح كتب العلم ونقرأ ماشاء الله لنا أن نقرأ . وقد أذن لنا أن نأكل من تلك الثمار بين آونة وأخرى .

وبين الأشجار قد نبتت خضروات نسميها نحن « بالسريس والجعضيض » فحولت الأرض إلى بساط سندسي أخضر . أمامنا جداول الماء تنساب رقراقة وحولنا الهواء نظيفا نقيا غنيا بالأوكسيجين . خرير الماء وحفيف الأشجار وتغريد الأطيار وأطايب الثمار وجنى الجنان : كل هذه نعم أنعم الله بها علينا لا نستطيع أن نقوم لله بشكرها فالحمد لله على كل حال حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده .

وكان لهذا الصديق عم كريم الخلق ، عندما انصرفنا إلى القاهرة لأداء الامتحان رأى الرجل أن يقدم لي هدية ، فعبر عن ذوق رفيع فقد كانت هديته قطعة من القماش أعطاها لخياط القرية فصارت ثوبا جميلا خفيفا في حر الصيف ساعد مع ثوبي الذي كان يشكو ألم الوحدة كما أعطاني جنيها جديدا وكان الجنيه يومها ذا قيمة . كما كان لهذا الصديق جدة لأبيه . كانت سيدة صالحة . كان لسانها دائما رطبا من ذكر الله . عندما علمت بسفري زودتني بخيرات تشتهر بها القرية المصرية من خبز وزبد وجبن . وما من شك في أن المعنى الكبير الذي اشتمل عليه ذلك الموقف كان بمثابة الدواء لداء طالما استعصى علاجه ، إنه يحمل معنى الوفاء

والمروءة . فالماديات في ذاتها لا تحمل حيزا كبيرا في النفس بقدر ما تحمله من قيم ومثل ، قال ﷺ : « صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا » وقال : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان » وقال : « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله . فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله » .

ازرع جميلا ولو في غير موضعه ... فلن يضيع جميل أينما زُرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس يحصده إلا الذي زرعا

روى أن رجلا من بني إسرائيل كان يتناول الطعام مع زوجته وكان أمامهما دجاجتان فطرق الباب مسكين فنهره الرجل وردّه ردًا غير جميل واستاءت زوجته لهذا التصرف السيء . ودارت الأيام دورتها وافتقر الرجل وطلق زوجته وتحرك الفلك ومضت الأيام وتزوجت تلك المرأة بغيره . وفي ذات يوم كانت تتناول الطعام مع زوجها وكان أمامهما دجاجتان وطرق الباب مسكين فأمرها أن تعطيه إحدى الدجاجتين ففعلت ولكنها عادت باكية فسألها أتبكين من أجل دجاجة تصدقنا بها ؟ قالت له لا . قال : فما يبكيك إذن ؟ قالت له : أتدري من السائل ؟! أنه زوجي الأول !! قال لها : اتدرين من إنا ؟!! وانا السائل الأول !!

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ . (يا ابن آدم أنفق أنفق عليك) . (الأغنياء كلاني والفقراء عيالي . فإذا بخل وكلاني على عيالي أخذتهم ولا أبالي) . ومن أراد الله فليلتمسه في الفقراء ، والأكباد الجائعة أولى بالصدقات من بيت الله الحرام .

لا تهن الفقير علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

قال حكيم :

إذا جاءت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

وقال آخر :

هي الأيام لا تبقى عزيزا ... وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم ... وأشرق فارتقب يوما أفول

بحمد الله تعالى وبتوفيق منه جلّ شأنه اجتزت الإمتحان وكان ترتيبي فيه الأول . وكانوا يصرفون للأول مكافأة سنوية قدرها خمسة جنيهات ، وكنا نلاقي الأمرين في صرفها والتسويف فيها ، وكان الموظف البائس إذا صرفها لابد أن يحيطها بكلمات مبسومة مثل : لماذا لم يكن على أيامنا مثل هذه المكافآت ؟ وماذا بذلتم من المتاعب حتى تستحقونها ؟ وكنا نلتمس له الأعذار لكننا في اليوم شرق . إنه الآخر قد عضّه الدهر بنابه وأناخ عليه بكلكله ،

حتى صار ممن تجوز عليهم الصدقة ، بل هو سؤول بها من قوم احترفوا المسألة . أما هذا وضرباؤه فممن يقول الله تعالى في شأنهم : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ .

وجاءت السنة الثالثة

تجمعت أنا وصديقي ولله مزيد الحمد والمنة . وقد كان خاطبه تجاهي في . وتفاءل أنه يرافقه لي . وليس ثمة أدنى شك في أن الصاحب الطيب والجار الطيب والمرافق الطيب من القسم الكبرى التي ينعم الله بها على عباده . قال ﷺ . « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » وقال : « خير الأصحاب من إذا ذكرت الله أعانك وإذا نسيت ذكرك . وشر الأصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك وإذا نسيت لا يذكرك » . لذلك أوصانا مولانا تبارك اسمه بالإحسان إلى هؤلاء قال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ .

كان الإمام الغزالي رضي الله عنه يقول : إذا أتى على الرجل حينان في الحضر ومرافقه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في دينه .

ومن سعادة المؤمن الزوجة الطيبة والجار الطيب والدار الوسيعة والدابة السريعة .. نعم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

في السنة الثالثة من القسم الثاني حصل تحول في حياتي فقد أشار علي أحد الأصدقاء وهو الأخ عبدالعزيز بدا ، وكان شابا مستقيم الخلق ، هادئ الطباع . أشار علي أن أنتقل سويا بالجمعية الشرعية للقوم لخدمة الجمعية في مساعدها ووجدت هذه الفكرة صدى في نفسي وسألت : هل لذلك من شروط ؟ وكانت الإجابة من أحد العاملين بها أن الشروط سهلة منها : حفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية والقدرة على الخطابة . واصطحبني الأخ عبدالعزيز بعد ما كتب كل منا طلب الالتحاق ، وذهبنا إلى مقر الجمعية الرئيسية في المغربلين . ذهبنا وكانت السماء تمطر . وعند نزول الغيث يستجاب الدعاء . قال جل شأنه : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ كما يستجاب الدعاء عند إقامة الصلاة ورؤية الكعبة - شرفها الله - وعند التحام الصفوف

أي : وقت القتال في سبيل الله .. وقُبلت طلبات الالتحاق وحُدد لنا موعدٌ للاختبار وذهبنا لأداء الاختبار وكانت اللجنة مكونة من عضوين من علماء الجمعية وهما العالمان الجليلان : فضيلة الشيخ علي حسن حلوة وفضيلة الشيخ أحمد عيسى عاشور . وسألني الشيخ : هل سبق لك أن خطبت الجمعة ؟ قلت : نعم في مساجد بلدتي . قال : كم كان سنك يومها ؟ قلت : ستة عشر عاما . قال : تصور نفسك على المنبر وقد اجتمع المسلمون لصلاة الجمعة وقمت فيهم خطيبا . فماذا عساك أن تقول؟ فحمدت الله وأثنيت عليه، ونطقت بالشهادتين، فانطلقت في الحديث وقد فتح الله عليّ مغاليق المعاني وكان موضوع الخطبة الى مازلت معتزاً بها : « دعوة المسلمين إلى وحدة الصف والهدف والأخوة في الله » انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ أما عن الأخوة في الله فكانت انطلاقا من قوله جلّ شأنه :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وانطلاقا من قوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » . وقوله ﷺ « المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » .

في مساجد الجمعية الشرعية

مازلت أذكر وأنا ألقي خطبة الاختبار أمام العالمين الجليلين، مازلت أذكرهما وهما يبكيان بقلب مفعم بالخشوع والخشية أثناء سماعهما للخطبة مما جعل الشيخ علي حلوة مفتي الجمعية يأخذ بيدي إلى السكرتير ويقول له : اعطه أكبر المساجد ليقوم فيه بخطبة الجمعة . وكن مطمئنا. وكانت هذه الكلمة فاتحة خير، فقد ظللت ثماني سنوات أتنقل فيها من مسجد إلى مسجد ومن حي إلى حي داخل القاهرة وخارجها من المحافظات . ولقد كان عملي بتلك المساجد بمثابة تمحيص . فقد عاشرت الناس وخبرتهم وشاركتهم أفراحهم وأتراحهم . وزرتهم في بيوتهم وزاروني في بيتي . وكانت أعظم ثمرة من ثمار العمل بالمساجد – وما أكثرها – الأخوة في الله ، فقد التف حولي مجموعة من الشباب المسلم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . كانت هذه المعرفة من أسمى أنواع المعارف لأنها في الله وفي أشرف الأماكن ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون

يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

إن رسالة المسجد هي الإسلام كله فيوم يصير المجتمع مسجديا والمسجد مجتمعا تُحل فيه المشاكل في ظل الكتاب والسنة يومها سنخرج على الدنيا كالبحر الطهور الذي تنساب أمواجه تغسل وجه الأرض من أرجاسها وأنجاسها وأدناسها، يومها سنقول بملء الأفواه - سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف في رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صمت آذان الدنيا إن لم تسمع لنا . لقد كانوا قديما يفخرون بأن فلانا مسجدي إن تلقى علومه في المسجد ، كما يفخر الناس في عصرنا هذا بأن فلانا جامعي ،ذلك لأن المساجد كانت حلقات دراسية لا تنقطع دروس العلم منها من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء . وقد ورد أن النبي ﷺ دخل المسجد ذات يوم فوجد به حلقتين : وجد به قوما يذكرون الله وآخرين يقرءون العلم ويتدارسون كتاب الله فيما بينهم فجلس النبي ﷺ مع الذين يدرسون العلم فسألوه : أيهما خير يارسول الله ؟ فقال : هذا خير وهذا خير ولكني بعثت معلما . ثم

العلم كالغيث والأخلاق تربته ... إن تفسد الأرض تذهب نعمة المطر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة ... والناس تلعنه في البدو والحضر

إن المساجد منازل السكينة ومهابط الرحمة يعمرها المؤمنون الخاشعون الذين هم على صلواتهم يحافظون . انظر جلال الخشوع وتأمل أثرها في المجتمع . وكيف ساوت العلية بالزمع . وفي المساجد يتعارف الناس ، وبالتعارف يتبادلون التزاور في الله ، طوبى لهم ،أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء ، والناس في مساجدهم والله في حوائجهم . تُقضى حوائجهم لأنهم تآخوا في ذات الله وفي أطهر الأماكن وأقدس الرحاب .

﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله . فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ وقال ﷺ : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » ، وقال : « بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه . نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم . يقولون ربنا أتمم لنا نورنا . واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ .

قال ﷺ : « المسجد بيت كل تقي » وقال : « إن للمساجد أوتادا جلسازهم الملائكة »

إخوان كرام

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

إن من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عبده أن يرزقه إخوانا أصفياء القلوب ، أتقياء السريرة ، أنقياء الأفئدة ، وهل الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله والشدائد مقياس الصداقة

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

وهل قال رسول الله ﷺ : « **أبو بكر كالغيث أينما وقع نفع** » إلا لوفاء أبي بكر لله ولرسوله . لقد جاء بماله كله مما حمل المصطفى ﷺ يسأله : **ماذا تركت لأولادكم من بعدك يا أبا بكر ؟** على الفور ومن غير إعمال فكر أجاب أبو بكر بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : « **تركت لهم الله ورسوله** » فكان حريا أن ينزل الأمين جبريل على رسول الله ويقول له : « **السلام يقرئك السلام ويقول : أقرىء أبا بكر من ربه السلام وقل له : ربك راض عنك . فهل أنت راض عن الله ؟ قال أبو بكر يارسول الله كيف لا أرضى عن الله وأنا أغنى رضاه ؟!** »

وخديجة .. ما خديجة ؟! وما أدراك ماهي ؟ حظها من الوفاء حظها ومكانتها من قلب الرسول مكانتها ، كانت تأسو بحنانها جراحه وترش بعطفها جناحه . فكانت جديرة أن يقرئها الله السلام من فوق سبع سماوات . لقد جاء سفير الأنبياء السماء وطوى بأجنحته السبع الطباق وهبط على الصادق المعصوم وقال له : « **أقرىء خديجة من ربها السلام** » .. فهما اثنان سلم الله عليهما من فوق سبع سماوات : نزل كبير أمناء وحي السماء بهذا السلام من رب العزة إلى أمين الأرض والسماء محمد خاتم الأنبياء . إذا ذكر الوفاء فهو خديجة . وإذا ذكرت هي فهي الوفاء . ألبست هي التي قالت للصادق المعصوم : « **والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث تحمل الكل وتكسب المعدوم . وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر** »؟!

لقد عرفت في المساجد رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكانوا معي أوفياء ، ولقد شعرت نفسي بدفء الأخوة وامتلأ قلبي بصفاء المودة ، فلقد كنت في مسيس الحاجة إلى من

يأخذ بيدي ويقرأ لي ويملأ عليّ فراغي . فالنفس كالزجاجة إن لم يملأها شيء ملأتها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك :

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوانـي
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثانٍ
واصبر على نعم الحياة وبؤسها ... نعمى الحياة وبؤسها سيان

كان نظام الخطابة في مساجد الجمعية الشرعية يقتضي التنقل في كل أسبوع إلى مسجد مختلف مما أدى إلى كثرة التعرف على الإخوة . وكان في ذلك خير كثير . قال تعالى : ﴿ لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ . لقد كنت قبل الإلتحاق بالجمعية الشرعية أشكو ألم الفراغ . وقد قال ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » فالفراغ نعمة إذا كان في طاعة الله وابتغاء مرضاته وكذلك الصحة إذا استعملت فيما يرضي الله ورسوله . وقد يُحزن المرء ويضيع أجره عندما يصير فراغه لهوا ولعبا ، وتصير صحته اعتداء على الضعفاء . وقد صدق الإمام علي – رضي الله عنه – إذ يقول : « إذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قدرة العزيز الجبار من فوقك » . وجميل ما قاله الشاعر :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

إن أغلى شيء في هذه الحياة الأخوة في الله . وهل الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله . قال الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه « ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » وكل صداقة في الدنيا تقوم على معصية الله عداوة يوم القيامة . وكل أخوة تقوم على الحب في الله وابتغاء مرضاته أخوة كريمة يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ نعم إنهم على منابر من نور ، إنهم ليسوا أنبياء ولا شهداء لكنهم يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله تعالى . فوالله إنهم لعلى نور يبدو وجوههم لنور . لا يخافون يوم يخاف الناس ولا يحزنون يوم يحزن الناس ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

دعوة مستجابة

لا أحزنني الله بفقد البصر عوضني عنه كثيرا من نعمه التي لا تعد ولا تحصى فلقد دعوت الله في ساعة صفاء مع النفس وصدق مع القلب قلت « اللهم إن كنت استرجعت

منى موهبة البصر فاحمل أفئدة من الناس تهوى إلىّ ؛ فكان فضل الله عظيما . فقد جعل أفئدة صالحة تهوى إلىّ ، تملأ علىّ فراغى وتشاركنى شدائد الأيام إذا صدمت ، وتداوى الجراح إذا التهبت . وحقق ، ما قاله النبى ﷺ : « فلينظر أحدكم من يخالل » .

ملأت العطلة الصيفية عملا ودرسا وتحصيلا . وإننى لا أنسى إحدى العطلات الصيفية التى قضيتها عاكفا على قراءة التفسير فى كتاب التفسير الواضح للمرحوم الشيخ محمد عزة . فقد كنت أقضى الليل كله حتى أصلى الفجر فى قراءة هذا الكتاب الذى امتاز بالبحث والوضوح والبعد عن الغرائب ، فإن مما ينقص الدعاة إلى الله أنهم لا يقرءون تفسير القرآن كله ، مما يؤدى بهم إلى عدم الإلمام بمواطن الاستشهاد ومواقع الأدلة . أذكر أن الطالب الذى كان يقرأ معى التفسير سأل مدرس الدين فى المدرسة الثانوية عن معنى قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه : فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ . قال الطالب لأستاذه : كيف يظن رسول من رسل الله أن الله لن يقدر عليه ؟! أليس هذا اتهاما بالعجز جل الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ؟! قال الأستاذ فى الإجابة : ومن قال لك إن يونس كان رسولا ؟! وعلى الفور قال الطالب لأن الله تعالى قال : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ فسقط فى يديه ولم يجد الأستاذ جوابا ، فقال للطالب : هل سلطك أحد على ؟ واتهمت المأساة !! إن المأساة التى نعيشها فى الأزهر أنه لا يعطى القدر الكبير من التفسير للطلبة ، فقد كنا ندرس نماذج من الآيات فلم لا تتجاوز العشرين آية فى السنة الدراسية . ومازلت أذكر أن أحد الشيوخ فى كلية أصول الدين كان مقررا عليه أن يفسر لنا سورة المائدة ، فما فسر منها سوى آيتين من وعى . وعندما بدأ فى تفسير الآية الثالثة – وهى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق** ﴾ إلى آخر الآية ، ظل يتكلم عن الميتة حتى أرشك العام الدراسى أن ينصرم ، حتى قال له أحد الطلبة مداعبا : ياسيدى الشيخ أرجو أن تنتقل من تفسير الميتة إلى غيرها بسرعة ، قال الشيخ : ولم يارجل ؟ قال الطالب : لأننا لو ظللنا أكثر من ذلك فى تفسير الميتة لأكل لحم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة لأننا لم يعرفوها ولم يدركوا معناها . أما الجميع فإنه يعرف الميتة . فليست فى حاجة إلى مزيد بيان !!

إن قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ سأل فيها أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان الإمام الجليل عبدالله بن عباس عليهم جميعا رضوان الله فقال : يابن عباس كيف أقرأ كتاب الله فغشى موجة فى بحر القرآن كادت تغرقنى ، قال ابن عباس : وما هى ياأمير المؤمنين ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه** ﴾

قال ابن عباس : هى من القنوط ، بفتح القاف وسكون النون ، أى نظن أن لن نضيق عليه فلما ترك قومه مغاضبا كان جزاؤه أن التقمه الحوت وهو مكان ضيق ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، من ثم كان نداء على الذين يضعون المناهج للأزهر أن يراعوا فى المقام الأول العناية البالغة بتفسير القرآن الكريم حتى يستطيع الدعاة أن يجدوا زاداً طيبا ووصيدا مباركا فالخير كله فى كتاب الله حفظا وتفسيرا .

أمنية تحققت !!

كنت أتمنى من الله أن يمنَّ عىَّ بالنجاح بنسبة مئة بالمائة فقد علمنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله الفردوس الأعلى وأن لا يحب عبده الملحاح . وتحققت تلك الأمنية فى السنة الثالثة الثانوية فقد حصلت فيها بفضل من الله على تلك النسبة وانتقلت إلى السنة الرابعة .

وقد عودنا مولانا سبحانه وتعالى أن يهبنا النعم فنشكر ثم يختبرنا بالمحن لنصبر . وفى السنة الرابعة أصبت بمرض أدى إلى هزال شديد فى جسمى كاد يهزم العافية فى بدنى ، ووصف لى الطبيب الدواء ولكنى لم أكن أملك يومها ثمنه ، والدهر مدرسة أساتذتها الأيام والليالى . كان لى صديق يحرص على حضور حلقات العلم . أعلم أنه ميسور الحال ، سألته أن يقرضنى جنيها ، على أن أوفيه بسداده أول الشهر ، ولكنه بكل صراحة اعتذر ، وكان اعتذاره بمثابة سهم صوِّب إلى نفسى . وانصرفت كاسف البال . وإذا بى أسمع من ينادى علىَّ . إنه أحد الذين يترددون على مجالس العلم بالمسجد : إنه الأخ عبدالقادر بائع الخضروات ، لقد ألقى علىَّ السلام وصافحنى وسألنى على الفور : مالى أراك هكذا ؟ وكأنه قرأ ما بنفسى من أسى وأجبته عما أريده ، ودونما إعمال فكر أخرج حافظة نقوده وأقسم لآخذن ما يكفينى . كان ذلك الموقف على بساطته ذا دلالة ، فكم من صاحب يلقاك عناقا ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا ، لكن حقيقته خلاف ذلك ، فقد يكون ملكا كريما فى مظهره ، شيطانا رجيما فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب .

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ .

وما أجمل ما قاله الإمام الشافعى :

إذا الموء لا يلقاك إلا تكلفا ... فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة ... وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير في ود يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
ويتكر عيشا قد تقادم عهده ... ويظهر سرا كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفي يصدق الوعد منصفا

عام حاسم

أقبل العام الدراسي الجديد ، وانتقلت إلى السنة الخامسة من القسم الثانوي بالأزهر ، وهو يمثل إتمام الدراسة الثانوية واستقبلته بقلب مفتوح ، وعقل يطلب المزيد من العلم ، ودعوت الله قائلا في أول العام : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري » ولقد تلقينا العلم في هذا العام على أيدي أساتذة من أساطين الفكر والمعرفة ، كانوا جهابذة العلوم ، وعباقرة المعارف . وما زلت أذكر منهم الشيخ « مصطفى الحديدي » الذي كان يدرس لنا علم تفسير القرآن العظيم . الذي بدأ العام بتفسير قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ وبعد يطرح بعض الأسئلة التي كان لي نصيب كبير في الإجابة عنها مما جعله يسألني عن اسمي . ومما أدى بعد ذلك إلى أن أقوم بإعادة الدرس بعد أن يلقيه . وكان بعد إلقائي للدرس يثني على ثنائه الجميل الذي كان ينزل على قلبي كأنه هالات النور أو كنوز الدر المنثور ، ومازلت أذكر أستاذنا الفاضل « كامل شاهين » رحمه الله تعالى ، والذي كان يدرس لنا البلاغة والأدب ، ولقد تعرفت عليه عندما ألقى علينا درسا في علم المعاني في باب الفصل والوصل ، وعندما طلب منا أن يقوم أحدنا فيلخص الدرس يأجمع الإخوة على أن أقوم أنا ، وكانت مفاجأة للأستاذ أن ينعقد هذا الإجماع على طالب ، ولكن زال العجب عندما ألقيت الدرس بتوفيق من الله مما جعله يسند إليَّ أبوابا في علم المعاني كنت ألقيها على الطلبة قبل أن يشرحها الأستاذ ، وكنت بعد إلقائها أترك له مقعد الأستاذية الذي كان يأبى إلا أن أجلس فيه ، تواضعا منه ، وقد كان يخجلني بهذا التواضع عندما يقول للطلبة مداعبا : أظنكم لستم في حاجة إلى شرحي ، وقد كانوا يجمعون على أنهم قد فهموا الدرس فهما جيدا . ولن أنسى فضيلة الشيخ « محمد يوسف » الذي كان يدرس لنا « النحو والصرف » دراسة جعلتني أعشق علوم العربية وأعتز بها . فارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين ، فقد أنارو لنا الطريق ، وسلكوا بنا مسالك المعرفة حتى صاروا جديرين بقوله ﷺ « العلماء ورثة الأنبياء » . وبقوله الكريم : ﴿ تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه ﴾ .

قال الإمام الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لايهدى لعاصي

قال ﷺ عليه وسلم : « يؤتى بالعالم والعابد يوم القيامة فيقال للعابد ادخل الجنة ، ويقال للعالم قف حتى تشفع فيمن أحسنت أدبهم » . وقال الصادق المعصوم : « يشفع للناس ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » .

شدة أعقبها تيسير !!

لما أوشك العام الدراسي أن ينصرم ، وكنت مضطرا أن أبحث عمن يذاكر معي في القاهرة ، وذلك لإلتزامي بأداء خطبة الجمعة في مساجد القاهرة ، جاءني طالب يسكن قريبا من مسكني وسألني هل ارتبطت مع أحد للمذاكرة ؟ قلت له : لا . قال : هل لديك مانع أن نذاكر معا فنحن متجاوران في المسكن . قلت له : لا مانع . قلتها وأنا متخوف لأنني قد وضعته تحت التجربة يوما فلم يكن على مستوى المسئولية ، فقد قال لشقيقي ذات يوم سأصحب الشيخ ذهابا ومجيئا هذا اليوم ، فإن كان ورائك شيء فاقضه وصحبني في الذهاب إلى المعهد ، ولكنه في العودة تركني حتى انصرف الطلاب وظللت واقفا وحدي لا أتحرك خشية أن أصطدم بشيء ومرَّ وقت طويل وأنا واقف أمام باب المعهد ، وقد أمطرت السماء مطرا غزيرا . وسألت نفسي : أين المفر ؟ وسألت الله إنَّ أستاذا كريما كان يدرس لنا « علم العقائد » وسألني برفق : ما أوقفك حتى الآن ؟ وأخبرته أن مرافقي لم يحضر ، وسألني عن مسكني ، وأصرَّ على أن يصحبني حتى البيت ، جزاه الله خيرا فإن من مشى في قضاء حاجة أخيه فكأنما اعتكف في مسجد رسول الله ﷺ عشر سنوات ، واعتكاف يوم واحد في مسجده الكريم يباعد الله به عن النار ثلاثة خنادق ، كل خندق أبعد مما بين السماء والأرض . هكذا كانت أخلاق علمائنا : أخذوا العلم مقرونا بالعمل فكانوا علماء عاملين ، وكانوا عابدين زاهدين ، وكانوا أوفياء مخلصين ، درسوا لنا العلم على أنه رسالة ، نأدوّا هذه الرسالة بعيدا عن قيود الوظيفة ، فكان خالصا لله . وقد تخلقوا بأخلاق الأنبياء عندما أعطوا الكثير ابتغاء ما عند الله من الخير الوفير . لقد صانوا العلم فصانهم الله ، وأعزوه فأعزهم الله ، وعملوا به فرفعهم الله .

لما عرض عليَّ ذلك الطالب أن يلازمني في المذاكرة ، تذكرت موقفه هذا عندما وعدني بالحضور فأخلف ، ولم يكن له عذر في ذلك الإخلاف فقد أخبرني بعض من يعرفه بأنه كان جالسا على مقهى يلعب النرد وإن كان هو قد كذب عليَّ عندما قدم حجة واهية بأنه كان يشتري بعض الحاجات من الغورية . لكن ماذا أفعل وأنا كما يقول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

وكما يقول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

اتفقت أنا وهو على أن نذاكر يوما بمسكنتا في دير الملاك ويوما في مسكنه بمنشية الصدر . وبدأنا ننفذ الجدول الذي رسمناه ، فقال لي : إن لدي فكرة سأطرحها عليك . قلت خيرا إن شاء الله . قال : نقسم المواد قسمين : نبدأ القسم الأول بمذاكرة المواد التي تحتاج إلى شرح مثل : التفسير والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة . أما المواد التي تحتاج إلى قراءة نؤخرها إلى حين الفراغ من تلك المواد ، وكان يقصد بهذه المواد الأخرى : الحديث والفقه والأدب والتاريخ وفهمت من عرضه هذا أن نبدأ بالمواد التي يحتاج فيها إلى شرح على أن يذاكر بعد ذلك المواد التي تحتاج إلى قراءته وحده وبهذه المواد أحتاج إليها من حيث القراءة . لكنني غلبت حسن الظن بعد ما دعوت الله قائلا : « اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك » . وبدأنا في مذاكرة المواد التي تحتاج إلى شرح . وفي الليلة التي فرغنا فيها من مذاكرتها وبينما هو يصحبني من بيته إلى بيتي ، وعندما اقتربنا من البيت وبعد أن انقضى على مذاكرتنا شهر كامل ولم يبق على الامتحان سوى عشرين يوما . فاجأني بقوله : « أحب أن أقول لك : أود أن أذاكر وحدي » . وحدث ما كنت أتوقعه ، لكن الذي زاد الجراح ألما أنني لما سألته : ولماذا قررت أن تذاكر وحدك أجاب بكل افتراء : لأنني لم أستفد من مذاكرتنا معا !! قلت وأنا المغيظ المحنق : وكيف طاوعت لك نفسك أن تضيع شهرا والامتحان على الأبواب ؟ وكيف تقول هذا أو تدعيه وأنا الذي كلما ذاكرنا درسا سألتك فيه ، فتأتي إجابتك سديدة وصحيحة ؟! فلم يحر جواباً . وعلمت أنه لا جدوى في الكلام . فقلت : حسبي الله ونعم الوكيل !! والحق أنني لم أكن نادما على ما حدث على الرغم أنني بذلت معه أقصى طاقتي في شرح المواد وكيف أندم على خير فعلته ؟ والصادق المعصوم يقول : « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله » .

ازرع جميلا ولو في غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زرع
إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذي زرع

أشهد أنى دخلت البيت حزينا أغلو ، وأروح كالطير يمشى من الأم وهو مذبوح ومضت هذه الليلة ثقيلة وليدة ، لولا ما كان يكتنفها من دعوات أتوجه بها إلى الله أستغيث به فى كشف الضر ، فهو الذى وحده يجير المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . وطلع النهار فجلست فى فكر وحزن وسألتنى أمى : ما يحزنك ؟ وأخبرتها بما حدث ، فقالت لى بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لا تحزن فإن الله سيزيل هذا الكرب ، ودعت لى بدعوات صادقات ساعة الإجابة ، وما هى إلا لحظات وطرق الباب طارق . وقلت : من ؟ قال : أنا عبدالمنعم ، وكأنى عثرت على هدف الذى كنت أنشده ، إن عبدالمنعم هذا كان زميلا لى وجلسنا سويا فى لحظة صمت تقطعه بسؤال : هل أنت مرتبط بأحد فى المذاكرة ؟ قلت لا . قال : فهل لديك من مانع من مذاكرتنا معا ؟ قلت : لا . قال : على بركة الله . وقطعنا الأيام العشرين نصل الليل بالنهار حتى أدينا ما علينا والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وهكذا مرت الشدة عندما جاء التيسير :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فى يوم الامتحان

فى صبيحة هذا اليوم صحبنى شقيقى عبدالستار إلى لجنة الامتحان بالمعهد ، وكان الامتحان شفويا للمكفوفين ، وكانت اللجنة مكونة من أعضاء ليسوا من العاملين بمعهد القاهرة إنما جاءوا من معاهد أخرى لأنها شهادة ، وبدأ الامتحان بالتفسير فكانت فاتحة خير ، فقد أعجب الشيوخ بإجابتى فى تفسير كتاب الله حتى قام أحدهم يدعو أعضاء اللجان الأخرى ويقول لهم : تعالوا لتسمعوا العلم من منابعه الصافية ، كنت ساعتها قد أفاض الله علىّ فى آيات من سورة الملك .

وانتقلنا من التفسير إلى غيره من المواد وبينما نحن فى هذا الصفاء العلمى ، وذلك السمو الروحى ، وفى جو التسبح بدفء اليقين ، بينما نحن كذلك ، إذ دخل علينا شيخ المعهد ، وأراد أن يلقى طرفة يمزح بها مع اللجنة لكنها يالأسف كانت فظاظة فى القول ، فقد جرحنى فى أمر لا يمس فيه . إذ قال : ماذا نعمل هذا الأعمى معكم ؟ وعلى الفور رأيتنى كالطير الجريح بل الذبيح ، فإن هذه الكلمة لا أطيق سماعها وقد أمرنا الله تعالى أن نتأدب مع خلقه خاصة فيما حتى لله ، على سبيل الفور قلت له : وهل أنت الذى أبصرت نفسك ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . وحضرنى فى ذلك قول ابن عباس رضى الله عنه ، وقد كُفَّ بصره :

إن أذهب الله من عيني نورهما ففي فؤادي وعقلي منهما نور
عقلي ذكي وقلبي ما حوى دخلا وفي فمي صارم كالسيف مشهور

نعم إن الإنسان لا يُقاس بالبصر ولا بسلامة الأعين ، وإلا فقد خلق الله الحمار أوسع المخلوقات عينا . لقد كان سعد بن أبي وقاص رجلا مجاب الدعوة ولكنه لما فقد بصره على كبر . قال له أبناؤه : سل الله أن يرد عليك بصرك فأنت مجاب الدعوة . فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أستحي من الله أن أسأله ذلك ولكني أسأله أن يدخر لي ذلك عنده في الآخرة . إن الله تعالى إذا ابتلى عبده بفقد حبيبتيه أي عينيه ، فصبر لم يجد له جزاءً إلا الجنة .

يعيرني الأعداء والعيب فيهم وليس بعيب أن يُقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والوفا فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرا وذخرا وعصمة وإني إلى تلك الثلاث فقير

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ . وقد يكون الخير كامناً في الشر . لقد سألني أحد أعضاء اللجنة : لماذا استأت من هذه الكلمة ؟ وسألني سؤالا عقب به على هذه الكلمة فقال : أتحب أن تكون مبصر العينين عاصيا لله ؟ أم مكفوف البصر طائعا لله ؟ وأجبت عن هذا السؤال إجابة ضافية وافية نابعة من يقين صادق وعقيدة راسخة قلت : إن قضاء الله لا يُقابل بغير التسليم وليس له عُدة سوى الصبر الجميل وإن طاعة الله لا يعدلها شيء في الأرض ولا في السماء ، فالعز كل العز في طاعته والذل كل الذل في معصيته . واستشهدت بقوله جلّ شأنه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ ولم يقل تعالى : « يهديهم بأبصارهم » بل إن هناك قوما قال الله تعالى في شأنهم ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ .

وذكرت في ذلك المقام قول رسول الله ﷺ : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وذكرت أيضا قول الحسن البصري رضي الله عنه وقد سُئل أي الأيام عندك عيد ؟ فقال : « كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد »

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عُريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قال عضو اللجنة تعقيبا على هذا الكلام ، اكتفينا بهذا السؤال في علم التوحيد . وتسلسلت الأسئلة بعد ذلك في بقية العلوم وتبعتها الأجوبة ، وخولت كلمة شيخ المعهد من

بلّح أجاج إلى عذب فرات سلسبيل ومن يحونة ملحة إلى شراب حلو للذيذ وفرغت من الامتحان ، وكانت ساعة طلبة يوم أخبرني أخي بظهور النتيجة ، وقد أكرمني ربي عندما منّ عليّ بالتفوق فكان ترتيبي الأول على طلبة الشهادة الثانوية ، حيث حصلت على نسبة مئوية تقدر بتسعة وتسعين .

في كلية أصول الدين

استخرت الله تعالى وقدمت أوراقي في كلية أصول الدين ، فقد اقنعت بها ، إذ أنها تحتوي على زاد عظيم لكل داعية إلى الله فقد اشتملت على التفسير والحديث والعقيدة والفلسفة وعلم النفس والتاريخ واللغة العربية وإحدى اللغات الأجنبية .

وأقبلت الدراسة وأقبلت عليها بقبول حسن ونفسي راضية ، لكن كان يكدر عليّ هذا الصفو ، ذلك الشبح الرهيب الذي عانيت منه من قبل ، وهو البحث عن صديق أقيم معه في الحي الذي به الكلية ، فإن الصديق ، محمد الطوخي ، الذي كنت أقيم معه حتى انتهاء المرحلة الثانوية ، قد التحق بكلية اللغة العربية ، وكان بين مسكني بدير الملاك وكلية أصول الدين بالخازندار بشر مسافة بعيدة تستغرق مني ساعة ذهابا وساعة إيابا . فمن لي بهذا العمل المرير ، بالإضافة إلى مرافق يذاكر لي . لقد أخذنا نجد في البحث عن هذا الصديق الذي سألتزمه في ذهابي وأيابي ومذاكرتي . وأذكر أنني رأيت وجوها كان لي بها سابق عهد في « معهد الإسكندرية » منهم من قد سبقني بعامين ومنهم من سيقني بعام ، ومنهم من صار معي . كما أذكر أن الكثير منهم كان لم يكن بيني وبينه مودة من قبل .

مهما يكن من أمر فقد عثرت على زميل بعد جهد جهيد ، واتفق معه شقيقي على أن نقيم سويا بغرفة بحي شبرا قريبة من الكلية . وتنفست الصعداء ، وذهبنا نتفقد حال الغرفة ومهما كان فيها من سوء فقد كان يشترك معنا ثلاث أسر في ثلاث غرف أخرى ، بالإضافة إلى دورة المياه وما تعانيه من ضغوط سحيقة . لكن كل هذا يهون أمام صعاب أخرى ولابد من دون الشهد من إبر النحل :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

لكن كانت المفاجأة من هذا الزميل مرورة مرارة تفوق الحنظل ، لقد افترشت الأرض بفراش يحول بيني وبين برودة بلاطها وذهب زميل فأحضر العشاء . وعندما أرخى الليل سدوله ، قال لي الزميل : أريد أن اشترط عليك وأبين لك كيف تكون معاملتي لك . قلت له : قل ما تشاء سمع . قال : أولا : أن تشتري لكتب على حسابك مقابل قراءتي لك . قلت له .

موافق – وذلك على الرغم من ضيق ذات اليد – ثانيا : لا ترتبط بوجودى مالك فى الغرفة طول الوقت . فقد أخرج ولا أعود إلا منتصف الليل . قلت له : ثم ماذا ؟ وكانت ثالثة الأسافى أنه قال : ولا ترتبط بى فى الذهاب إلى الكلية . قلت : ما معنى هذا ؟ وأنا ما جئت معك إلا من أجل الذهاب إلى الكلية ؟ قال : إن شئت فاذهب وحدك أو استعن بأحد غيرى . وذكرنى كلامه هذا وخاصة الشرط الثالث ذكرنى بطرفة :

قال القائد للجندى : لماذا لم تطلق النار على العدو عندما مرّ بك ؟ قال : منعنى من ذلك واحد وعشرون سببا . قال : اذكرها قال : أما السبب الأول : فهو أننى لم يكن معى ذخيرة . قال له القائد : كفى . فماذا بعد ذلك من أسباب تذكر ؟ كفى بهذا السبب وهذا الزميل يكفى أنه قال لى : إن شئت فاذهب إلى الكلية وحدك أو استعن بغيرى ... مكثت مع هذا الزميل من يوم الاثنين إلى يوم الخميس . مرت ساعات هذه الأيام وئيدة ثقيلة بطيئة ، كأنها سلسلة من الجبال الرواسخ . فقد نفذ مخططه فكان يتركنى وحدى أعانى ألم الوحدة وعدم المذاكرة بالإضافة إلى شريط من ذكريات مضت . كان يخرج من بعد انتهاء اليوم الدراسى فلا يعود إلا فى الهزيع الأخير من الليل وهكذا حتى كنت أسأل الله أن يحول بينى وبينه ولو كانت الدراسة فى هذه الكلية سترفعنى إلى ما فوق قبة الفلك ، وجاءنى شقيقى « عبدالستار » يوم الخميس ليصحبنى إلى مسكننا بدير الملاك حيث كنت أقضى ليلتى الجمعة والسبت وأذهب فى صبيحة يوم السبت إلى الكلية ، فكنت أصلى المغرب والعشاء يوم الخميس فى أحد مساجد الجمعية الشرعية حيث ألقى الدرس بعد المغرب ثم أخطب الجمعة . ثم أذهب يوم السبت إلى الكلية . وسألنى أخى : كيف الحال مع هذا الزميل ؟ وأخبرته بأن الاستمرار معه ضرب من ضروب المحال : فكان لابد من البحث عن زميل آخر . لكننى أذكر أن هذه الأيام الأربعة التى قضيتها معه لفتتنى درسا فى الحياة لا أنساه وأعطتنى موضوعا لخطبة الجمعة أذكر أننى ما خطبت خطبة أشد تأثيرا من تلك الخطبة . كان موضوعها : « قد يكون الطلاق نعمة » فقد افترضت لو أن ما كان بينى وبينه عقد زواج مؤبد لا طلاق فيه . كيف سيكون العيش ؟ وإلى أى نهاية تنتهى الحياة ؟ وبينت حكمة الله فى مشروعية الطلاق فى الإسلام وإن كان أبغض الحلال ، وبينت عظمة الله فى تشريع الأحكام ، وكيف قال سبحانه : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ وكيف جاء هذا القول الكريم فى آية من آيات الطلاق قال الله فيها : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا . واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ .

نعم : ما من شيء شرعه الله إلا وله حكمة بالغة وإن خفيت عن بعض الناس . إلا أنها كامنة في أحكام الله .

كم من نعمة لا يستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنة

نعم :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض الناس بالنعم

حقا إن هذه الأيام الأربعة التي قضيتها مع هذا الرجل لتقنعني درسا في الإسلام مفاده أن الله تعالى شرع الطلاق ليكون دواء لداء استعصى علاجه ، واستعمال الدواء في غير الداء خطأ وترك الداء بلا دواء خطيئة . فما أعظم الإسلام إذا شخص الداء !! وما أروعه إذا وصف الدواء !!

صديق آخر

ليس من السهل العثور على صديق صدوق ، فإذا رزقته فقد اصطفاك مقسم الأرزاق . قيل لحكيم : أيهما أفضل لديك أخوك أم صديقك؟ فقال : أخي إذا كان صديقي .

نعم : إن المعيار الحقيقي للصداقة الشدائد حتى قال أحدهم :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

وصديقك هو من يَصْدُقك لا من يُصَدِّقك ، كما أن صديقك من ينصرك بعينك . كان عمر رضي الله عنه يقول : « رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي » وكان عمر بن عبدالعزيز يقول لصديق له اسمه عمر بن مهاجر: «يا عمر إذا رأيتني ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبي وهزني وقل لي : اتق الله يا عمر فإنك ستموت » . ولن تستقيم الحياة بدون صديق ، فقد قال علماء الاجتماع : الإنسان مدني بطبعه .

سمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب يدعو الله ويقول : **اللهم أغنني عن خلقك** فقال له : بل قل : **اللهم أغنني عن شرار خلقك. أتدري ما شرار الخلق ؟ قال : لا يارسول الله . قال : الذين إذا أعطوا منّوا وإذا منعوا سخطوا** . تلك ملامح لشخصية الصديق ولقد رزقني الله بعد البحث الطويل بأخ كان زميلا لي في مرحلة الثانوية واتفقنا على أن نقيم سويا في مسكن كان قد استأجره قريب من الكلية . كان هذا الصديق ثريا لذا كان يهتم كثيرا بأكله ومبسمه ولو أدى ذلك إلى ضياع الوقت الذي كنت في مسيس الحاجة

إلى أن أقضيه في المذاكرة ، فكنا مثلاً نخرج من الكلية في الواحدة والنصف بعد الظهر فيضيع منا نصف ساعة في شراء طعام الغداء ، ثم يبدأ في طهي الطعام فينتهي منه بعد العصر ثم نفرغ من تناول الطعام وقد أوشك المغرب في يوم الشتاء أن يؤذن ، فماذا بعد الأكل الذي يمتاز بالدسم إلا أن يغزو النوم الجفون .

وصت الحال على هذا المنوال : أكل فنوم فيقظة لنتناول أكوابا من الشاي ثم نفتح الكتب لنذكر فيستأذن صاحبنا لقضاء بعض حوائجه فلا ينتظم عقد المذاكرة أكثر من نصف ساعة ثم يحضر صاحبنا وقد حمل طعام العشاء ، وبعد العشاء يأتي النوم في ليالي الشتاء الباردة عندما يسري الدفء في الأوصال .

وانتصف العام الدراسي وسألت الله أن يتقد الموقف فما جئت وما سعيت إلى هذه لتكني آكلا أو نائما ، إنما كان الهدف الرئيسي : المذاكرة وتحصيل العلم . فانضم إلينا صديق آخر كان من أقصى الصعيد وكان محبا للعلم . فكان سروري به عظيما فقد تجاوبت نفوسنا وعكفنا على تحصيل العلم . وكانت النتيجة خيراً ، ظللت مع هذا الصديق حتى السنة النهائية في كلية أصول الدين فاضطررت أن أبحث عن صديق يكون أكثر مذاكرة فقد فارقنا الطالب الصعيدي إلى زملاء آخرين .. أذكر وأنا في السنة الثالثة أن كان يدرس لنا الفلسفة الشيخ ، شيخنا حليم محمود ، رحمه الله تعالى ، وكان مقررا علينا الفلسفة الهندية وفيها باب عن تناسخ الأرواح وعقيدة الهنود في التناسخ ، وحدث أن الشيخ طرح علينا هذا السؤال : من منكم يستطيع في الحصة القادمة أن يشرح باب التناسخ ؟ وكان ذلك من قبل أن يتحدث فيه . وأشار الطلاب عليه أن أقوم أنا بشرح هذا الباب . ولم تكن تلك المهمة سهلة ، وكان بيني وبين إلقاء تلك المحاضرة ثلاثة أيام ، حاولت خلالها أن أستعين بأحد الشيوخ في شرح بعض الغوامض ، وذهبت إليه في بيته ، فلم يكن موجودا ، أيقنت وقتها أنه لا مناص من أن أقرأ الموضوع مرة ومرة مستعينا بالله تعالى وحده ، فهو الذي دعاه نبيه موسى بتلك الدعوة : ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ . ومن المعلوم الثبوت أن العبد إذا عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم وأن طاعة الله تورث العبد معرفة ونورا وفرقانا يهديه سواء السبيل .. ذكر العلامة ، ابن سينا ، أنه كان يقرأ مسألة في إحدى كتب الرياضة فأعجزته وتعسر عليه حلها فطوى الكتاب قال : وذهبت إلى المسجد لأصلي العصر ، فلما فرغت من الصلاة وجدت بباب المسجد وراقا يبيع الكتب ، فقدم لي كتابا يبيعني إياه ولم أكن في حاجة إلى شرائه ، ولكنه قال لي : ياسيدي إني في حاجة إلى ثمن هذا الكتاب لأشتري به طعاما فاشتريته لا بقصد قراءته ، إنما لسد حاجة بائعه ، ولما جلست أمام الكتب فتحت هذا الكتاب فإذا هو نفس الكتاب الذي أعجزتني مسألته الرياضية ، لكنني لما قرأته ، فتح الله عليّ كل ما فيه مما كان مستعصيا عليّ من قبل فعلمت أن

أفعال الخير تفتح كنوز المعرفة ، فما أجمل ما قاله رب العزة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ وما أعظم ما قاله مولانا جلّ ذكره : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ .

لقد استعنت بالله تعالى وألقيت المحاضرة التي كانت تدور حول تناسخ الأرواح في الفلسفة الهندية وأثبت بطلانها في ضوء الشريعة الإسلامية ، كما أثبت بطلان تحضير الأرواح مستندا إلى قوله جلّ شأنه متحدثا عن الروح : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

هذا أسلوب عربي مبين يتحدى الله تعالى به البشرية جمعاء أن ترجع الروح بعد خروجها ، فكيف يدعي بعض المفترين على الله كذباً أنهم يستطيعون تحضيرها في سلة من السلال والله جلّ ذكره فصل منازلها بعد خروجها فقال ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ .. ثم أكد هذا كله بقوله : ﴿ إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ وكيف يستطيع أحد أن يحضرها من عالم البرزخ والله تعالى يقول : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ والبرزخ هنا هو الحاجز الزمني ، وقد جعله الله هكذا إلى يوم البعث . وكيف يستطيع أحد أن يخرجها من نعيمها والله تعالى يقول : ﴿ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ وكيف يستطيع أحد أن يخرجها من عذابها والله جلّ شأنه يقول : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ لقد ضلت الفلسفة الهندية ضلالا بعيدا عندما اعتقدت بتناسخ الأرواح وخاضت غمار معركة لا تملك سلاحها . وهل هناك أزمة في الأرواح حتى تحل الروح التي خرجت من إنسان في جسد طفل وليد؟! وهل بلغ من العبث بالأمور الغيبية أن الروح إذا كان صاحبها شقيا حلت في جسد كلب أو حيوان شقي؟! سبحانك ربي يامن قلت ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وهل اطلعوا على الغيب فعلموا أن عدد الموتى يساوي عدد المواليد حتى تخرج الأرواح من أجسام فتحل في أجسام أخرى مساوية لها في العدد ، ثم ماذا يقولون في الحروب وقد يبلغ عدد القتلى مئات الألوف بل عشرات الملايين كما حدث في الحربين العالميتين أين تذهب هذه الأرواح إذا لم تجد أجساما مساوية لها في العدد ؟! إن هذا هو الفرق بين الفيلسوف وعالم الدين ، فالفيلسوف يتبع في بحثه عقله وهواه . ورجل الدين يتبع في بحثه وحي الله وهداه . إن محيط ما وراء الطبيعة أعنف من أن يمخر عنه سباح ماهر . لذا أرادوا أن يضربوا مثلا للفيلسوف وعالم الدين فجاء المثل في صورة حر خضم فيه معترك من الأمواج

لمزقه رياح هوج والفيلسوف يعبره على ثبر من الخشب وعالم الدين يعبره فى سفينة منيعة . فأى الفريقين أحق بالأمن ؟.

لقد ذكرت كل هذا الكلام فى محاضرتى التى ألقيتها على إخوانى الطلبة ، وكان يقف بجانبى الشيخ ، عبدالحليم محمود ، رحمه الله . وما أن فرغت من إلقائها حتى كان لثناء الرجل عليّ قد أحجل تواضعى .

موقف عجيب

حدث هذا الموقف وأنا فى السنة الثالثة من كلية أصول الدين ومع ذلك الصديق الذى كنت أكرم الأخلاق قليل المذاكرة . فقد انصرف الطلاب كعادتهم قبل الامتحان بشهر ونصف أو مزيد ، كل إلى بلده ليعكف على مذاكرة المواد التى سيدخل فيها الامتحان . وانصرف صديقى هذا إلى بلده ولم أكن معه وذلك لأنه لم يوجه إلىّ الدعوة بالذهاب معه كما كان يفعل الأخ ، محمد الطوخى ، ، كما أننى لم أكن راغبا فى ذلك نظرا لقلة مذاكرته . ثم أمسى مرتبط بخطبة الجمعة فى مساجد القاهرة التابعة للجمعية الشرعية . كل هذه الأسباب جعلتنى لا أفكر فى السفر ، وقد تعجب إذا ما قلت لك إن الذى كان يذاكر معى شاب يعمل بائعا للخضروات فى سوق قريب من المسجد الذى كنت ألقى فيه دروس المساء يوم الخميس من كل أسبوع . وكان يصحبنى من بيتى إلى المسجد بصفة منتظمة . لكننى فوجئت بصديقى هذا قبل الامتحان بعشرين يوما قد مرّ فى فى مسكنى بدير الملاك وعرض علىّ أن نذهب معا إلى المسكن الذى كان يجاور الكلية بشبرا حتى نذاكر سويا إلى أن يأتى الامتحان ووافقت لكن على وجل ، فإن الامتحان يوشك أن يطرق الأبواب وأخشى ألا نذاكر كما هى العادة بل أنسى ما ذاكرت . وأنا دائما فى أمورى أسلم الأمر لله وأنا واثق من أن الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار وكل فعله خير .

ما مضى قدر بكرهٍ أو رضاًإلا اهتديت به إليك طريقا
امض القضاء على الرضا منى بما إلى عرفتك فى البلاء رفيقا

وكان ما توقعته ، ففى طريقنا إلى شبرا مر صديقى بأحد المطاعم فاشترى ما يسمى محشية الطعمية ، ثم ذهبنا إلى المسكن فقام بتخريط بصل كثيف أضافه إلى المحشية ثم أضاف إليها بعض البيض وصنع من ذلك الخليط أقراصا من أكل منها قرصا لا يفيق يومه . وشعرت كأن دخلت فى دوامة عنيفة وتناولنا طعام العداء من هذه الأقراص وهزا اليوم الجفون فنام كل منا فى مكانه لا يبدى حراكا . وما أن استيقظت حتى شعرت بضياع الوقت فاستأذنته أن

يعيدني إلى مسكني بدير الملاك ، وعدت إلى مسكني هناك ، واستأذن هو لبقية الأيام وحده وأرسلت إلى « عبدالعظيم » بائع الخضار ، وكان شابا صالحا يحفظ القرآن عن ظهر قلب وشعرت كأن القرآن بالنسبة إليّ في حاجة إلى مذاكرة ومدارسة كما أخبر الرسول ﷺ في قوله : « مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المُعَقَّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت » وكما أخبر في قوله : « تعاهدوا القرآن فإنه وحشي » .

وكأني كنت أنظر من بعيد لأرى ماذا كان سيحدث لو لم أتفرغ في هذه الأيام لقراءة القرآن حفظا وتسميعا . وقد كان ما أراده الله خيرا فكنا نقضي الساعات في حفظ القرآن حفظا جيدا . وجاء الامتحان وجلست أمام لجنة كان على رأسها عالم صالح هو الشيخ « إبراهيم زيدان » رحمه الله تعالى . وبعد أن سألني عن سني قال لي : أتحفظ القرآن؟ قلت نعم. قال: إن كنت تحفظه حفظا جيدا فإنه سيشفع لك في كل العلوم التي ستمتحن فيها ، وإن كنت لا تحفظه فلن تشفع لك المواد بعد ذلك . وزلزلت هذه الكلمات على نفسي منزل الصخرة .وبدأ الشيخ يسأل أسئلة في حفظ القرآن لا يجيب عنها إلا ذو حفظ عظيم وكثيرا ما سأل في سورة الأعراف والتوبة ويونس وهود ، وكان من فضل الله تعالى عليّ أن شرح صدري ويسر أمري وحل عقدة من لساني ، فانسابت آيات القرآن كما ينساب الماء من قمم الجبال ، فسُرّ الشيخ بذلك سرورا عظيما ، ومرّ بالمولد بعد ذلك مرور النسيم وقت السحر ، فقد أخبرني بعد ذلك قائلا ، لقد شفع لك القرآن في امتحان مادتها وأرجو أن يشفع لك في امتحان الآخرة .

شهر رمضان

كان لرمضان ولا يزال وسيظل له وقع طيب في نفسي ونفس كل مسلم إلا أنني أذكر هنا ما كان لرمضان في نفسي من أثر وأنا طالب : كنت أخرج من مسكني بدير الملاك في الثامنة صباحا متجها مع مرافقي إلى أصول الدين بشبرا سيرا على الأقدام ، فأصل في التاسعة إلا ربعا حيث تبدأ الدراسة في التاسعة . وفي الواحدة والنصف من بعد الظهر كنت أعود لا إلى مسكني إنما إلى بيت الله تعالى في حي الشرابية في مسجد يسمى المولى .

وهذا المسجد ذكريات طيبة في نفسي، فقد كنت فيه أدعو إلى الله تعالى على بصيرة من عام ١٩٥٤ إلى أن عُينت بوزارة الأوقاف بعد تخرجي في عام ١٩٦٢ . ومن ثَمّ أذكر أني قضيت في هذا الحي سنين كانت أفضل أيام حياتي في الذاكرة فقد كان أهله رجالا ونساء قليل ، كانوا كرماء طيبين ، ومازلت أذكر لهم جمعة خطبتها في هذا المسجد المبارك وكنت في موسم الحج ، ومن عادتي في الخطابة أنني أبدأ خطبتي بشعر فكان لهذا الشعر أثر

حتى أوقظ الوسنان وأنبه الغافل ، ويكون ذلك بمثابة استحضار للشعور فإن هناك من يجلس معي بجسمه وقلبه هناك كما قال شوقي :

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب مستمع والقلب في صمم

أذكر أنني بدأت هذه الخطبة وكانت في موسم الحج . بدأتها بأعرابي سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ وإذا بسفير الأنبياء وكبير أبناء وحي السماء يجوب الآفاق ويطوي بأجنحته السبع الطباق بقوله جل شأنه ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ . ثم أخذت في تفسير هذه الآية وبينت ما فيها من أسرار بلاغية وقضايا تتعلق بالعقيدة لا أجد بأسا من الإشارة إليها : فهذه الآية « آية الدعاء » جاءت بين آيات الصيام لما لها من صياء يشع في هذا المجال ، فإن للصائم دعوة ما ترد . ولله تعالى حكمة بالغة في أن يقول ﴿ فإني قريب ﴾ بينما نحن إذا استعرضنا الأسئلة الموجهة إلى رسول الله ﷺ وجدنا أن الله تعالى يلقنه الإجابة فيقول له : ﴿ قل ﴾ وإليك هذه النماذج من الأسئلة : قال تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ الخ الآية ، ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ الآية ، ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ الآية ، ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو .. ﴾ الآية .. ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير .. ﴾ الآية . ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى .. ﴾ الآية ، ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نفسا ﴾ الآية ، ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ الآية .

فهذه الأسئلة التي وجهت إلى الصادق المعصوم جاءت الإجابة عنها مقترنة بلفظ قل ، أما هذه الآية الكريمة « آية الدعاء » فقد تجردت من لفظ قل وجاءت الإجابة مباشرة من الله تعالى بلفظ ﴿ فإني قريب ﴾ وهذا باب عظيم من أبواب العقيدة يفيد يقينا أنه لا واسطة بين العبد وربه ، بل كما قال جل شأنه ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وكما أخبر مبعوث العناية الإلهية « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » .

ياصاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافي الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الصانع الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله في كل لك الله

ثم تحدثت بعد ذلك عن السر فى قوله تعالى : ﴿ إذا دعان ﴾ فالمعلوم أن قوله تعالى : ﴿ أجيب دعوة الداع ﴾ يفيد أنه سيدعو ، فما السر فى ﴿ إذا دعان ﴾ نعم إن هناك سرا عظيما فى التعقيب بهذه العبارة ذلك أن قوله تعالى : ﴿ إذا دعان ﴾ يفيد إذا دعانى أنا لا غيرى ولولا ذلك لقال : « إذا دعا » . ثم إن قوله تعالى : ﴿ إذا دعان ﴾ يفيد معنى قوله جلّ شأنه فى الحديث القدسى الجليل (أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه) .

وفى قوله تعالى : ﴿ إذا دعان ﴾ يفيد معنى الظرفية الزمنية فى « إذا » أى أنه سبحانه يستجيب الدعاء وقت الدعاء . ثم إن التعقيب بقوله جلّ شأنه ﴿ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى ﴾ جاء فى غاية الدقة لمناسبته لقوله جلّ شأنه ﴿ فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ أى كما أجيبهم فليستجيبوا لى » .

وبعد أن فرغت من إلقاء هذه الخطبة ، كانت عناية المصلين بى قد أخجلت تواضعى فهذا أول لقاء لى بهم ، وأشهد أننى قضيت فى المسجد سبع عددا ، وكانت فيه نفحات مباركة ، وكان من فضل الله على أن هذا المسجد لما صلى بالرواد بناؤه أربعة أدوار ، وكان لاغنى عن الصلاة فى الشوارع المحيطة به يوم الجمعة ، وكانت نفحات هذا المسجد تتجلى أكثر وأكثر فى رمضان . فكنت إذ فرغت من الدراسة فى الكلية أعود إلى هذا المسجد قبيل العصر فى رمضان وبعد صلاة العصر أجلس بين المصلين فألقى الدرس اليومى من بعد صلاة العصر إلى اصفرار الشمس، وأذكر ذات يوم فى رمضان أن تكاثرت أسئلة المصلين أثناء الدرس فاستمعت إليهم جميعا وكانت تزيد عن العشرين سؤالا . ومن بركات هذا المسجد أننى أجبت عنها جميعا سؤالا سؤالا وبالترتيب كأنى أمام إحدى لجان الامتحان . ثم نذهب بعد الدرس لتناول طعام الإفطار على موائد الكرم عند إخوان امتلأت قلوبهم بحب الله ورسوله . وهل الإيمان إلا الحب فى الله؟ وبعد أن أصلى المغرب أتوجه إلى كوبرى القبة لأدرك صلاة العشاء فى مسجد هناك كانت نفحاتنا فيه لرحمات وتنزل علينا السكينة وتحفنا الملائكة عسى الله تعالى أن يذكرنا فى ملأ خير منا ..

كنت أصلى العشاء والقيام وأقرأ فى القيام جزءا كاملا كل ليلة ويتخلل صلاة القيام درس من العلم يستمر نصف ساعة . كان يؤم هذا المسجد شباب طاهر من طلبة الجامعة ومراحل التعليم المختلفة إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . كما كان يحفه شيوخ بررة تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . لقد أسس هذا المسجد على تقوى من الله ورضوان . قام على تأسيسه رجل طيب القلب هو « الحاج على سلامة » وحمل هذا المسجد اسمه أسأل الله أن يثيبه عليه ويسكنه فسيح جنته .

كنت أعود بعد صلاة القيام إلى مسكنى بدير الملاك وقد أوشك ليل القاهرة أن ينصف ، وما هى إلا سويعات ويأتى وقت السحور فصلاة الفجر فشروق الشمس فيوم جديد ينادى فيه المنادى : ياابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة .

غدى سيصبح أمسى لا يعارضنى ... فى ذاك حى وأمسى لن يصير غدى

ياابن آدم :

دنياك مباعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال
عش راضيا واترك دواعى الألم ... واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش ... فيها كريما واعتبرها عدم
ويافؤادى تلك دنيا الخيال ... فلا تزن تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فتخو الذى ... خطت يد الأقدار أمر محال

ذات صيف

حدث ذات صيف وأنا طالب بالمرحلة النهائية أن صحبنى بعض الإخوة الذين عرفتهم فى المساجد إلى قريتهم لقضاء بعض الوقت . وذهبنا إلى هناك . وعند صلاة العصر ذهبنا إلى مسجد القرية وكان به إمام قد نيف على الستين من عمره . ومن الذين تلقّوا علومهم أيام كان الأزهر يدرس لأبنائه فى كتب صفر قد امتلأت بالقناقل والقناظر والفهفهات . والقناقل هى ما تراه فى كتب الأصول فإن قيل كذا قلنا كذا . والقناظر ما تراه فى الكتب من قولهم « فيه نظر » والفهفهات قولهم « وفيه ما فيه » . لقد كانوا يقرءون المبسوط من الكتب فيخلصون منه إلى الوسيط ، ويقرأون الوسيط فيخلصون إلى الوجيز فأصبح الأزهر اليوم وقد تحوّل إلى ملازم أنيقة ورشيقة ومغلفة بغلاف براق . أصبح أبناؤه يدرسون القشور ويقرءون الوجيز فلا يخلصون منه إلى شىء .. صليت العصر وراء هذا الإمام ، وما إن شعر المصلون بحضورى حتى طلبوا منى أن ألقى عليهم درسا فى العلم ، فاستأذنت الإمام فأذن لى مشكوراً . وكنت قد تعودت إذا وُجدت فى مكان لأول مرة وأردت الحديث أن أشرح لهم حديث جبريل الذى وجه فيه أربعة أسئلة إلى النبى ﷺ : سأله فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان ومتى الساعة ؟ فقد اشتمل هذا الحديث على أصول العقائد وشعائر العبادات ومبادىء الأحكام ومناهج السلوك وقواعد النظام .

وما أن بدأت أشرح الحديث الشريف حتى بادرني إمام المسجد بسؤال قال فيه : إن في القرآن الكريم آية اشتملت على أمرين، وخبرين ونهيين ، وبشارتين . فخبرني ماهي ؟ ووقع السؤال على نفسي وقعا عجيبا لأنه لم يكن له أيُّ مناسبة بما أقوله في شرح الحديث ، لكنه في نفس الوقت نزل من نفسي منزل الرضا إذ كنت أعرف الإجابة عنه فقد حدث ذات يوم أن ذهب صديقي لشراء بعض الأطعمة وبعد أن فتح الورقة التي لُفت فيها الأطعمة قال لي : أتدري ماذا كُتِبَ في هذه الورقة ؟ وبدأ يقرأ : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ ثم قرأ بَعْدَ ذلك عبارة تعقب على الآية الكريمة فتقول : « ومن عجيب الأمر أن هذه الآية اشتملت على أمرين وخبرين ونهيين وبشارتين » فالأمران هما : أرضعيه وألقيه . والخبران هما : أوحينا وخفت . والنهيان هما : لا تخافي ولا تحزني والبشارتان هما : إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

لكنني لما سألني الشيخ هذا السؤال على مسمع من الناس لم يكن على لساني من أدب الإسلام، فلو لم أقرأ تلك الورقة لكان في ذلك إحراج وأي إحراج وقد سبق الإسلام عن تصوير الوجوه فقد قالوا حتى في النصيحة : من نصحك بينك وبينه فقد نصحك ، ومن نصحك على ملأ من الناس فقد فضحك . فماذا كان يقصد السائل من سؤاله هذا ؟ لو كان يطلب الفهم بهذا السؤال لكان ذلك بيني وبينه بعد انقضاء الدرس . علمت بأنه يعلم الإجابة عنه ، لكنني لست بالخبّ ولكن الخب لا يخلبني (أي لست ليما ولا ينبغي أن يخلبني) ، فقلت له : أرجو تأخير الإجابة إلى آخر الدرس إذ لو أجبت على الفور دون إعمال روية أو نظر وصمت الناس للاستماع إلى الدرس . لكنهم شغلوا بالإجابة : هل سأستطيع أن أجيب أم أنه تسويف للهروب . وما أن أرشك الدرس أن ينتهي حتى نادبت على الشيخ قائلاً : أين السائل ؟ أسمع الإجابة : وقرأت عليه الآية الكريمة : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى .. ﴾ الآية ، وما أن فرغت من شرحها على ضوء ما سأل حتى تعالى الناس الصعداء، وسمعت منهم صيحة الإعجاب عالية بالإضافة إلى دعوات لي بالتوفيق والسداد .

السنة النهائية بكلية أصول الدين

السنوات النهائية لأي مرحلة من مراحل التعليم تعتبر سنوات حاسمة في حياة طالب العلم وهي من أجل ذلك تهيئ بالشهادات . ولقد كانت السنة الرابعة في كلية أصول الدين بالنسبة إليَّ سنة أكثر من حاسمة ، وذلك لأنها ستحدد لي ما بعدها . فقد كنت أرغب أن

أعمل بالتدريس في الأزهر ، وكانوا لا يأخذون في التدريس إلا المتفوقين خاصة بالنسبة إلى مكفوفين ، لما كان لابد أن أحث على رحيل يكون مثالاً في الجد والتحصيل للدروس ، فقد ستقت جد نفسي من غفلة الذي يطل طول العام لاهيا ، حتى إذا ما اقترب الامتحان ودقت ساعة الصفر بدأ يفتح الكتب فيكون التحصيلا ضئيلا لا يكاد يشفي غلة ولا يطفئ أوار . ولما كنت في حسبي الحاجة إلى من يكشف أيام دراسته من أول العام على التدريس والتحصيل . فقد عزمت على رحيل أتسلح فيه بالجد والاجتهاد . فاستأجرت غرفة قريبة من مكتبة ، وبدأت عامي قراءة وتحصيل ، ودخلت امتحان النصف الأول من العام حراسي وكانت نتيجة جيدة من بين ولوجيقه كثير من ممتازة . فقد كان هذا الامتحان ضابع جهدي لأنه كان أول مرة امتحن فيها وقد عقدنا من أول دراستنا بالأزهر أن يكون امتحان في مكفوفين شفويا . وقد اشترطو فيمن يكتب لنا في الامتحان ألا يكون من أصحاب شهادات التي تمكنه أن يساعدنا في الامتحان وأن يكون صغيرا في السن ، وكان وهيب في ذلك . فهو أن أحدنا كُلف بأن يؤدي امتحان العام الماضي ، فيستطاع أن يجيب وجه تؤهله لنجاح . ذلك لأن أسئلة الامتحانات ليست معلومات عامة بل هي أسئلة تخصصية فيها .. مهما يكن من شيء فقد اخترت بكتابة الامتحان أحد كان من الذين يترددون على ديوان في بعد ، وكان عاملا في أحد مصانع الغزل والنسيج لكي ما تعامل قد وعد خيرا في عمله وحسنا في الكتابة . وهذا ما كنت أتناه . وبدأ الامتحان في السنة الرابعة . ولوحشت ذات يوم في محاضرة تفسير أن الشيخ الذي كان يحاضرنا في التفسير وفي سورة النحل قال . أعتذر اليوم عن المحاضرة وقد احترت فلانا ، وكان يقصدني ، لكي يقرأ علينا درس التفسير اليوم . وكانت الآية التي يريد تفسيرها قول الله تعالى : ﴿ **وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها . وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ واستعنت بالله تعالى فقسرت الآية . قدر طاقتي وذكرت فيها مئة مباحث تتعلق بسياقها وسباقها ولحاقها ، ثم بينت وجوه البلاغة فيها . ثم في ثنايا البحث من خلال القرآن وروعته وإعجازه ثم بينت البحوث النحوية والصرفية ثم ذكرت الحكمة من هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ وبهذا انتهيت من تفسير الآية وكنت بهذا التفسير راضيا عن نفسي مقتنعا بما قلت . وبعد ذلك جاءت محاضرة ثانية وبدأ الشيخ يسأل الطلبة عن رأيهم بما فسّرت . والحقيقة أنني فيما بلا استثناء أثنوا جميعا وصارت أذكر شهادة الأخ « محمد فتح الرحمن » وهو الآن يحمل شهادة الدكتوراه ويعمل أستاذاً في الجامعة الإسلامية وهو من أبناء السودان الشقيق . قال في شهادته أمام الشيخ : إن التفسير الذي سمعناه في هذه الآية لم نسمع مثله قط . ثم أضاف قائلا : « أعترف أنه تفسيره هذا قد فاق كثيراً من الأساتذة ، فأثارت هذه العبارة حفيظة الشيخ فانتفض غضبا وتكهرب لونه ، فقد أحد الشيخ يومئذ وهو يحمر ويصفر غضبا في

بطون الغاب ، فقد أخذت منه هذه الكلمة التي قالها الزميل مأخذاً أيما مما جعله يزأر زئير الأسود إذا دبس عرينها ، فطلبت الكلمة لأهدىء من روع الشيخ وقلت : إن التلميذ امتداد لظل شيخه وهو ثمرة من ثمار علمه وإن مثل التلميذ مع شيخه كما قال القائل :

كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

ونزلت هذه الكلمات منزل الرضا من نفس الشيخ وأخذ الزملاء بعد انتهاء المحاضرة وبعد انصراف الشيخ يحيونني بكلمات طيبة وكان بعضهم يقوى فيّ روح الأمل ألا يكون كلام الشيخ قد ترك أثرا في نفسي .

كان الأخ الذي يكتب لي الامتحان يلازمني في إلقاء الدروس بالمساجد ، وكان امتحان الحديث الشريف يوم السبت ، وطلب مني الإخوة الذين كانوا يذاكرون معي ألا أخطب الجمعة السابقة على هذا اليوم حتى أتفرغ للمذاكرة معهم لكنه عزّ على نفسي أن أترك خطبة الجمعة ، فقد كانت الدروس والخطب تعطيني تثبيتا للمذاكرة ، فقد كنت ألقى أكثر الدروس والخطب مما أتلقاه من علوم كالتفسير والحديث والتوحيد والتاريخ والأدب والفلسفة الإسلامية حتى علم النفس . كنت أصوغ العلاج من الإسلام للأمراض النفسية والعقد والانفعالات والعواطف وتكوين الشخصية إلى غير ذلك ففي الإسلام ما يفي بعلاج النفوس علاجا ربانيا ، ويكفي في ذلك قول الله تبارك اسمه ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ وكنت كثيرا ما أركز على هذا المعنى الذي يتعلق بالسعادة ، وكثيرا ما كنت أردد هذه العبارة التي تقول : ليست السعادة في الانتشاء بالكئوس المترعة ولا في الاستمتاع بالغيد الأماليد أو سكنى ناطحات السحاب ، إنما السعادة الحقيقية في رضا الله عن العبد ورضاه عن ربه قال تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

سمع مالك بن دينار رجلا في مجلس علمه يقول : اللهم ارض عني فقال له : لو رضيت عن الله لرضي الله عنك . فقال الرجل : فكيف أرضى عن الله ؟ قال له مالك رضي الله عنه : يوم تُسر بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

وكنت كثيرا ما أركز على أن السعادة في تلك المملكة التي أقامها الرسول ﷺ في قوله : « **ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس** » . لقد كان بعضهم ينام على الطوى ولكن لرضاه بما قضى الله كان يقول : « نحن في سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف » وكان أحدهم يقول : « حفر بئرين بإبرتين ونزح بحرين بقربالين وغسل عبدين

أسودين حتى يصير كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى » !!

وخطبت الجمعة ودخلت امتحان الحديث يوم السبت وفوجئت بالكاتب الذى يلازمنى يقول لى : تصور أن امتحان الحديث هو نفس الخطبة التى ألقيتها بالأمس !! فقد كان الحديث الذى خطبت فيه قوله ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا** » . كما جاءت الأسئلة الأخرى فى علم الحديث من واقع ما كنت ألقيه دروسا مما أضفى على الامتحان نور المسجد وقدسيته وجلاله . وهذا مصداق قول الله تبارك اسمه : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شىء قدرا** ﴾ .

رؤيا ليلة امتحان العقائد

مازلت أذكر أنه لما قرر المسئولون فى الأزهر امتحان المكفوفين تحريرا كانت تراودنى أفكار تهوى من الأعماق ، فبعد ما أفرغ من المذاكرة تساءلنى نفسى : هل سيستطيع الكاتب أن يوصل هذه المعلومات جميعا ؟ هل سيكون خطه حسناً ؟ هل سيكون على علم بالقواعد الإملائية التى تريح الأستاذ المصحح ؟ .. إلى غير ذلك من الأسئلة التى كانت تثقل كاهلى وتلقى بظلها الثقيل على نفسى ، ثم أفيق بعد ذلك على نداء الواقع وعلى صوت الزملاء أن : هلمَّ إلى المذاكرة . وأراد ربك سبحانه وتعالى أن ينزل السكينة فى قلبى حتى أدخل الامتحان وفى نفسى سراج يضيء لى الطريق . لقد كنا ندرس علم التوحيد فى كتاب يسمى « العقائد النسفية » وهو منسوب إلى الإمام النسفى وكنت أعتبر هذا الكتاب تمرينات عضلية للعقل كحمل الأثقال لعضلات البدن . من ذلك قوله عن صفات الله تعالى : « **وهى لا هو ولا غيره** » فمن يستطيع أن يصل إلى معنى هذه العبارة إلا أن يكون قد سبق له دراستها والوقوف على معناها . ومن ثَمَّ فإننى لست من الذين يؤيدون التعقيد فى العقائد . إنما أدعو إلى تبسيطها وتيسيرها وأن نُستقى من القرآن والسنة فقيهما حقيقة الأشياء ثابتة واضحة وإذا تحدثنا عن الله فإن خير من يخبرنا عن الله هو الله ثم رسوله . والتوجيه فى القرآن واضح كالشمس فى ضحاها . وفى السنة منير كالقمر إذا تلاها فمن اتبع ذلك سار فى ضوء النهار إذا جلاها .

مهما يكن من أمر فمن فضل الله علىَّ وعلى الناس أننى رأيت ليلة امتحان العقائد رؤيا مفادها كأنى فى لجنة الامتحان وأمامى سبورة وقد كُتب عليها : أجب عن ثلاثة أسئلة وقد كُتب فيها أربعة أسئلة . وقرأت الأسئلة كأنها واقع فى يقظة . وما تداخلت الأسئلة وما التبس بعضها ببعض ، واستيقظنا عند آذان الفجر ، وكان معى من الإخوة ثلاثة غيرى : اثنان من

دباط وثالث من محافظة الشرقية . وبعد ما فرغنا من الصلاة وعدنا إلى المذاكرة، قلت لزملاء : أحضروا كتاب العقائد الذي سوف فيه امتحان اليوم لنراجع تلك المواضع وسألوا عنا هذه المواضع بالذات ! قلت : قد يكون الامتحان في أكثرها وقد لا يحاورها . ولم أشأ أن أذكر الرؤيا فقد خشيت أن أرمى بادعاء . صلاح أو التقوى ، فكنت ما تبادر الظنون إلى النفوس وقد جرت عادة الناس أنهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة وأنهم لا يتمسون لعيوبهم الأعذار بقدر ما يلتمسون عليهم أدنى الأعذار .

تحركت عقارب الساعة ببطء كأنها مسلسلة من جبال ، وأخذنا مقاعدنا في القاعة وحفظنا عما بالأسئلة قبل مجيئها وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول في الحديث الصحيح : « لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة » . ولا أدعي لنفسي صلاحا بل لا أظن ذلك . فاللهم اجعلني خيرا مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون »

ورؤيا علم احتل جانبا كبيرا وساعة عريضة في علوم الإسلام حتى ألف به بعض العلماء ومنهم العلامة « ابن سيرين » وله كتب صحيحة في تفسير الرؤى . فما شأن ومن أين لي الرؤيا التي رأيتها ليلة مصر ولم يدرك بعد حقيقتها عندما قصصت عليهم تلك فقالوا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . ولم أقصّ على يوسف في سجن كان له في تفسيرها تخطيط اقتصادي لمصر لمدة ثلاثين سنة عشر عاما كان آخرها عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون حتى قال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي . فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا اليوم مكين أمين .

ليلة التفسير

لم تكن الرؤيا التي رأيتها ليلة امتحان العقائد السنة توحي إليّ بمعنى التوكل إنما كانت تفيد معنى التوكل والفرق بينهما شاسع والبون بعيد . فالتوكل مطلوب والتواكل مسوغ غير مرغوب . **التوكل** : هو الأخذ بالأسباب مع تفويض عواقب الأمور إلى الله تعالى . قال تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ **قل حسبي الله عليه توكلت** ﴾ .

أما التواكل : فهو إهمال الأسباب وعدم الأخذ بها كسلا وإهمالا . وهذا يأباه الشرع ويرفضه . ولقد كنا من الذين يأخذون بالأسباب ويفوضون عواقب الأمور إلى الله . كنا سمع في المذاكرة اندماجا ينسينا كم الساعة ، ولا نخدع بريقه عن أنفسنا إلا لنذكر عدم

التاريخ . ولقد كنا نصلي العشاء ثم نبدأ المذاكرة فنفاجأ بأذان الفجر ، وكم كان يطوي الزمان بين العشاء والفجر ، تطويه المذاكرة حتى نظن أذان الفجر أذانا للعشاء فلا يظنن قارىء أن الرؤيا التي رأيتها ليلة امتحان العقائد توحي من قريب أو بعيد بأي معنى يفيد التواكل ، ذلك لأن الأخذ بالأسباب واجب فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وهل أجرى الله ماء زمزم هاجر إلا بعد أن سعت بين «الصفا والمروة» سبع مرات طلبا للماء . وهل قال المسيح لأمه أجلسي تحت النخلة تساقط عليك رطبا جنيا أم قال لها : وهزي إليك بجذع النخلة . فهذا كله أخذ بالأسباب .

إن الرؤى إنما كانت من باب قوله تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ أما ما رأيته ليلة امتحان التفسير : فقد رأيت كأنني أقف على محطة القطار فركب الراكب وتركني وحدي . وصحت الدنيا على صوت الفجر يؤذن وقمنا وصلينا الفجر وبدأنا نذاكر التفسير استعدادا لدخول الامتحان حتى إذا لم يبق إلا نصف ساعة حضر إليّ الكاتب وسألته ولأول مرة : هل أحضرت تحقيق الشخصية فوضع يده في ملابسه بحثا عنها فلم يجدها ، ولا يسمح له بدخول الامتحان معي إلا بعد أن يقدم للمراقبين في اللجنة تحقيق الشخصية ، فقلت له : أرجو أن تذهب سريعا فتحضره . وكانت المسافة بين بيته وبين الكلية في الزاوية الحمراء بعيدة . وسألت الله أن يطوي له الأرض لأني لو دخلت اللجنة ووزعت الأسئلة قبل أن يحضر لكان في دخوله بعد ذلك حرج شديد وذهبت إلى اللجنة والألم يعتصرني اعتصارا . فلو أن هذا الامتحان فاتني لضاعت عليّ السنة الرابعة فأضطر أن أعيدها وأعاني في البحث عن رفيق ما أعاني . ولكن لله تعالى له في خلقه شئون وله في كل نفس مائة ألف فرج ، وله سبحانه رجال كأنهم يحملون الجنة في صدورهم لقد جلست في المكان المخصص لي ، ومكان المرافق شاغر تعلوني ساحبة دكناء ونجم محترق . لكن قطع عليّ ذلك الصمت الرهيب صوت أستاذ جليل كان يدرس لنا علم العقائد سألني : أين مرافقك ؟ قلت : يأتي الله به . فقال في إيجابية وصرامة : فمالي أراك حزينا؟ قلت : لتخلف المرافق . فأقسم بالله : لو لم يحضر لجلس بجانبي وكتب لي ما أملي عليه . ثم أردف قائلا : إن الجميع هنا يعلم أنك طالب مجد ولا يتصور أحد منا أنك في حاجة إلى من يلقنك الإجابة . وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث إذ حضر الكاتب وقضي الأمر .

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

وجميل أن يقول آخر :

لا تضيقن بالأمور فقد ... تكشف غمازها بدون احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر ... له فرجة كحل العقال

من فضل الله تعالى عليّ أنني حصلت في مادة التفسير تحريرا على أربعين درجة من أربعين وشفويا على عشرين من عشرين وحفظا للقرآن على ثلاثين درجة من ثلاثين . فكان المجموع الكلي تسعين درجة من تسعين .

امتحان اللغة الإنجليزية

كان على الطالب في كلية أصول الدين أن يختار إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ، وقد اخترت اللغة الانجليزية وكان العجب أن نؤدي نحن المكفوفين الامتحان فيها تحريرا إذ أن ذلك يتطلب أن يكون مع الطالب من يكتب له . فكيف يكتب له اللغة الإنجليزية من لا يعرفها . وإذن لابد أن يكون الكاتب المرافق عارفا باللغة وملما بها . وبناء على ذلك فإنه من الجائز أن يساعد الطالب فيها فكيف فات عليهم ذلك الأمر ؟ وقد وفقني الله تعالى إلى أخ كان يجيد الإنجليزية كأحد أبنائها ، ودخل معي الامتحان ، لكني بفضل الله كنت قد أعددت للأمر عدته من المذاكرة ، فحصلت في هذه المادة على تسعة عشر درجة ونصف من عشرين .

امتحان الفلسفة

كان مقررا علينا في السنة النهائية من أقسام الفلسفة « الفلسفة الإسلامية » كفلسفة ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد . وكذلك كتب تهافت الفلاسفة لحجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى . وحدث ليلة امتحان الفلسفة أن جفاني النوم فظللت في أرق دائم ودخلت الامتحان وأنا بين النائم واليقظان ، وأنا من الذين يؤمنون أن النوم ليلة الامتحان وأخذ قسط وافر من راحة البدن ، أهم من السهر والمذاكرة .. مهما يكن من أمر فقد دخلت الامتحان وأنا شبه نائم . واستمعت إلى الأسئلة من كاتبي وتخيل إليّ أنها لم تخطر لي على باب من قبل ، وتوقفت برهة عن الإجابة ، ومددت أكف الضراعة إلى الله أستغيثه وأستعينه وأستهديه أطلب منه العون المدد ، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملا . وبدأ القلم يكتب واللسان يملي ، والقلب يتضرع ، وانتهى الامتحان ولكن لم أشعر فيه بالطمأنينة إلى النجاح الذي أكنت أنشده . وذهبت إلى المسكن كاسف البال حزينا فقد كان شبح الرسوب يحوّم على رأسي ، كأنه سحابة دكناء ، أو نجم محترق . ولم أجد مفرا من هذا الشبح الرهيب الذي يطاردني إلا أن أخلّ إلى الفراش لأنام . فقد يكون في النوم راحة . وغفوت غفوة فرأيت رؤيا كانت هي النتيجة فقد رأيتني وسط جماعة من الأصدقاء في جوّ طيب فمت

فى توزيع قطع الحلوى عليهم ، وقد جرت عادة الناس فى اليقظة أن يوزعوا مثل هذه الحلوى فى مناسبات السرور والفرح . واعتبرت هذه الرؤيا السكينة التى يلقيها الله فى القلوب لتطمئن وتهدأ . وقمت فعلا مطمئنا واثقا من أن الله تعالى لن يخزينى . وكان ذلك دافعاً لى لمذاكرة المادة التى سأمتحن فيها غدا ، ولولا هذه الرؤيا التى رأيتها ونزلت على قلبى كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى . ولا ذلك لطاردتنى الأشباح السوداء التى يزيها الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وقد منحنى الله فى الفلسفة درجة لا بأس بها ، وانقض سوق الامتحان كما بدأ والدنيا كلها سوق قام ثم انفض ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الرابحين .. وذات يوم كنت أؤدى خطبة الجمعة فى حى التوفيقية ، ولم يكن هذا الحى به مسجد كبير يتسع للأعداد الغفيرة فكانوا يتصببون الخيام اتقاء حر الشمس اللافح عندما يقوم قائم الظهيرة وعندما تضرب الشمس بسياطها الحامية وجه الأرض . وقبل أن أصعد المنبر جاء من يبشرنى بنتيجة الامتحان . فسجدت لله شكرا على ما أنعم به علىّ من نعمة النجاح ، فالنجاح كلمة طيبة ، طالما اهتزت لها قلوب الناس ووصل رنينها إلى أعماق الأفئدة .

الترشيح للعمل بالأوقاف

التحقت بقسم تخصص التدريس وكان هذا القسم عبارة عن دراسة لعلوم تربوية كسيكولوجية الطفولة والمراهقة ، وأساسيات التربية ، وطرق التدريس ، والصحة النفسية وخلال هذه الدراسة أعلنوا عن تكريم الأوائل فى الشهادات العليا ، وحُدد لذلك يوم الثامن عشر من شهر ديسمبر بقاعة المحاضرات الكبرى بجامعة القاهرة . وكان هذا على مستوى الدولة بجميع جامعاتها وأقسام الدراسات العليا ، وذكروا أن رئيس الجمهورية سيقوم بتوزيع الجوائز على الأوائل ، وتباشر إلى أذهاننا أننا سننال جانبا من الجوائز المادية يعيننا الله بها على أعباء الحياة القاسية ، وهنا ظلت أحلام اليقظة تراودنا ، فمن قائل إنه بعد الحصول على هذه المكافأة المالية سيشرع فى الزواج ، ومن قائل إنه سيقوم بتكوين مكتبة فخمة نعيم على القراءة والاطلاع ، ومن قائل إنه سيوسع على أهله الفقراء .. وهكذا أخذ الخيال الخصيب سبيله إلى النفوس الظامئة إلى أن جاء الموعد المشهود ، وأخذ الأوائل مقاعدهم وتربع على المنصة رجال الحكم وأُدى على الأوائل بأسمائهم ، وقام رئيس الجمهورية بتوزيع الجوائز ، وكانت عبارة عن عمود وحلة وظننّا بعضنا أن هذا العمود به شيئ . يصرف من البنك ، وبعد أن انتهى الحفل قام كل منا بفتح العمود والعلبة فإذا العمود شهادة امتياز تقديرية وفى العلبة ميدالية برونزية . وانصرفنا راضين بما قضى الله تعالى ، فعلى المرء العاقل أن يضع نصب عينيه

قول الله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقول رسوله الكريم : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

اعلان من مكتب العمل :

أعلن مكتب العمل عن وظائف للخريجين وعلى كل خريج أن يشترى الاستمارة ويقوم بكتابة الرغبات ، وكنت أرغب أن أعمل مدرسا بالأزهر أو معيدا بكلية أصول الدين فقد كان ترتيبى الأول ولكن أراد الله – والخير كل الخير فى إرادته ، فقد علمنا سبحانه أنه صاحب الإنعام والفضل – أراد أن أعمل إماما وخطيبا « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » .

راسقبلت هذا الأمر وهو تعيينى إماما بمساجد الأوقاف ، استقبلته بقبول حسن ونفسى راضية ؟ فأنى بعمل المسلم ، وما يقف خمس مرات أمام المصلين متوجها إلى مالك الملك وملك الملوك معتقدا أن الكعبة ، أمامه والموت وراءه ، والجنة عن يمينه ، والنار عن شماله ، والصراط تحت قدميه ، والله تبارك وتعالى مطلع عليه ، فما شرف لا يدانيه شرف ، ومكانة لا تسامى ، ولا يلحق بها ولا يشق لها غبار .

بل إنى اعتبره اصطفاء من الله الذى قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ وجاء وقت استلام الكتاب الخاص بالتعيين فى الجهة التى ستحددها الوزارة ، وذهبنا إلى مدير عام الدعوة بمبنى وزارة الأوقاف ، وكنت حريصا على أن يكون تعيينى بالقاهرة حيث تقضى الأمور ذلك ، فإن ارتباطى بالأسرة كان حتما مقضيا لكننى فوجئت بأن كل خريج يدخل على مدير الدعوة يسأله المدير قائلا : من أى المحافظات أنت ؟ فيعينه فى عاصمة محافظته . هذا من الشرقية فيعين بالزقازيق وهذا من الغربية فيعين بطنطا .. الخ ، وبناء على ذلك فسوف أعين بدشنا عاصمة البحيرة . وظللت واقفا لم أدخل على المدير حتى أعد للأمر عدته بعون من الله ، وسألنى السكرتير الخاص بالمدير : فى أى الأماكن تريد أن تعمل ؟ قلت : بالقاهرة . فعجب وقال لى هذه الكلمة التى مازلت أذكرها ، قال : أرأيت كذلك هذا ؟ قلت : نعم قال : لو نبت فيه شعر فسوف تعين بالقاهرة . وكأنه بذلك علق الأمر على مستحيل كما فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ﴾ .

وقلت له : بإذن من الله وتوفيقه سوف أعين بالقاهرة . وذلك دائما يقين فى الله الذى يقول فى الحديث القدسى الجليل : (عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد) . وانصرفت لأعود فى الغد إلى مقر الدعوة لكنى انصرفت كاسف البال لما قاله لى ذلك الذى لم يُوفق إلى كلمة يأسوبها الجراح وأثناء انصرافى سمعت من ينادى علىّ ، إنه رجل بسيط يعمل ساعيا بالوزارة أخبرنى عن اسمه وأنه مواظب على الصلاة معى يوم الجمعة بالمسجد الذى أخطب فيه بحى الشرابية ، وأخبرنى بأنه سيعمل قصارى جهده فى أن يلبى رغبته ، وأوصانى أن أقرأ الليلة يس وأن أمر عليه بالغد قبل أن أدخل على المدير وأراد ربك أن يجرى الخير على يديه ، ومررت به فإذا هو يقول لى بتعبيره البسيط « اطمئن كل شىء تمام » ودخلت على المدير وكان مهندسا زراعيا فقال لى مداعبا : لماذا تصر على تعيينك بالقاهرة ؟ فشرحت له الأسباب بالإضافة إلى أن ترتيبى يسمح لى بذلك . فقال : لقد عُينت بمسجد الطيبى بالقرب من مسجد السيدة زينب رضى الله عنها وأحب أن أسمع عنك خيرا . ولم أرد أن أتكلم بعد ذلك واعتبرت هذا شيئا جليلا ، وأخذت كتاب التعيين ، ونادى علىّ السكرتير وسألنى : أين عُينت فقلت له بلسان اليقين : بعون من الله عُينت بالقاهرة ولم يبت فى كفى شعر .

كان بين مسكنى وبين مسجد الطيبى مسافة بعيدة ، فقد كنت أقيم بحى دير الملاك بحدائق القبة وكان المسجد يقع قريبا من حى زين العابدين إلا أن ذلك هان بإزاء العزيمة القوية والحافز الذى كان يدفعنى إلى الإقدام بخطى ثابتة ورباطة جأش قوية . لقد كنت أذهب كل يوم بعد ما وزعت الأيام على نخبة من الشباب الصالح لأعود بعد صلاة العشاء . وأذكر أن أول جمعة أديتها فى هذا المسجد لم يكن به أكثر من صفين اثنين من المصلين وقد كان المسجد يقع فى حى معروف بكثرة – المقاهى ذات اليمين وذات الشمال وكان أكثر روادها من العاملين بالجزارة أو بيع الأسماك ، وكانوا مذاهب شتى فهذا صوفى ، وذاك وهّابى ، وذلك لا هذا ولا ذاك ، مما ضاعف الأعباء علىّ فى الدعوة ؛ فقد كان لزاما علىّ أن أوحد الكلمة أولا وأجمع القلوب على كلمة التوحيد كنت ألقى دروسا بين المغرب والعشاء كل يوم انتظمت علوم الإسلام : التفسير يوم السبت ، والحديث يوم الأحد ، والفقه يوم الاثنين ، والسيرة النبوية يوم الثلاثاء ، وعلم التوحيد والعقائد يوم الأربعاء ، والأخلاق يوم الخميس ، والخطبة يوم الجمعة ، يليها درس بعد الصلاة .. لم يكن بالمسجد مكبر للصوت ، وكان الحصير قد أصابه البلى فأصبحت أرضه عارية .

أخذ الإقبال على المسجد يزيد شيئا فشيئا ؛ فى دروس المساء فقد هجر الناس المقاهى وأقبلوا على بيت الله تائبين مستغفرين وبدأنا نقوم بعمارة المسجد ؛ فتبرع أحد المصلين بمكبر

للصوت ، وقام بعضهم بشراء الحصير ، وازداد الإقبال يوم الجمعة حتى ضاقت الشوارع المحيطة بالمسجد بجموع المصلين . ومازلت أذكر « المعلم حنفي » الذى كان يدور يوم الجمعة أيام الصيف بالماء المثلج يسقي الظمأى ، كما مازلت أذكر دور إحدى المسلمات التى كانت تقوم بفرش الحصير خارج المسجد .

جلست ذات يوم فدخل علىّ « المعلم عطية » قبل المغرب عندما أوشكت الشمس أن تودع الكون ، وجلس بجانبى حزينا وسألته عن حزنه فقال لى : أنت المصيب !! وسألته خيرا . فقال : لقد وصيتنا بأداء صلاة الفجر ولما عدت وجدت القفل قد كسر وقد أخذ اللص كل محتويات الغرفة ، وهذه أول مرة أصاب بمثل هذا ! أعد ما تُبت إلى الله يصيبنى هذا الذى أصابنى؟! وكان هذا الرجل يعمل بائعا للسمك ويقيم فى الغرفة وحده . ولابد أن يكون الجواب منطقيا ومقنعا فقلت له : وهل هذا يدعو إلى أن تحزن ؟ إن الإنسان عندما يتقدم للعمل بإحدى الوظائف لا يستلم عمله إلا بعد أن يقدم مسوغات التعيين ، وأنت اليوم قد تقدمت للعمل فى ساحة الرحمن حلّ حلاله فلابد من مسوغات التعيين وهاأنت ذا قد قدمتها بصبرك على البلاء ، فكن قرير العين ، مطمئن القلب فقد قال ﷺ : « **ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يُشاكها وصبر عليها إلا كفّر الله بها من خطاياه** » . ورضى الرجل بقضاء الله بعد ما أنزل الله برد السكينة على قلبه وأصبح من أرتاد المسجد الذين ما أذن المؤذن للصلاة إلا وهم داخلها لا تفوتهم تكبيرة الإحرام وراء الإمام ، « **إن للمساجد أوتادا جلساؤهم الملائكة إن غابوا افتقدوهم ، إن كانوا مرضى عادوهم وإن كانوا فى سفر دعوا الله لهم** » صدق رسول الله ﷺ .

إن العمل فى مجال الدعوة إما أن يكون وظيفة أو رسالة ، فما أيسره إذا كان وظيفة تعتمد على التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف : وما أعظمه إذا كان رسالة تقوم على الصدق والصبر والشجاعة .

إن الداعية إلى الله يجب أن يكون قدوة صالحة بصيرا بزمانه شجاعا فى الحق لا يجارى ولا يوارى ، صبورا على تحمل الشدائد متفانيا فى قضاء حوائج العباد واسع الصدر كريم الخلق ، لا يمل ولا يضجر ولا يضيق صدرا بمشاكل العباد وعليه أن يعتقد أن الله تعالى لا يضيع له أجراً ، فهو من عباد الله الذين اختصهم لقضاء حوائج الناس .

خطبة موجهة

تؤدى خطبة الجمعة رسالتها المنشودة إذا كانت مُوَجَّهة (بكسر الجيم) . ولكنها تصاب بالعرج والعقم إذا كانت مُوَجَّهة (بفتح الجيم) . والفرق شاسع بين كسر الجيم وفتحها . فالخطبة الناجحة هي التي يُتبع من مناهل الإسلام العذبة ، لا تعكرها شائبة من رياء أو نفاق أو مجاملة على حساب الدين . يبين الخطيب فيها أحكام الله وتوجيهاته وإرشاداته على لسان رسوله ، يعالج فيها المشاكل المحلية والعالمية في ظلال الإسلام الوارفة ومنابعه الصافية . وعلى الخطيب أن يكون بصيرا بزمانه مدركا لأحداث الأيام فيعالج أولا بأول ليضرب والحديد ساخن لأن الأحداث إذا بردت وذبلت بطول الأيام أصبح الكلام فيها أوعنها كلاما تموت ألفاظه على الشفاه . وإذا كانت التربية في الإسلام تقوم على القدوة والموعظة والقصة والعقوبة ، فإن الأحداث لها نصيب موفور في مناهج التربية . وهل كانت قصة الذين خُلفوا وهم الثلاثة الذين ورد ذكرهم في سورة التوبة ، هل كانت هذه القصة إلا ضربا في الحديد وهو ساخن ، ودرسا للأمة الإسلامية بقبل أن الصدق منجاة وأن الإيمان أن تُؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك؟ إن الثلاثة هم : هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك . لقد تاب الله عليهم لما علم فيهم الصدق ، وجاءت نتيجة الدرس بعد ذلك مركوزة في قوله جلّ شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

نعم . ما أعظم الخطبة إذا كانت ذات هدف ومغزى وقيمة وما أجلها إذا كانت كالمائدة التي يستفيد منها الصحيح والمريض ، كل يأخذ من الطعام ما يلائم صحته ولا يضر بها . كذلك الخطيب الناجح يراعي في خطبته الحال التي عليها المستمعون فيقدم للخاصة وللعامة وأصحاب الثقافات العالية والمتوسطة يقدم لهم من العلوم والمعارف ما يناسب عقولهم . إنه إن فعل ذلك فقد احترم مستمعيه وإن أنس لا أنسى يوم توجهت إلى مسجد الطيبي لأؤدي خطبة الجمعة بعد أن مضى على تعييني ثلاثة أشهر . وقبل أن أصعد درج المنبر فوجئت بأحد العاملين في المسجد يتقدم إليّ بمنشور من وزارة الأوقاف فدلعته إلى مرافقي فإذا هو فيه « يُنبه على خطيب الجمعة أن يكون موضوع خطبته اليوم حث المصلين على العناية بتنقية دودة القطن حيث القطن ثروة ذات عطاء اقتصادي للأمة » وأشهد أنني أصبت يومها بوجوم لا من أجل المفاجأة وأن الموضوع جاء متأخرا إذ كان ذلك قبل صعود المنبر بنصف ساعة ليس إلا . لم يكن الوجوم دافعه هذا ، إنما كان دافعه أشد عمقا . إن دافع الوجوم هو

التفكير فى حقيقة هذه العقليات التى تُصر على أن تكون الخطبة مُوَجِّهة وأن يصير الخطباء أدوات مُوَجِّهة ؛ وأن يتحولوا إلى أمرٍّ لدى أصحاب المكاتب . فكيف أخطب فى موضوع بحث المصلين على تنقية دودة القطن وجمهور المسجد الذى أخطب فيه أحد رجلين : إما تاجر أسماك وإما جزّار والأقلية من متوسطى الثقافة ؟! فهل أتخلى عن عقلى وإدراكى وأخطب لأنهم من المستمعين بعد ذلك بالجنون ؟ عافانا الله منه وعفا عنا . ولكن ماذا أصنع ؟ وهذه الخطبة يكتب عنها تقرير يترتب عليه أمور تتعلق بصلاحيتى فى الخطابة . والرجل الأريب العاقل هو الذى يقول كلمة الحق دون أن يسمح للآخرين أن يتسلقوا على كتفيه . وليست الشجاعة ثوراً ، إنما الشجاعة حكمة وقوة إيمان وبعد نظر . فكيف تصرف لأكسب الجولة؟ إن البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولكل مقام مقال فالرجل الذكى يُخاطب بغير ما يخاطب به غيره . وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وكان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمة يقول فيها : « لا تبغضوا الله تعالى إلى عباده » . وما أشد حاجة الدعاة إلى الله أن يتفهموا معنى هذه الكلمة الفاروقية ، فالحالة النفسية للمستمع يجب أن يكون لها أعماق وجذور فى كلام الناصح الفصيح .

فعلى وجه المثال : إذ دُعيت لإحياء ليلة زفاف بكلمة دينية فليكن حديثك مناسبا للموضوع الذى يدور فيه الحفل ، فتختار من النصوص ما يلائم ذلك كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ .. هذه هى البلاغة . فإذا ما تركت هذا النص وبدأت تفسر قوله تعالى : ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴾ فقد بغضت الناس فى كلام الله لأنك لم تطابق مقتضى الحال . وإذا ما دُعيت لإلقاء كلمة فى مناسبة صلح بين متخاصمين فليكن كلامك فيما يقتضيه الحال كقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ . فإذا ما تركت الكلام فى مثل هذا النص ودار حديثك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ . فقد جانبك التوفيق وقد بعدت عن الهدف المنشود .. وإذا ما دُعيت لافتتاح مسجد فعليك أن تختار من النصوص ما يناسب المقام كقوله تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ أما إذا عدلت عن هذا النص وجعلت موضوع حديثك ما جاء بشأن مسجد الضرار والذى قال الله تعالى فيه : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا ﴾ إنك إن فعلت ذلك فقد بغضت الله تعالى إلى عباده .

بعد سألت ربى أن يلهمنى التوفيق فيما أقول . وكان ربى لى رحيما فوفقنى إلى أن أتكلم فى تفسير سورة النحل وهى سورة تعتبر مؤسسة اقتصادية اشتملت على مصادر الإنتاج فى شتى أنواع الثروات بدأها العلى الحكيم بخلق الإنسان بعد أن أمر بالتوحيد والتقوى . فقال سبحانه : ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾ ثم انتقل النظم الكريم إلى الثروة الحيوانية فقال تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ إلى قوله جلّ شأنه ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ . ثم انتقل النظم الكريم إلى الثروة النباتية فقال جلّ ذكره : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

وهنا تحدثت عن الزرع والثمرات وأنهما من نعم الله تعالى . ومن الزرع والثمرات القمح والشعير والأرز والذرة والقطن وواجب المسلم أن يحافظ على تلك النعم فلا يتركها كلأ مباحا للحشرات وأمراض النبات . ولما كان القطن ثروة من أغلى الثروات ، كان على المسلمين أن يحموه من هذه الحشرة التى تفتك به ، ثم انتقل النظم الكريم إلى عالم الفلك فقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ ثم انتقل إلى ما فى باطن الأرض من معادن وكنوز فقال جلّ شأنه : ﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ﴾ وقال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : « اتجروا الرزق فى خبايا الأرض » ثم ينتقل النظم الكريم إلى عالم البحار فيقول جلّ شأنه : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ . وهكذا إلى أن تنتقل بنا الآيات إلى مدينة قرآنية قامت فيها صناعات شاخة : فهذه مصانع الألبان تنطق بلسان الوحدانية ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ وتلك مصانع الحلوى ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ . وهذه مصانع العسل ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا . ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ . وقد سمى الله تعالى هذه السورة بسورة النحل لأن النحل أكبر عالم من علماء الاقتصاد ، فهى تعطى أكثر مما تأخذ ، تمتص رحيق الزهر فتخرجه لنا شهدا فيه الشفاء والدواء والغذاء وهكذا أديت خطبة الجمعة التى أرادوها مُوجِّهة (بفتح الجيم) وأرادها الله مُوجِّهة (بكسر الجيم) والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

سياحة فى بيوت الله

أثناء عملى بمسجد « الطيبى » كنت أنتدب لإلقاء خطبة الجمعة ودروس المساء فى عدد من المساجد، ومن هذه المساجد مسجد صلاح الدين بالمنيل ومسجد « الحبيبى » بحى السيدة ومسجد « السيدة زينب » حيث كنت أقوم بإلقاء دروس بعد صلاة التراويح فى رمضان . وفى الانتقال خير كثير حيث إن معرفة الناس كنز ، والاتصال بهم قوة والوقوف على مشاكلهم وإبداء الحلول لها سعادة . وإن كان الحنين دائما يشدنى إلى مسجد « الطيبى » حيث لا أنسى هذه الأوقات الطيبة التى كنت أقضيها مع إخوة فقراء تتخلل مجالسهم أذكار وصلوات على النبى المختار ، لا يحدثون بلغة البنوك أو تشييد القصور أو أنواع السيارات الفارهة، إنهم الذين قال الله فيهم لرسوله : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ لقد كان الصدق المعصوم يبسط له رداءه ويجلسهم عليه ويقول لهم : « مرحبا بمن أوصانى ربى بهم حبوا » وهم الذين قال الله فيهم لرسوله الكريم : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ إن الجلوس مع الفقراء دواء للنفس ، فيه الشفاء ، إذا ما تمردت النفس على قضاء الله وقدره . يقول تعالى فى حديثه القدسى الجليل : (**ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع إذا كنت معا فىّ بدنك ، آمنا فى سربك عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء**) . صدقت ربنا وبلغ رسولك . وصدق رسولك إذ يقول : « **من أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة** » .

وإذ يقول :

« **من أصبح حزينا على الدنيا فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن شكا مصيبة نزلت فكأنما يشكو الله عزّ وجلّ . ومن قعد إلى غنى لينال من ماله فقد ذهب ثلثا دينه** » وصدقت يارسول الله إذ قلت فى خطبتك الجامعة : « **طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب**

الناس . طوى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة ، وصدق صاحب البردة إذ يقول فيك :

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم

مرحلة أخرى من الدعوة

كنت قد حصلت على تخصص التدريس وهو إحدى الشهادات الأزهرية التي تسمى « العالمية مع تخصص التدريس » . وهي شهادة تخول حاملها أن يعمل مدرسا بالأزهر . وكان حصولي عليها أثناء عملي بمسجد الطيبي . لكني قد أخذت طريقي إلى الله بالدعوة في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وما ترددت يوما في سلوك هذا الصراط المستقيم . وبعد قضاء عامين في مسجد الطيبي قامت الوزارة بتوزيع امتحانات على الأئمة من يرغب في الانتقال إلى مسجد آخر والحق أقول : ما كنت أود الانتقال من مسجد الطيبي أولا بعد ألفة وزحام ركبات وكثرة ما أعانيه مع مرافقي في هذا المضمار . لقد ألفت هؤلاء الناس وألفوني ، وأحببتهم وأظنهم قد بادلوني الشعور فأحبوني . وما زلت أذكر هذه اللحظات الطيبة التي كنت أتناول فيها طعام الإفطار في رمضان مع نفيف من إخوة الفقراء تكرما ، فكان كل يجود بما عنده ، ويتصدر المائدة طبق الفول ، والفول في الأحياء الشعبية تنبعث له رائحة زكية يسيل لها لعاب الجائع ويقوم « عم أحمد » خادم المسجد بعمل الشاي بعد تناول الإفطار حيث تدور الأكواب وكأنها الماء الزلال للظمآى . ولشاي عند الفقراء وألفته وطعمه الجميل وكنت أظل معهم حتى أصلي بهم صلاة القيام ، فكانت ساعات مباركة وأماكن طيبة تذكرني بقول شوقي :

قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

نعم كان عزيزا على نفسي أن أفارق تلك القلوب ذوات الشفافية ، وشوق إليها يتجدد كل يوم . وكما يقول أبو الطيب المتنبي :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا ... لودعت شيبي موجع القلب باكيا

وكتبت رغبتي في الانتقال إلى « جامع الملك » بحي حدائق القبة وبشارع مصر والسودان ، وذلك لقربه الشديد من مسكني ويعتبر أكبر مسجد في الحي وكان بينه وبين مسكني مسافة لا تزيد عن خمس دقائق مشيا على الأقدام بحيث كنت أسمع أذانه وأنا بالبيت فكان ذلك دافعا لي إلى الانتقال ، ففيه توفير للوقت الضائع في المواصلات ، والوقت للداعية

لا يُقدر بمال ، وقد قالوا فى الحكمة : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . وقالوا : الوقت من ذهب » .

وكفاك الله شر انتظار المواصلات . إن انتظارها فى حاجة إلى رصيد من صبر ، وقد جعلت وزارة الأوقاف للمساجد رجالا سمتهم بالمفتشين . نقد تخونك المواصلات أو يصيبها العطل فى الطريق ، ثم تذهب إلى المسجد متأخرا فيخبرك خادم المسجد بأن فضيلة المفتش قد مرّ ، وقد ترك تأشيرة فى دفتر الأحوال فتقرأ التأشيرة فإذا هو قد كتب فيها : « مررت بعد العصر ولا مام غير موجود ولم يحضر وعليه الحضور إلى الإدارة للتحقيق معه » . التوقيع فلان الفلانى مفتش المساجد .. إلى غير ذلك من المآسى . وقد شاء الله تعالى أن ييسر هذا الأمر ، فكان بجوار الملك خطيب قبل طلب نقله إلى شبرا قريب من مسكنه وأصبح المكان شاغرا . فانتقلت دونما عناء أو بذل جهد والله إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون .

فى مسجد الملك

فى اليوم الخامس من شهر مايو ١٩٦٤ بدأت العمل خطيبا ومدرسا وإماما فى هذا المسجد . ويقع هذا المسجد فى منطقة حدائق القبة فى شارع مصر والسودان وفى حى دير الملاك تحيط به مجموعات كثيرة من المصارى . المسجد فى بنائه فخم ضخم ، فُرشت أرضه بسجاد فاخر ، ونُقش سقفه نقشا فنيا بديعا وجهاز مصوت به قوى ، وأجهزة التهوية والنوافذ تعكس النفوس . وذكرنى هذا بحال المساجد فى فجر الإسلام ، وحالها فى أيامنا هذه . ففى فجر الإسلام كانت المساجد فى غاية البساطة والتواضع . ومسجد الصادق المعصوم خير شاهد على هذا ، فقد كان سقفه الجريد وكانت أرضه الحصباء ، ولكنه خرّج العمالقة . فقد تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم كعمر ، والحيىّ الكريم كعثمان ، والعبقرى الفذ كعلى ، والقائد الجبّار كخالد والنفس الحبر كابن عباس ، والمحدث الجليل كأبى هريرة ، وأستاذ الزهد كأبى ذر ، والفيلسوف البارع كسلمان الفارسى . فاسألوا التاريخ فى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ لم يتخرجوا فى جامعات الشرق أو الغرب إنما تخرجوا فى جامعة عميدها المصطفى محمد ﷺ . وعلى امتداد العصور والدهور خرّجت المساجد عبقرية البشر وأساطين الفكر وجهابذة العلوم وأساتذة الأخلاق والحضارة والثقافة فابن سينا والفارابى وابن البيطار والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمى وثابت بن قرة والجاحظ والبيرونى . هذه نجوم لمعت وسطعت فى سماء الدنيا فى الكيمياء والفيزياء والأحياء والطب والرياضة والفلسفة والفلك ، ونقل الغرب عنه وألمّ حضارته على ما أبدعت وأنجزت . عبرت تلك العلوم وهذه الحضارات والمعارف إلى الغرب عن طريق الأندلس

والحروب الصليبية والقسطنطينية ، فسطعت في سماوات باريس ولندن وواشنطن وغيرها من العواصم ثم نظرت إلى حال المساجد في عصرنا هذا وكيف صارت عملاقة شاهقة البناء ولكن بناء القلوب والنفوس يمثل النزر اليسير . فماذا حدث ؟ لقد حذّر الرسول ﷺ من زخرفة المساجد حتى لا يكون ذلك على حساب الجوهر الأصيل فقال : « إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم » . ذلك لأن كثيرا من الناس قد يشغله الظاهر فينصرف إليه عن الباطن وتشغله القشرة عن اللب فيغفل عن رسالة المساجد التي قال الله تعالى فيها : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » . لقد كانوا يفخرون قديما بالذين يتلقون علومهم في ساحات المساجد فيطلقون على الواحد منهم لقب « هذا مسجدي » كما نقول نحن اليوم « هذا جامعي » .

كان الجمع الذي يصلي في جامع الملك غير كثير ولقد كنت أتردد على هذا المسجد وأنا طالب بالأزهر قبل أن أعمل بالمساجد الأهلية فكان الحاضرون في صلاة الجمعة يقفون في صفوف متباعدة بحيث يكون بين الصفين مكان يتسع لصفين آخرين . وكانت النوعية التي تؤم هذا المسجد من الطبقة المثقفة ففيه من السجاد والنظافة ما يغري هؤلاء بالذهاب إليه ، وكان بالمسجد حديقة غناء ملحقة به ، وقد اعتمدت على الله تبارك وتعالى ودعوت إليه على بصيرة ، وأقبل الناس على الدروس والخطب ، وأخذ العدد يزداد في دروس المساء التي كانت تمتد من المغرب إلى ما بعد العشاء كل يوم . وقد تنوعت مواد الدراسة فيها من تفسير إلى حديث إلى فقه إلى تاريخ إلى عقيدة إلى أخلاق بالإضافة إلى خطبة الجمعة ودرس بعدها وخصصت الوقت من بعد صلاة العصر إلى آذان المغرب للإجابة عن الأسئلة والفتاوى وحل المشكلات ، كما قمت بالإشراف على المدرسة المخصصة لتحفيظ القرآن الكريم والملحقة بالمسجد فآتت أكلها في خير وبركة . ولما كان الكثير من الطلبة في حاجة إلى دروس التقوية في المواد ولا يجدون ما ينفقون فقد دعوت إلى التدريس للكبار والصغار في دروس التقوية وفي مختلف المراحل الدراسية حتى الشهادة الثانوية واشترطت أن يكون ذلك بالمجان .

وقد اخترت لذلك إخوة نذروا نفوسهم لله . وكنت أقوم بتدريس اللغة العربية لطلبة الثانوية . ويقوم أخي الفاضل « عبدالرحمن الزنيتي » بتدريس اللغة الانجليزية ويقوم إخوة آخرون بتدريس بقية المواد . وسارت الأمور في جو معتدل يجد وحزم واجتهاد ، كما سارت أمور المسجد بنظام وجد . وضاق المسجد بالمصلين يوم الجمعة ، فشرع أحد رواد المسجد بتشييد بناء على أرض الحديقة يقي المصلين شدة الحر والبرد والمطر . وضاق البناء بالمصلين ولم يبق هناك موضع قدم في أرض الحديقة ، فقمنا بشراء كميات هائلة من الحصير حيث فرشنا به الشوارع المحيطة بالمسجد حتى ضاقت هي الأخرى مما كان يؤدي

إلى تحويل مرور السيارات من شارع الملك إلى شارع آخر . ورأيت أن أجعل رسالة المسجد رسالة عامة تنتظم أنشطة المجتمع ، فجعلته يمثل خمس وزارات ثقافة ، والإرشاد فى خطبة الجمعة ، ودروس المساء ، التربية والتعليم فى التدريس للفئة ، الصحة وذلك عندما دعوت الأطباء لعلاج الفقراء بالمجان فلبى عدد كبير منهم النداء فأرسلوا إلينا بتذاكر العلاج فى مختلف التخصصات الطبية فكان الفقير يأخذ التذكرة الخاصة بمرضه ويذهب بها إلى عيادة الطبيب مرفوع الرأس موفور الكرامة دون أن يكون هناك عوائد مالية لكنه كان المقصود به وجه الله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . ولقد تقدم بعض الصيادلة لصرف الدواء مجانا ، وكان المسجد أيضا يمثل وزارة العدل . فقد كونت لجنة للمصالحات وفض المنازعات والفصل فى الخصومات . وكم من مشاكل حلت بإذن الله وقد كادت تدمر بيوتا وتقوض نفوسا . كذلك قامت بالمسجد لجنة تمثل الشئون الاجتماعية تبحث أحوال الأسر الفقيرة ، فتجرى عليها المعونات الشهرية والكسوة فى الشتاء والصيف ، بالإضافة إلى المواد التموينية فى الأعياد والمواسم وتوزيع اللحوم فى عيد الأضحى فقد يكون هناك بيوت لا ترى اللحم إلا قليلا يقول فيها شاعر النيل حافظ إبراهيم :

عزّت السلعة الذليلة حتى ... بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت فى يدى الناس كالياقوت ... حتى نوى الفقير الصيام
ويخال الرغيف فى البعد بدرا ... ويظن اللحوم صيدا حراما
إن أصاب الرغيف من بعد كد ... صاح من لى بأن أصيب الإدام
أيها المصلحون ، رفقا بقوم ... قيد العجز نهجهم والعلام
وأغيثوا من النفوس غلاً ... قد نمت مع الغلاء الجسام
أنقذوا أنفسا أضرّ بها الفقر ... وأحيا بموتها الآثام

الحاقدون يتحركون

ما من عمل ناجح فى الحياة إلا وتكتنفه شدائد ومحن ، فالحاسدون فى الدنيا كثر ، والنفوس المريضة تملأ جنبات الحياة وتعربد فى عرصات الدنيا وتنفث سمومها النافعات . وخفافيش الظلام تعمى عن رؤية الأجسام البينة لها فى ضوء الشمس . وقد جعلت شعارى دائما فى الحياة قول الله جل شأنه : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فعلى كل إنسان يعمل فى ميدان الدعوة أن يتحلى بالصدق والأمانة والصبر والشجاعة وأن يقول الحق ولو كان مرا ولا يخشى فى الله لومة لائم :

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وعلى الداعية ألا يضيق صدرا بالأمور فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، وكلما اشتد الكرب هان ، والعظائم كفؤها العظماء ، فلا يكن فى صدره حرج من قول الأعداء وتقوّل الشامتين :

ولا تجزع لحادثة الليالى فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا وشيمتك السماحة والوفاء
يغطى بالسماحة كل عيب وكم عيب يغطيه الحياء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاء

وليعلم الدعاة إلى الله أن طريق الدعوة ليس مفروشا بالورود والأزهار ، إنما الطريق صعب محفوف الشدائد والمحن ، فماذا تتوقع لعمل جميع النجاح المرجو منه فى كل المجالات وشتى الميادين . ضاق المسجد بروّاده ، وضاقت الأماكن والطرق التى تحيط به . وأدت المدرسة دورها كاملا غير منقوص ، وخجت لجانه خمس . والذى أراه جديرا بالذكر فى هذا المقام أن أعدادا كثيرة من النصارى أعلنت إسلامها وجاءت إلى المسجد تسعى بوجوه مُسْفرة ضاحكة مستبشرة . وكان للمسجد حفلات يقيمها على امتداد العام يبدؤها بالاحتفال بذكرى الهجرة النبوية الشريفة يلى ذلك الاحتفال بذكرى المولد النبوى الكريم ، يليه الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج ثم يأتى شهر رمضان فتقام فيه الاحتفالات بغزوة بدر وفتح مكة وليلة القدر . كل هذا النجاح كان دافعا قويا وحافزا ضاغطا لنفوس مريضة أن تتحرك فى الظلام تريد أن تطفىء نور الله بأفواهها ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . لقد أقمنا للنصارى الذين أسلموا حفلا إسلاميا ما زالت ذكراه ترن فى الآذان وتسرى سريان الكهرباء فى أسلاك البلاتين . لقد هاجت عقارب البغضاء وتحركت ثعابين الحقد فى قلوب أصيبت بداء الحسد وكفى به فأخذت تخبط خبط عشواء ، وأخذت الشكاوى الكيدية تتوالى والأحقاد تزحف . فبدأت الاستدعاءات إلى جهات الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود .

الأحداث تتابع

وإنما قلت «الأحداث تتابع» ولم أقل «الأحداث تبدأ» لأن الأحداث قد بدأت منذ زمن غير قريب . أذكر وأنا أعمل في مساجد إحدى الجمعيات الإسلامية كنت ألقي درس المساء يوم الجمعة من المغرب للعشاء وكان هذا المسجد يسمى «مسجد المنوفي» ويقع في حي الشرابية . وأشهد أن هذا المسجد كانت له نفحات وبركات وكان روّاده من ذوي النفوس المطمئنة وأصحاب القلوب الحية الراضية التقية . كان يقع بالقرب من هذا المسجد مسجد يتردد عليه كثير من رجال الوعظ . وكان يشرف على هذا المسجد القريب من «مسجد المنوفي» رجل يعمل بالوعظ . لكنه كان يدعو كبار الوعاظ ليلقوا الدروس في هذا المسجد الذي يقوم بالإشراف عليه . وقد تحركت نفسه عما لا أحب أن أذكره من غيرة وحسد عليّ وعلى الرواد الذين تكاثر عددهم يوم بعد يوم حتى بلغ من حسده أنه سعى وسعى . والرسول ﷺ كان يقول : «إذا حسد أحدكم فلا يبغ» ويبدو هنا سر قوله عن شأنه في «ومن شر حاسد إذا حسد» فقد قيّد الله تعالى الحاسد هنا بالحسد مع أنه حاسد ذلك لأن المقصود (إذا حسد) أي بغى وانتقل من مرحلة زوال النعمة إلى مرحلة الأذى والبغي والطغيان وإلا فإن الحسد والغيرة والظن لا يسلم منها أحد . لكن طبيب القلوب ﷺ بعد ما شخّص الداء وصف الدواء في قوله . «فإذا حسد أحدكم فلا يبغ وإذا تطيّر فلا يرجع وإذا ظنّ فلا يحقق» أي طبقا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا» .

بلغ من بغي هذا الرجل عليّ أنه كان كثيرا ما يقدم لشكاوى الكيدية إلى جهات قد يكون ضررها فادحا ، وكان كثيرا ما يكتب في شكواه أنني لا أدعو للحاكم من فوق المنبر ... إلى غير ذلك من المكايد والمصايد والشباك والشراك ، وهو يعلم أنني طالب أسأل الله العافية والعفو ... حدث أنه أراد أن يوقع بيني وبين أحد الشيوخ بحيث يظهر أمام هذا الشيخ (وكان من كبار الوعاظ) أنني بالنسبة إليه قليل العلم . فدعا إلى حفلة تقام بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة وقال إن هذا الحفل سيقتصر على شيخين اثنين كنت أنا أحدهما وكان الآخر هو الشيخ «عبداللطيف مشهور» وأراد أن يضرب كلا منا بالآخر ، ولم يكن قد استأذنني قبل أن يعلن اسمي ، لكنه بذلك قد وضعني في وضع حرج ؛ فإما أن أعتذر عن الحضور فتكون الصورة غير كريمة لأنه حفل يتصل بذكرى من أعظم الذكريات لأعظم

الرحمان فكيف أعتذر ؟ وإن أنا أجبت الدعوة فقد يحدث مالا يُحمد عقباه من هذا الرجل ، فالحفل سيقام في مسجد يشرف هو عليه وله أعوانه وأنصاره وبطانته ، لكن من كان الله معه فمن عليه ؟! ومن وجد الله فماذا فقد ؟ فمن اعتمد على ماله ذلّ ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على جاهه ذلّ ومن اعتمد على علمه زلّ ، ومن اعتمد على عقله ضلّ ومن اعتمد على نفسه اختل ومن اعتمد على الله فلا قلّ ولا ملّ ولا ذلّ ولا زلّ ولا ضلّ ولا اختلّ .

قال تعالى : ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلّا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثمّ الآخرين وأنجينا موسى ومن معه اجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ . وجلّ جناب الحق إذ يقول عن الحبيب وصاحبه : ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .. وقد قالوا في الحكمة : خير علاج للشدائد اقتحامها » .

فكان أسلم طريق للخروج من هذا المأزق أن ألبي الدعوة معتمدا على الله وحده . وأعلمت على المصلين استجابتي للدعوة كما أعلنت الزمان والمكان الذي سنلتقي فيه وذهبت إلى المسجد الذي سيقام فيه الحفل ، فجمّع الناس لمهمات يوم معلوم ، وازدحم المسجد بالمصلين حتى دوح السلم . وكان حفلا شائعا ، وكان أكبر ظني أن كثيرا من الحضور ما جاءوا ليسمعوا درسا أو علما بقدر ما جاءوا ليشهدوا مبارزة بين نادين ، وحضر الشيخ « مشتهري » وحضرت قبل المغرب وكان في سني والدي ، وأذّن للصلاة ثم قمنا فصلينا ركعتين قبل المغرب قال عنهما الصادق المصدوم ﷺ : « صلوا قبل المغرب « لمن شاء » وأقيمت الصلاة . فأقسم الشيخ لأصلينّ إماما فكانت هذه الخطوة بمثابة نصر من الله وفتح قريب ، فما كان أحد من الذين جاءوا بقصد رؤية نصر مادي بمفهومهم المتواضع يتوقع هذا . وبعد الفراغ من الصلاة وختامها ساد المسجد صمت عميق ، فالكل يتساءل في نفسه : من الذي سيتحدث أولا ؟ فإذا تحدثت أولا وتحدث الشيخ بعدي فقد يستطيع بعلمه أن ينسي الناس ما سمعوه مني ، وإذا تحدث هو أولا فقد يحيط بجميع العناصر المتعلقة بموضوع الحديث في ذكرى الهجرة : فإما أن أعيد ما قال فأضرب في حديد بارد وإما أن أتحدث في موضوع غير الموضوع المخصص للحفل فيكون هذا هروبا مني على إفلاس علمي وذلك ثالثة الأثافيّ . وهذا ما كان يخيفه أنصار هذا الذي دعا إلى الحفل . لكن فوق تدبيرنا لله تدبير ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

عباده الصالحون فى مثل هذه المواقف : « اللهم خيرا مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لى ما لا يعلمون » .

واقعة أخرى

أيام كنت طالبا بأصول الدين وكنت أعمل فى مجال الدعوة إلى الله بالمساجد أرسل إلىّ مجلس إدارة أحد المصانع لإلقاء بعض الدروس على عمال المصنع وكان ذلك نزولا على رغبات العمال ، وحُدّد لى لقاء بينى وبين مجلس الإدارة لوضع البرنامج الذى نسير عليه ، ووجد ذلك المنصب رضا فى نفسى ، فأى موقع يستطيع الداعية أن يقول فيه كلمة فى سبيل الله فهو على ثغر من ثغور الإسلام . والمجالات للدعوة كثيرة متنوعة فى المساجد والمدارس والمصانع والمعسكرات والمنديات . بل لقد كان أحد رجال الدعوة وهو من الأفذاذ العباقرة كان يقتحم على الناس فى مقاهى مجلسهم ويقدم لهم الدروس والمواعظ ، فكانت دعوته لهذا آذانا صاغية وقلوبا واعية فتمكن من النفوس فضل تمكن ، فيهدى الله على يديه الكثير . فسبحانك السبب فطرة من قبض جودك تملأ الأرض ربًا ونظرة من رضاك تجعل الكافر وليا . أنت القائل وقولك الحق : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ . أسألك اللهم علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء . ذهبت فى الموعد الذى حُدّد لى للالتقاء بمجلس إدارة المصنع والله وحده يعلم أننى ما كنت أبغى إلا الخير وشكرت الله على حسن ظنهم فيه وعلى أنهم قوم يريدون الخير لعمالهم عن طريق الإصلاح الدينى :

فمن قصد الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

وما أن جلست مع أحد العمال تأهبا للقاء – وكنت أعرفه من المساجد – حتى أخبرنى أن الموعد قد ألغى وسألته : ولماذا ؟ فقال : لقد حضر الشيخ الفلانى عندما علم بالموضوع وأخاف القائمين على شأن المصنع قائلا لهم : إنه لا يجب أن يدعو للحاكم ولا يتجاوب مع أهداف الثورة . والناس دائما يؤثرون السلام .. وأنا أعتقد أن فلانا هذا يملك من المال ومصادر القوة الكثير والكثير . وأكبر ظنى أنه إنما فعل ذلك لدافع ما دى نفسى سيعود علىّ من هذه الدروس معهم ومكافآت مالية علما بأننى من الذين يرددون قول القائل :

لا تخشعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يفقر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سؤالك من طين
فلا تصاحب غنيا تتعزز به ... وكن عفيفا وعظّم حرمة الدين

أوشك الحفل أن يبدأ وإذا الشيخ يصمم على أن أكون أنا المتكلم الأول وبدأت الحديث بهذا القنوت الجليل : « **اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إيَّاك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . نرجو رحمتك ونخشى عذابك . إنَّ عذابك الجد بالكفار ملحق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ثم ذكرت هذا الشعار الحبيب إلى نفسي ، هنا مدرسة محمد ﷺ الجالس معنا فيها يجب أن يقدم التحية العاطرة المباركة للحبيب محمد . وتحيتنا إليك ياسيدى ياأبا القاسم يارسول الله هي الصلاة والسلام عليك** » .

صلَّت عليك ملائك الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت الوجود مزودا ... بحمى الإله وراية القرآن

وساد المحفل خشوع للرحمن وخضوع بإيمان ، وسرت صيحة الحق مسرى النور ، يحيى الموات ويضيء غياهب الظلمات ، ورأيتني أستطيع أن أقول من العلم مارزقني الله به فقد شعرت بتجاوب تام بيني وبين المستمعين ، وكانت تلك النفوس التي تجاوبت إنما اندمجت في حب رسول الله ﷺ : كما كانت القاعدة التي أنطلق منها في أحاديثي أن يكون بيني وبين المستمع لغة فريدة هي لغة لاسلكي القلوب . وانطلقت في حديثي مسترسلا بفضل من الله ، فلا أسمع من الجالسين إلا عبارات الإعجاب والرضا مما كان يمدني بطاقة قوية وزاد طيب . وإذا أذان العشاء يمر القلوب من الأعماق . وكنت أود أن أختم الدرس بعد العشاء لأترك المجال لفضيلة الشيخ ، مشتهري ، ولكني شعرت بالرجل يهمس في أذني طالبا مني أن أصل الحديث ، فكانت هذه العبارة أيضا بمثابة طاقة دافعة ، فقد مضت الفترة من المغرب إلى العشاء كأنها نسيم الأسحار أو أريج الأزهار أو تغريد الأطيار ، أو حفيف أوراق الأشجار ، مضت وكأن القلوب قد هبت عليها نسمات عاطرة وظننت أن الشيخ سيتحدث ، لكنه آثر أن نصلي العشاء أولا ، وقدَّ مني إماما ، وبعد الصلاة أخذ مكانه للحديث ، وصمت الجالسون ، وخشعت الأصوات وصمت الكل في انتظار ماذا يقول الشيخ عني ، وكيف تكون الحال لو أنه نقدني؟ هل سأرد أم سألتزم الصمت والسكوت دليل الرضى ؟ وعلى أي كيفية سينتهي الحفل ؟ وهل سيحقق الغرض الذي من أجله أقيم ؟ وهل ستنجح تلك المؤامرة ؟ لقد أوشك الحفل أن ينتهي . وأوشك الستار أن يُسدل والكلمة الفاصلة سيقولها الشيخ . وإذا الشيخ يقول كلاما لم يكن في الحسبان . بعد ما حمد الله وأثنى عليه قال : والله الذي لا إله غيره لو كان عندي متسع من الوقت لسرت وراء هذا الرجل ملتزما بمجالس علمه فقد عبر البحر الذي لم يصل الكثير إلى شاطئه ، ثم قال الشيخ : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ودعوت الله تعالى بما دعاه به

واسترزق الله مما في خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

كما يعجبني قول القائل :

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن ... أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها

نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين خير لي من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عيني .

هي القناعة فاحفظها تكن ملكا ... لو لم تكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدني بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن
ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذي يأتي قريب ... ولكن الذي يمضي بعيد

ليست السعادة في الانتشاء بالكئوس المترعة ، ولا في الاستمتاع بزخارف الحياة ، إنما السعادة مملكة يقيمها الله تعالى في القلب يتربع على عرشها الرضا قال ﷺ : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » فتأمل معي الحقد كيف يفعل ، واعجب معي للحسد ماذا يصنع . كيف تحرك إنسان لمنع الخير عن أخيه المسلم . سبحانك يامن قلت : ﴿ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم﴾ . وصلى الله وسلم على سيد البشرية ومعلم الإنسانية الذي قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قلنا : بلى قال : من أكل وحده ، ومنع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قلنا : بلى . قال : من لا يقيل عثرة ولا يقيل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قلنا : بلى . قال : من يبغض الناس ويبغضونه » .

شدائد ومحن

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله ... فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

ادلهمت الخطوب واحتدمت المحن وكشرت قوى الشر عن أنيابها تحاول اقتلاع شجرة طيبة من مكان طيب ، إنها شجرة الدعوة إلى الله في جامع الملك . فوجئت في شتاء ١٩٦٥

باستدعاء إلى أحد جهات الأمن ، ولأول مرة فى حياتى أدخل مثل هذه الأماكن ! وإذا المقصود من هذا الاستدعاء إنذار شديد اللهجة بمنع الصوت الخارجى للمسجد أثناء إلقائى دروسى مساء ، وقلت فى نفسى لا مانع ، وليقتصر الدرس على الجالسين داخل المسجد لأنى قد فهمت من هذا الاستدعاء أن المسألة ليست مسألة صوت داخلى أو خارجى فليس ذلك من الأهمية بمكان ، فالصوت الخارجى فى جامع المنك لا يمثل أى قلق لأحد من القاطنين حول مسجد ، فشارع ست ذاته لا تكفى السيارات عن ذوعه جيئة وذهابا ، ليلا ونهارا ، وهو أصوات مفزعة ، فما يكن الدافع إذن قلقا أو ذرعا لأحد إنما كان من باب قول المثل يتحمل : لقد عكرت علىّ الماء ، لذلك تلقيت المسألة بحكمة وصبر ، فليست الشجاعة شعورا ، بل لها جاعة أن تقول الحق دون أن تسمح للآخرين أن يضللوا على كفيك ، ومنع صوت خارجى ، وجاء كثير من القاطنين حول المسجد يطلبون إعادته فقد كانوا يستمعون إلى الدروس وهم فى بيوتهم بل أن تؤدن العشاء . وتقدموا بكثير من الشكاوى إلى الجهات المختصة يصورون بذلك فقد حرمن للنفوس كالماء والهواء والضياء .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

ولكن شكوى لم دمعت أزراح ربيع ، وكانت كما قال شوقى :

لقد أنلتك أذنا غير واعية وربّ مستمع والقلب فى صمم

وبعد يوم من منع الصوت ، جاءنى استدعاء آخر من نفس الجهة ، وذهبت إلى هناك عملا بقول الله جل شأنه : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

وسألت فى هذا الاستدعاء : لماذا لم تمنع مصوت الخارجى ؟ فأجبت : لقد سمعته نفسه : لم يحدث هذا ، قلت : لقد حدث ولست بكذاب ، واحتدم النقاش ، وكان لابد أن يحتد لأن البيانات لم تكن حاضرة من الطرف الآخر .. وتطورت الأمور من سيىء إلى أسوأ !!

دعوة إلى الجامعة

فى عام ١٩٥٦ جاءنى بعض طلبة جامعة عين شمس ووجهوا إلىّ دعوة لإلقاء محاضرة بالجامعة ، فلبيت الدعوة كما كنت ألبى أى دعوة فى أى مكان ولو كان نصباً وألقيت المحاضرة تحدثت فيها عن « دعوة الإسلام » وأنها عالمية ، وبما تقوم على المسئولية كما أعبر بذلك

الصادق المصدوم في قوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . ثم تحدثت عن توزيع المسئولية من أول الإمام إلى الرجل في بيته والمرأة في مال زوجها ، حتى شملت المسئولية من أول الإمام إلى الرجل في بيته والمرأة في مال زوجها ، حتى شملت المسئولية الخادمة في بيت سيدها . ثم بعد ذلك طال الحديث في شرح هذه الكلمة الطيبة التي نعلق بها الغم الشريف « فم رسول الله ﷺ » : ما من وال يلي أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة يداه مغلولتان إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور . وتطرق الحديث إلى مسئولية القاضي بين الناس ، وذكرت في ذلك حديثاً رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من الحساب ما يتمنى معه أنه لم يكن قضى بين اثنين في تمرة » .

ثم عقبت بعد ذلك بالحديث عن المسئولية في ساحة العدل يوم القيامة أمام أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين وأعدل العادلين . وروعيت في ذلك قول الصادق الأمين : « لا تزول قدما عبد من بين يدي الله عز وجل حتى يسأل عن أربع : شبابك فيم أبليته وعمرك فيم أفنيته ومالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته وعملك ماذا صنعت فيه ؟ » .. وختمت المحاضرة بنداء وجهته إلى النفس قلت : يريد منكم العلم ، والعلم المسلم ، والمهندس المسلم والمدرس المسلم ، والطبيب المسلم ، والعامل المسلم ، والمحامي المسلم ، والقاضي المسلم .. وكل الكلام في هذه الموضوعات يعتبر خطيراً يؤدي بصاحبه إلى غياهب السجون ، ومهاوي الردى ، ولكن القلب إذا تجرد لله عالت عليه الدنيا ، فمن خاف الله خوّف الله منه جميع خلقه ومن لم يخف الله خوّفه الله من جميع خلقه : قال ﷺ : « من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس . ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أضمر رجل للناس ما يخلو به فيه خلاف ذلك فضح الله سره وأبدى بعلمه ورحم الله من قال ربها :

قليلك تحلو والحياة مريرة ... ولبلك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

جمعية الهداية بمدينة السويس

من المساجد التي كنت أتردد عليها لإلقاء مواعظ مسجد الشهداء بالسويس فقد كنت أقوم خطبة الجمعة فيه على فترات متعددة ، وقد كنت أرى من وراء الحجب وما حدثه

الأنصار . كذلك كنت أتردد على مساجد كثيرة لكن في غير يوم الجمعة ، إلقاء دروس المساء بها في كل شهر مرة . فمن هذه المساجد مساجد المحلة الكبرى حيث التجمع العمالي الكبير في شركة مصر . فقد رأى رئيس مجلس الإدارة - وكان رجلا صالحا أحسبه كذلك - رأى أن العلاج السليم لداء النفوس على الصدق والأمانة ومقاومة الانحرافات إنما يكون بتعاليم الدين وتقوية الرقابة بين العبد وربه « أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ ..

ليست سعادة الفرد أو المجتمع في تشييد القصور ، وليست محصورة على بناء مصانع فما قيمة المصنع إذا كان الذي يديره حاوي الكيس ، مفقير الوجدان ، مريض الضمير ، يأكل التراث أكلا لما ، ويعب المال عبا ، لا يراعي في ذلك إلا ولا ذمة ولا عرفا ولا سنة .. لا يمكن أن تقوم الحياة بلا دين ، كما أنها لا تستقيم بلا خلق حميد .

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا
وإذا الأمم الأخلاق ما تهيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ليس بعامر بيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقد أصاب فيلسوف الإسلام ، محمد إقبال ، كبد الحقيقة عندما قال :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

وقد قال «الدكتور نيكسون» حاكم الولايات المتحدة قال في كلمة ألقاها على الشعب الأمريكي : « إن الولايات المتحدة لا تعاني أزمة مادية إنما تعاني أزمة روحية لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع ، لكنه فقراء في الروح . نعمل في وقت قصير ما نكسبه في خلاف حال هل الأرض »

[illegible] حياة بلا روح مدة مقسمة [illegible] حالكة السواد ، عميها فترة توهمها عمياء ، وروحه [illegible] بنعمة البين التي قست أمهاء ، بأمهاء تعشق المستورين ؟ وتختفي في بيوت ، وتكابدون على أمهر مؤسس ؟ كان عبد الله الفاروق وهو ينفض أسى عن بكروب الصحابة فما كان منه إلا أن أعطاه حفيدة الشهيد مظعون ، فزوجها لابنه عاصم بن عمر فولدت له ابنة اسمها فاطمة ، ثم تزوجت من عبد العزيز بن مروان ، وهي أم عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء [illegible] عبد العزيز ، ومن الطبيعي أن يخرج [illegible]

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالري أورق أيما إيراق

نعم كان عملا ناجحا أن تُلقى المحاضرات الدينية على العمال . فالدين هو الحياة ولا حياة بلا دين .. كنت أتردد على مساجد المحلة الكبرى ومساجد القرى التابعة لها . وكنت أعد اليوم الذى ألتقى فيه بهؤلاء الإخوة يوم عيد من أعياد الدعوة إلى الله . كذلك كنت أتردد على مسجد الجمعية الشرعية بمدينة المنصورة ، ألتقى بأهل الدقهلية فى يوم مشهود يجتمع فيه الناس ووجوههم تفيض بشرا وسرورا وقلوبهم مطمئنة راضية مرضية . كما كنت أتردد على بعض المساجد فى « مدينة أسوان » حيث كنت ألتقى بأهل هذه المدينة الطيبة وهم قوم عرفوا بطهارة القلب واليد واللسان ، عُرفوا بالأمانة وإكرام الضيف وحسن المعاملة . وهكذا كنت أتردد على تلك البلاد وغيرها أنشر كلمة الله خالصة لا رياء فيها ولا سمعة ولا غموض ولا لبس . وكانت السعادة الغامرة التى لا تفوقها سعادة أن يجلس الساعة بين مستمعيه يصيخ السمع إلى مشاكلهم وأسئلتهم ، فيحل المشاكل ويجيب عن الأسئلة . إنها متعة نفسية تمتلك على الإنسان أقطار نفسه ويشرق ضياؤها فى جنبات فؤاده .

صيف ساخن

فى أغسطس عام ١٩٦٥ رُجّت الأرض رجّا ، وهبت رياح هوج اشتدت كأنها رماد فى يوم عاصف ، فقد أطلت الفتنة برأسها تحاول اقتلاع « شجرة الدعوة الإسلامية » عندما وقف حاكم الدولة أمام قبر لينين فى موسكو يوعد ويهدد ويرغى ويزبد : يهدد بالثبور وعظائم الأمور ، يهدد كل العاملين فى مجال الدعوة الإسلامية وتنسى ربه فأنساه الله نفسه حتى قال : إننى لن أرحم . وأقسم أنه لن يعفو بعد اليوم مع أن الذى يعفو ويرحم ويملك الرحمة والعفو هو الله . ولكن ما أشقى الإنسان إذا استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾ . ما أضعف هؤلاء الجبابرة إذا نسوا أنهم بشر وأنهم لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره . إن الله لقوى عزيز ﴾ .

وما أشد جهلهم عندما يدّعون أنهم أقوياء يملكون خزائن رحمة ربى ، إنهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ولحكمة بالغة يقرر الله تلك حقيقة ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ . ومن آياته جل

شأنه أنه يعامل الجبابرة بأسلوب لا ترقى إليه أفهام البشر بالتمرد عندما قال : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ سلط الله عليه بعوضة أخذت تطن في رأسه ، فكان لا يستريح إلا إذا ضُرب بالنعال على أم الدماغ . وفرعون لما قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ، وقال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ ، وقال : ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ﴾ . كان الجزاء من جنس العمل ، فأجرى الله الأنهار من فوقه ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فجاء الرد حاسما ﴿ أالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ ثم تأتى الحكمة ناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ .

وما كان أضعف قارون عندما غرّه ماله فقال : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ فكان الجزاء أن خسف الله به وبداره الأرض ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ . ولنا في سورة القصص ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؛ فقد عرضت لاثنين من جبابرة البشر : الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة ، ثم جاء الختام في قصة فرعون : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار . ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ . وجاء ختام القارونية الكانزة ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض . فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا . ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ . وجاء التعقيب بعد ذلك على القصتين حازما وفيه صراحة ووضوح : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ . وجاء الختام شاهدا بعظمة الله وانفراده سبحانه بسلطان وبقاء وإجلال وإكمال ، فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . قال تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

ولنا في سورة العنكبوت عبرة وعظة ، وللجبابرة فيها درس يدمى القلوب ولا ينسى على مر الأيام وتطاول الآماد والآباد والأزمان . فقد قص الله تعالى فيها أخبار أقوام استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . بدأ الحديث عن هؤلاء الأقوام بقوم نوح وثنى بقوم إبراهيم ، ثم ذكر بعد ذلك قوم لوط ثم حدثنا عن قوم شعيب ، ثم أخبرنا عن عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ثم كانت العاقبة تكاد السماوات يتفطرن منها وتطبق الأرض وتخر الجبال هدا . قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه . فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته

الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ومن جلال القرآن وحكمته البالغة أن يسمى هذه السورة التى استفاضت بذكر الجبابرة – بسميها بسورة العنكبوت ، مع أن الجبابرة قد برزوا فى هذه الصورة بشكل يهز القلوب من أعماقها . لقد بلغ بهم الغرور أنهم قالوا : **من أشد منا قوة ؟** وجاء الجواب **من الله ، وفيه ما فيه من المعانى ذات العمق . قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾** لقد سماها الله بسورة العنكبوت لما جاء فى قوله جل شأنه : **﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .**

فمن استعز بغير الله فهو كالعنكبوت اتخذت بيتا تحتمى به وأوهن البيوت بيتها ، فمن اتخذ وليا أو ناصرا دون الله مهما كان القصراء والأولياء جبابرة فقد اعتمد على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . نعم إنه إذا اعتقد ذلك لكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق **﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .**

لما زحفت جيوش الإسلام لفتح بلاد فارس أرسل كسرى جبار الفرس إلى امبراطور الصين يطلب منه المدد والنجدة وأخبره بالإنذار الذى أرسله إليه سيف الله المسلول « خالد ابن الوليد » وقال له « ياكسرى أسلم تسلم فقد جئتك بقوم يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة » . فماذا كان جواب امبراطور الصين على كسرى ؟ رد عليه قائلا : ياكسرى لا تبل لى بقوم لو أرادوا خرق الجبال لخلعوها !!

يد الله تعمل فى الخفاء

ذات يوم من أيام شهر أغسطس عام خمسة وستين وتسعمائة وألف وكان يوما قائظا شديد الحر كأن شمسه طلعت من بين الرمال لا من بين السحب وكان الجو كله ينذر بالبوق والرعود والعواصف والصواعق ضد الإسلام ورجاله . توجهت بالباب بطرق طرقات عنيفة ، وبمجرد أن فتح الباب دخل جماعة غلاظ شداد وقاموا بعملية التفتيش ، وكانت جناية لا تغتفر إذا تم ضبط أى كتاب لشهيد الإسلام الأستاذ « سيد قطب » خاصة كتاب « معالم فى الطريق » . وكان هذا الكتاب بين يدى أقرأ لى به . لكن الله سلم فلم ينتبه

أجد هذا الكتاب . أعروني بارتداء ثيابي لأنني سأذهب معهم إلى أين ؟ ولماذا ؟ وعما أسأل ؟ لست أدري . ولماذا ليست أدري ؟ ليست أدري . وحاول بعض الإخوة أن يصحبوني ، ولكن لم يُسمح لهم لأنهم صمموا أن آتيهم فردا ، وبعد إلحاح شديد من شقيقي سمحوا له بالركوب معي في سيارة عسكرية ذات مقاعد خشبية غليظة . وانطلقت بنا السيارة تنهب الأرض نهبا . وبعد بضعة أمتار ، أمر أخي بالنزول فنزل وظللت وحدي بين قوم لا عهد لي بهم وكأني في سرير المنايا لا أدري ما يُفعل بي . وكأن السيارة تقول بلسان حالها :

« أنا سرير المنايا كم سار مثلي بمثلك »

لكن من أراد مؤنسا فالله يكفيه . ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه . ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ومن كان الله معه فمن عليه ؟ ويرحم الله من قال يناجي ربه :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثا ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

قال أحد الصالحين لمريديه : إذا ذُكر الصالحون نزلت الرحمة . فقال له أحدهم . فكيف إذا ذكر الله تعالى ؟ فأطرق الشيخ ملياً ثم قال : إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة . ألم ترَ قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

فإذا ضاقت عليك الدنيا فقل يا الله . وإذا خلي عنك أهل الأرض فقل يا الله . وإذا احتدمت بك شدائد فقل يا الله . وإذا ادلهمت بك الخطوب فقل يا الله . وإذا نمت عن فرائض المرض فقل يا الله . وإذا جاءتك سكرة الموت بالحق فقل يا الله . ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . ولله جنود السماوات والأرض . وكان الله عليما حكيما ﴾ .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه ... لا تيأسن فإن الكافي الله
إذا بليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة ... لا تجزعنّ فإن الصانع الله
والله مالك غير الله من أحد ... فحسبك الله في كل لك الله

لقد تذكرت وأنا في طريقي إلى ذلك المجهول تلك الوصية الغالية التي جاءت عن لسان الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه قال . عجبت لمن ابتُلي بأربع كيف ينسى بهن ! عجبت لمن ابتُلي بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ . وقد ن

الله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾.. وعجبت لمن ابتُلي بالفقر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وقد قال الله جلَّ شأنه ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا به من ضر ﴾ . وعجبت لمن ابتُلي بالهم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنَّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات : أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ .. وعجبت لمن ابتُلي بمكر الأعداء كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

كنت أردد هذه النصوص الكريمة حتى وقفت بنا تلك السيارة في مكان لا أعلمه وأحسست بنزول من فيها جميعا ، وظللت وحدي ، وبدأت الحرب النفسية . وسمعت من يتساءل : أهذا هو الذي يخطب في مسجد « دير الملاك » ؟ فرد عليه الآخر : نعم هو نفسه آخر : ألقي القبض عليه اليوم ؟ فيجيبه : نعم .. وهكذا أسئلة كثيرة ألقيت ، وأجوبة رُدَّ بها عليها . وشممت رائحة الموت في الهواء الذي أتنشقه فالجو غلاظ شداد والأصوات رهيبة والجو مكفهر خانق ، وسمعت وقع أقدام ثقيلة تريد أن تدك الأرض دكًّا حتى انتهت إلى السيارة التي كنت فيها وحدي وإذا هو أحد غلاظ الأكباد يجذبني من ذراعي ، وفي عنف أشد من عنف القبور أدخلني غرفة شعرت كأن المنية جاثمة فيها . قلت في نفسي : إله الروح والرزق لا يملكها إلا الله . وأنزل الله برد السكينة في قلبي ، وتحركت أمامي كوكبة من الآيات التي تثبت العقيدة ، وتبعث في النفس الطمأنينة . قال تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ﴾ وإذا بصوت ينبعث من الجالسين في الغرفة ولم أكن أدري ما عددهم إلا بعد أن أمطروني وابلا من أسئلة . صاح صاحب الصوت : أحضر له كرسيا ليجلس . كنت ساعتها أرتدي العمامة وجبة ، فلعل الرجل قد رحم كف البصر واحترم تلك الثياب التي درجنا على احترامها وتوقيرها . وجلست وجاء السؤال الأول : أنت فلان ؟ قلت نعم . قال : ما هذه الضجة التي تحدثها في مسجد دير الملاك ؟ قلت : إنني أؤدي دور المسجد كما كان في فجر الإسلام . أؤديه على أنه رسالة لا وظيفة . ثم أخذ يسأل في موضوعات شتى أذكر منها : أنه أجرى تنبيشا عقليا عن الفكر الإسلامي سأل في مسألة الجبر والاختيار ، والتخيير والتسيير ، كما سأل عن نظام الحكم في الإسلام . وأخيرا وبعد مدة استغرقت أكثر من ساعة عرض عليَّ مجموعة من الأسماء ، وقال : أتعرف هؤلاء

أو واحدا منهم . ولم يكن لى معرفة سبقت بهذه الأسماء جميعا ، والذى قد علمته فيما بعد أنهم قد تمّ اعتقالهم وأنهم فى السجن الحربى . ولعله سألنى عنهم لأنهم كانوا يصلون فى المسجد الذى أقوم بحراسته فيه . وبعد صمت قصير قام أحدهم فربت على كتفى ببده وهمس فى أذنى قائلا : إن هناك كثيرا من الشكاوى قُدمت ضدك لذلك ستدعى للتحقيق . وحسبت أنه سيقصر الإشارة بتوجيهى إلى أحد السجون التى تحوّلت إلى حجيم وسعير شُنعت فيها بوان تعذيب لأبرياء . ولكن لم يتم ، فقد ندى على ندى قبض عنّى وقال لى : أعده إلى بيته . فكان ذلك مدعاة لى لمزيد عجبى يسألنى فى عجب : ماذا كنت تقرأ وأنت قادم إلى هنا ؟!! لقد جئت بكتب لم يسبق لأى منهم بعد فهم أحد من بيته !! . فقلت له : ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ يذكرت له الآيات التى كنت أتلوها .

خطوة لتكوين الأسرة

فى أواخر عام ١٩٦٥ كنت قد عزمت على إتمام الزواج ، وأن أستقبل بيتا لله وحده وقد فتحت أبواب الاستعدادات ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ وكنت أحس إحساسا داخليا بأن هناك شرا مبيتا لكنه ينتظر فرصة التى يستقيم له فيها قضية يدعى فيها ضلوعى فى السجن . كنت قد عقدت النية على الزواج فى شتاء ١٩٦٥ بما هى إلا شهور قصيرة حتى كان ما كان بعد ذلك . فى سنة ١٩٦٦ كنت أعيد ، عام الحزن ، حافلى شخصيا فى سنى الشباب والجهاد . تهيأ مسرعين من جهة وحدى ـ سمعات وسألانى : أنادرى فيم جئناك ؟ قلت : لا نعم . قالا : إن مدير عبدالحكيم عامر يعلم أن لك شعبية ومحبة فى قلوب الناس وإنه يطلب منك أن تحل ده ، مبد قطب ، ومن معه . أعلمت ؟ ونريد أن تسمع هذه الفتوى فى جلسة تعادية . وبقد خبر إلى فى كأنه السهم المريش : ألفنى حل دماء الأبرياء فأبيع آخرتى بدنيا غيرى ؟ وأدخل النار فى الآخرة وبنص القرار ؟! أم أرفض طلب الشيخ فأدخل السجن ؟ ولكن هذا القضاء لم يدم طويلا . فقد تذكرت قول الله تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ . وسألانى : بأى شىء ترد على سيادة الشيخ ؟ قلت على الفور : ربنا يهيىء له فيه الخير . وقبل أن ينصرفا ذكرا عبارة مروجة بوعد بالوعيد . فيها الغمز واللمز . قالا : إن أطعت الأوامر فتحت أمامك أبواب الترقيات والمعاشات وإلا فأنت تعلم أن السجون تتلقى كل يوم المئات ثم انصرفا ... وظللت أقلب هذا الكلام على وجوهه ، وبدت أمامى شديدا ـ صعبت : أبصير الذى أعرية على أيدى الحكام ؟ القصير ـ سير أبواه ـ لاحصين ؟ أيريدون أن يجعلوا من ضميرنا جسورا بين جنبه . إن العالم يتهم فى دينه إذا

طرق أبواب السلاطين والله لموت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله . وقد صدقت يارسول الله إذ قلت : « من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله مابين الناس ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » .

ليت المسلمين يفقهون موقف العبرة من هذا الأعرابي الذي مثل ذات يوم بين يدي الحجاج بن يوسف طاغية العراق . كان إذا أراد الطعام لا يأكل إلا إذا دعا من يأكل معه . فأرسل ذات يوم في طلب من يشاركه الطعام . فوجدوا أعرابيا فجيء به إليه . فقال له الحجاج : أتدري ياأعرابي من أنا ؟ قال الأعرابي : أنت الحجاج بن يوسف ، قال له : لقد دعوتك اليوم لتشاركني طعام الغداء . قال له : لقد دعاني من هو أفضل منك . إنني اليوم صائم مدعو على مائدة الله جلّ جلاله . قال له : أتصوم اليوم وهو شديد الحر ؟ قل : نعم أصومه ليوم هو أشد منه حرًا . قال : أفطر اليوم وصمّ غدا ، قال له : وهل اطلعت على الغيب فرأيتني أعيش إلى الغد ؟ قال الحجاج : فاطلب ما تشاء نعطك . قال الأعرابي : أتستطيع أن تدخلني الجنة وتباعد بيني وبين النار . قال : لا . قال الأعرابي وهو منصرف : إذن فدعني مع الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين .. إنه أعرابي ولكنه جمع الحقيقة كلها في كلمات . إنه يتكلم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . إنه لا يملك الروح والرزق إلا الله وحده : قال صلوات ربي وسلامه عليه « ما قدر على فكيك أن تمضغاه ، فلابد أن تمضغاه ، فامضغه بعزة » .

لا تعجلنْ فليس الرزق بالعجل ... الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

دعوة أخرى من جامعة عين شمس

في أحد أيام شهر مارس ١٩٦٦ وُجهت إليّ دعوة لحضور حفل إسلامي في جامعة عين شمس . شاركني فيها بعض كبار الدعاة وكان حفلا بهيجا اغتصت فيه المقاعد بالحاضرين حتى لم يبق فيه مكان لقدم . وبعد أن فرغنا من الحديث فُتح الباب للأسئلة . فاستأذن الذين كانوا يشاركونني الحفل لما لهم من ارتباطات في أماكن أخرى . وأصبحت وحدي في تلقي الأسئلة وكانت متنوعة بدل الكثير منها على نجابات السائلين . وقد علمتنا الأيام في محال الدعوة أن هناك أسئلة قد لا يكون الغرض منه طلب الإفادة إنما المقصود بها أن تكون مصايد وشراكا يقع عجب فيها لأن السائل قد يكون مريض القلب ، سقيم

الوجدان ، خربة الضمير . وقد كان من ضمن الأسئلة التي عليمت أن سائلها يريد أن يخفر بها بئرا ، لا يريد بها عما سؤال قال صاحبه : هل الاشتراكية من الإسلام ؟.

وكانت الاشتراكية يومذاك دينا المخلد الحاكم من دون الله ، أخذ يتغنى بهذه الكلمة في حصه ، فجعل منها بديلا عن ذكر الله . ورأيتني أمام هذا السؤال واقفا على مفترق الطرق : إما أن أقول الحق فأدخل السجن وإما أن أنافق الحاكم فأدخل النار وإما أن أقول لا أدري فيزول ذلك على أنه هروب من الإجابة فإن هؤلاء القوم لا يعرفون : لا أدري.. فمن تربع على منصة الحديث عندهم ، لابد أن يكون قد جمع علوم الأولين والآخرين .. ولم يكن هناك بد أن أقول الحق ولو عاقبة الأمور . فقلت : يأيها السائل إن الإسلام نظام إلهي متكامل نزل به الروح الأمين على صاحب الرسالة العصماء ، فهو وحي معصوم ينظم شئون الدنيا والآخرة . أما الاشتراكية فهي مذهب اقتصادي وضعي . والإسلام كل لا يتجزأ ، ولا ينفصم منه عروة عن عروة . قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ في جدو شعب الإسلام كاملة غير منقوصة . وذلك مصداقا لقوله جل شأنه في آية أخرى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وتقبل مستمعون هذه الإجابة بقبول حسن . وحدث ما كنت أتوقعه : ونفذ القضاء في اليوم الذي حدده صاحب العظمة والكبرياء جل جلاله .

مهاجمة المنزل مرة أخرى

في يوم الخميس موافق سبع عشر من شهر إبريل ١٩٦٦ تم اقتحام المنزل وكنت قد أعددت خطبة الجمعة بدء على حسب وقع في العرف وهو قتل المشير « عبدالسلام عارف » . وكنت قد هيأت في نفسي كلاما يتركز موضوعه في عظمة الله وسلطانه ، وفي ضياء قوله جل شأنه : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

تمت عملية التفتيش ثم أمرت بالذهاب مع هؤلاء ، وقيل لي ساعتها إنها خمس دقائق لن تزيد ثم تعود . وركبت سيارة أخذت طريقها إلى مكان نزلت فيه ، وكنت يومها صائما وظللت مع الحارس في هذا المكان . وأشهد أنه كان غليظ القلب فيه جفاء وقسوة ، ذا صوت مقزز . سألني وما يكن معنا ثالث إلا الله : إذا أمرت من رئيس في العمل أن أضربك حتى الموت هل علي من ذنب ؟ قلت له : نعم . قال : وكيف وأنا عبد مأمور؟ قلت له : تستطيع أن تتصرف دون أن تكون شريكا في جريمة . أمامك الحائط فاضرب كيف شئت ... لا يراك أحد إلا الله . وأردت أن أستطرد معه في الحديث لأشغله عن التفكير

الشيطانية . فقلت له : إن المؤمن كيّس فطِنٌ يستطيع أن يتصرف في الأمر ما دام صادرًا من جهة تضر العباد والبلاد . فقد رووا أن الإمام مالك بن أنس سأله شاب فقال له : يا إمام إن أبي طلق أمي وإن أمي طلبتني فمنعني أبي . فماذا أصنع ؟ قال له الإمام : أطع أباك ولا تعص أمك أي : صل أمك ولا تذكر ذلك لأبيك . وهكذا يتصرف المسلم في حدود طاعة الله تعالى : ﴿ لا ضرر ولا ضرار ﴾ ! وأذنت المغرب وجيء لي بما يسمونه باكو بكسويت وكوب من الماء . وحمدت الله تبارك وتعالى على ما ساقه إليّ من الرزق . وبعد قليل جمعونا استعدادا للرحيل ، وكانت مفاجأة كأنها صدمة كهربائية ، عندما رأيت الكثير من الذين معي في مبنى الداخلية ، كانو يؤدون الصلاة معي في مسجد الشهداء بالسويس . وأخذت أفكر في الخيط الذي جمع بيننا ، وما هي الصلة التي ربطت بين من يسكن القاهرة وبين من اختار مدينة السويس منزلا ؟ وهل ترددي على هذا المسجد لأداء بعض الخطب هناك يوم الجمعة هو الذي جاء بي إلى هذا المكان ؟ ثم ما هي التهمة التي سوف توجه إليّ ، وأنا من فضل الله عليّ ما كنت يوما من الأيام مقترفا لجريمة أو آتيا بجناية . لقد كنت كما يقولون في المثل المصري : ﴿ من بيته للجامع ﴾ فماذا حدث إلا أن تكون القضية بلغة الذئب الذي قال للحمل : « لقد عكّرت عليّ الماء – وهو يعلم أن الماء لا يجري في العلالي – » .

مهما يكن من أمر فسوف تتضح المسائل المبهمة وتُفك الطلاسم وتُحل الألغاز ، وقطع تفكيري عليّ صوت نادى على أسمائنا وجُمعنا في سيارة قطعت بنا الطريق إلى مكان إن صح أن يُقال فيه شيء فهو مقبرة الأحياء ومُشمّت الأعداء ، ومُحرق الأصدقاء ، ومُغرق الأحباء .. وجيء بالأغطية التي تغطي الأعين حتى تحجب الرؤية . مع أن الساعة قد بلغت العاشرة مساء والليل قد أرخى سدوله ، لكنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .. ما الداعي إلى أن يوضع على العينين غطاء سميك إلا أن يكون ذلك تشبيها للإنسان الذي كرّم الله بالحيوان الذي يسقي الحرث بالساقية ؟! هل هناك أسرار بلغت من الدقة ألا يراها مواطن في بلده الذي منها نشأ وعلى أرضها ترعرع ، نشق نسيمها واستضاء بشمسها وقمرها . وعاش على خيرات الله التي بارك الله فيها ؟! لقد علمت أن هذا المكان هو القلعة ، وصاحت أصوات مرعبة تأمر بتوزيعنا على الزنازين . ودخلت في الزنزانة لأول مرة . ورأيتني أتحسس أربعة جدران فيها حديد معلق ، فتذكرت عندئذ دخول القبر حيث لا صديق ولا رفيق ، ولا جليس ولا أنيس وكأني بالنداء العلوي من الحق جلّ جلاله يقول : (عبدي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك . ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا أموت) ..

تذكرت هذا النداء فآنس وحشتي ، ورحم غربتي ، وبعث بنور السكينة في قلبي .. لم يكن في الزنزانة فراش ولا غطاء والمكان قارس البرد ، وأرض الزنزانة تكاد تأكل الأجسام الصلبة ، فقد بطنت بطبقة من الأسمنت فضلا عما فيها من الحشرات المختلفة الأنواع من قارص وقارض ولاسع . استسلمت لقضاء الله وقدره ، وخلعت جبتي ففرشتها وخلعت حذائي فتوسدته ، وأدخل لي السجان كوبا من الماء ، ثم أغلق علىّ الباب فنمت مرهقا من شدة الإعياء نوما كان أشد من الإرهاق نفسه .

في منتصف الليل

أشهد أن العذاب النفسي في تلك السجون وهذه المعتقلات لا يقل ألماً عن العذاب البدني فمن الذي يستطيع أن ينام ليلاً أو نهاراً وأصوات الضحايا تعلو ثم تهبط ، ثم تختفي ، وقد يكون اختفاؤها إلى يوم يبعثون يوم يقوم الناس لرب العالمين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون يومئذ يندمون حيث لا ينفع الندم ويقولون : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين وهم يصطرخون فيها ربنا : أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل فيقال لهم : أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير .

وليس لأحد أن يوجه هذا السؤال إلى أي معتقل أو سجين فيقول له : هل عذبت ؟ ورأيي إن هذا السؤال فيه مغالطة فكفى بالاعتقال عذابا وبالسجن ألماً ولوعة !! إنه إهدار لآدمية الإنسان وإذا كان هناك دوافع فطرية كالإشباع بعد لوعة الجوع والإرواء بعد لهيب الظمأ والإخراج الذي يؤدي عدمه إلى تسمم الجسم واستنشاق الهواء والعيش في الضياء والنوم الذي جعله الله آية من آياته فقال : ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾ فالطعام والمنام والماء والإخراج والحرية والهواء كلها دوافع فطرية جعلها الله حقا لكل مخلوق له كبد رطبة ، كيف يقال لمن دخل السجن هل عُذبت ؟! أليس حرمانه من كل هذه الحقوق الفطرية عذابا أليما مهينا ؟! ألم تسمع قول رسول الله ﷺ : « **دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً** » هذه هرة حبست فاستحق حابسها النار وعذابها !! فما بالك بحبس الموحدين الصابرين الصادقين القانتين المتقين والمستغفرين بالأسحار !! فإذا أضيف إلى هذا العذاب العذاب البدني كان المصاب فادحاً والخطب جسيماً كيف يطرق الكرى جفون قوم

يستصرخون إخوانا لهم يصطرخون ويلوذون ويصيحون ويئنون من شدة العذاب فمنهم من ينادي ياأمي ياأمي أرحمني علشان خاطر ربنا .. آه !! آه !! يالله أحد أحد اتقوا الله ياهؤلاء !! إنها كلمات تقض المضاجع وتخلع لها الفؤاد ألماً ولوعة وتسيل لها الكبد مرارة وجوى، وبعد ما انتصف الليل فتح باب زنزانتي بعنف شديد ففزعت من نومي فزعاً وبصوت كالرعد يصم الآذان قال لي أحد الجلادين : قم للتحقيق وصعدت درج سلم في جو مشحون بالصراخ والعويل وجلست أمام محقق .. هل ذهبت إلى مسجد السويس ؟ قلت : نعم . قال لماذا ؟ قلت : لأقوم بخطبة الجمعة هناك . أين كنت تبيت ليلة الجمعة ؟ قلت : في منزل مخصص للاستراحة قال ففي أي شيء كنتم تتكلمون ؟ قلت : كنا نتكلم كلاماً عادياً . قال ألم تتكلموا في غلاء الأسعار ؟ قلت : لا . فأمر بانصرافي ونزلت إلى زنزانة مخصوصاً حبسا انفراديا ووضعت جنبي على الأرض أحاول النوم ولكن دون جدوى فبعد ساعة أو يزيد قبلا فتح الباب مرة أخرى ، حيث ذهبت للتحقيق ، وأعيدت الأسئلة مرة أخرى إلى سمعي ، وأجبت عنها بنفس الإجابة ، ثم عدت إلى صباح يوم الخميس وهو اليوم الثاني من اعتقالي وكنت في منتهى الحاجة إلى أن أذهب إلى دورة المياه فقد حضرني سؤال فرد على الحرس بغلظة وفظاظة قائلا غير مسموح لك بشيء وأمامك ست ساعات لا طعام ، ولا شراب ، ولا قضاء للحاجة ، ومهما قلت عما لا قبله فإن الجواب بحجر ، وإنسان يقتل ، وإنسان يصاب بالصداع ، والحياء يمنع مما وقع للمسلمين ، في تلك الأيام المشئومات !! ولكن كي أضع أمام القارىء صوراً مما وقع في سجون مصر ومعتقلاتها ، فإنني أنقل هذه الأسي هذه المقتطفات من كتاب (باشوات وسوبر باشوات) للدكتور حسين مؤنس تحت عنوان مسحق رقم ٦ (خلف أبواب السوداء) .

« مهما بلغت كراهة الإنسان لأخيه فإنها لا يتبقى أن تهبط به إلى مستوى هو دون مستوى البشر وفي الصفحات التالية التي نقتبسها من كتاب الأستاذ أحمد رائف « صفحات من تاريخ الإخوان » التاريخ السري للمعتقل (القاهرة بدون تاريخ) صور لمواطنين مصريين بلغوا في تعذيب إخوانهم مبلغاً يهبط بهم إلى مستوى الوحوش الكاسرة وليتهم مع ذلك كانوا يعذبون إخوانهم لحساب أنفسهم إنما كانوا يؤمرون بالتعذيب فيقبلون عليه وكأنهم يتسلون بما يفعلون هؤلاء لن يغفر الله لهم أبداً وسنردد هذا الكلام بعد أن نقرأ تلك الصفحات التي ترينا صورة من الجانب الأسود للعصر الناصري إنها حجرة في النهر الأرضي على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة تقع أمام بئر الماء لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الخرفي ويقع المستشفى أمامها مباشرة وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة في نهاية الطريق المؤدي إليها .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة فهي ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذي وضع فيها وقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون بينما مساحة الحجرة التي يطلقون عليها مخزن رقم (٦) حوالي مترين في ثلاثة أمتار وكانت تفوح فيها رائحة البول والبراز والصديد وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة فالتعليمات تقضي بعدم صدور أي صوت وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التي تثيرها رائحة الجروح !!

وهنا ينبغي التنويه لقد دخلنا المخزن وليس فينا واحد إلا وبه بعض الجراح والدم يسيل دون توقف أدخلونا المخزن في فزع وخوف فتساقطنا في ظلامه كل منا فوق الآخر وجمد كل منا بالوضع الذي قذف عليه حتى مطلع النهار فقد قال الحراس إنهم لا يريدون أصواتاً أو حركة فالموت جزاء من يفعل وكنا نعرف أنهم لا يكذبون في مثل هذه التهديدات شذ عن هذا واحد منا كان حبس بوله وكان أقلنا في الذهاب إلى دورة المياه قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة وبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح جندي عملاق كريه المنظر قد أمسك سوطاً في يده وصرخ فينا :

هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟

وسكتنا جميعا .

وفتح الجندي فمه بسبب قذر بذيء ثم صرخ ثانية مكرراً نفس السؤال وكان الظلام شديداً فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه وكان الخوف هو القاسم المشترك بيننا بطبيعة الحال وتشجع صاحبنا وطلب الذهاب إلى دورة المياه وكان لواء في الجيش فأخرجه الجندي الكريه المنظر من المخزن بعد أن مر هذا الزميل فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب وأمام باب المخزن حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من المصابيح الموجودة في المكان ضرب هذا الضابط الكبير ضرباً شديداً موجعاً ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أمامنا وبعد هذا كله ألقوه في البئر وعندما أوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا . يقطر دماء وماء وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها وكانت هذه العلقة مدعاة لاستغنائه عن الذهاب إلى دورة المياه فقد تبرز الرجل وبال على نفسه وصارت رائحته تزكم الأنوف القريبة منه وكان منها أنفي وبقي كل في مكانه يجتر أفكاره وآلامه في صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنأمة وكل ربع ساعة تقريباً يفتح الباب ، ويقذف إلينا بمعتقل جديد ، يقذف كما يقذف جوال مليء بالبطاطس مثلاً دون ما اهتمام ، وفي العادة يكون هذا الشخص عائداً من التحقيق أو من منزله .

وكان الظلام شديداً فلم نستطع تمييز وجه أحد ، ولكن كانت هناك أيد تمتد في الظلام لتكتم الأنات الخافتة ، الصادرة من أفواه الجرحى خوفاً من نهش الجنود ، وكان جوعنا

شديداً وعطشنا أشد ، ولكن ! ما الجوع والعطش بجانب هذا الخوف العارم الذى يقتلع القلوب من الصدور ؟ وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس : ياجماعة ..

وانبرى إليه صوت الضابط الكبير الكريه الرائحة من ملابسه المسخة بالبول والبراز :

ماذا تريد ؟ ألا يكفيك ما نحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بإلحاح لقد اكتشفت شيئا هاماً !!

وما هو ؟

بجانب الباب وعاءان من المطاط .

ماذا تعنى ؟

أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب ولكن لا أدرى على وجه التحديد أيهما للبول وأيهما للشراب !!

وقام أحدنا بخفة وبلطف شديدين يبول الواحد فى إناء ويشرب من الآخر وفى هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فى حياتى ولم يكن صعبا مريحا على أية حال : وليس هناك داع لأن أقول إن أحداً منا لم يذق طعم النوم فى هذه الليلة وربما الليال أخرى أتت فى أعقابها ، وكانت الآلام التى واجهناها وعايشناها تشغلنا قليلا عن التفكير فى التحقيق الذى قد يدعى إليه أحدنا فى أية لحظة من اللحظات !!

وقد قدر لى أن أعيش فى هذا الانتظار أكثر من أربعين يوماً حتى أرسلت بعدها إلى التحقيق وقد رأيت كم هو مختلف عن مثيله فى أى زعيل إنه القتل تحت السياط والأسياخ الحمراء ، وخلع الأظافر ونهش الكلاب وأسلاك الكهرباء ، أو تحت وطأة وكل الأحذية الثقيلة .

وفى رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا باثنين ثم نودى على أحد الأسماء وقام صاحب الاسم يرتعد خوفاً وفرقاً ، ونحن نستمع إلى صرير أسنانه وصرت أركز بصرى فى الظلام ، واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتى من المصابيح المنتشرة عبر الساحة كان الضابط المسكين الذى لم يستريح من علقة المساء ، لقد طلبوه للتحقيق وإنى أعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركنى دعائى الحار حتى يخفف الله من آلامه ، وهو ذاهب إلى مصيره المجهول !!

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط وأكلت

الكلاب من جسمه حتى شبعت وفى لمح البصر سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على مسه أو تخفيف آلامه التى كانت تمثلة فى أنانه الخافتة المتقطعة ، وكانت ملابسه غارقة بالدماء وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف كان جسده جرحاً كبيراً غائراً ينزف دما من كل مكان ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرهما ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلى معها أن جنبات السجن قد ارتجت ثم سكت إلى الأبد !!

وكانت خسائر هذه الليلة اثنين من القتلى وأكثر من أربعين جريحاً كما علمنا فيما بعد .

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين فى بطانية من الصوف إلى حيث لا يعلم أحد وضع نهار واستوت الشمس ودبت الحركة فى الآلة الرهيبة .

لا أكتمكم أن أحداً لم يحزن على واحد من الذين ماتوا فى الليل ، لم يكن فى قلب أحدنا مكان لحزن ! فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا ! وكنا نغبط الذين يموتون من العذاب بالشهادة ، والذهاب إلى الله .

فتح باب العنبر قليلا واستطعت أن أتبين هذه السجن من خلال عينى اللتين أضناهما السهر والألم وأخرجت رأسى فى تلك الليلة الحارة .

ورأيت منظراً لا أنساه !!

مجموعة من الجند يهالون على شيخ بالسياط ضربا وهو يصرخ ويستغيث ولا تجيبه سوى وقعة السياط الملتهبة على جسده الواهى فصعق وسكت الشيخ أخيرا بعد أن بح صوته من الاستعطاف وطلب النجدة ، وظلت يداه مرفوعتين إلى السماء لصاقة ولا أدرى .. أكانتا تحتجان أم تتوسلان ؟ وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر مرسومتان بالريشة وقد تكونا من رسم فنان بل كانتا رسما شبيها برسم الأطفال فى السنة الأولى من المدرسة الابتدائية وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح « كنت أخادع الحياة كى أعيش كما أريد » ولا أدرى من كتبها أكان مذكوبا مثلى أم أحد الجلادين ، كنت أشعر أننى فى كابوس مزعج ولا أحتمل التفكير فيما يدور حولى ، لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك الآلام ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم مزعج ، وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة كانت الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان محدود الطاقات ، كان الزمن شيئاً مراً كالعلقم أو أشد مرارة ولم يكن أمامى فى مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل وروويداً رويداً أصبحت أبعد الخاطر عن نفسى وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وأدعو من نفسى أن أكون منهم وأن أحمل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو حرج .

دخل جندى كريه الوجه واليد واللسان ، عرفت أن اسمه « الروبى » وانهال علينا هذا « الروبى » بسيل من الشتائم البذيئة ، وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر ، لكننا على ثقة من أنه يسبنا سباً قبيحاً ، كان يحمل فى يده وعاء قذراً وبأصبعه المتسخة صار يعطى كل واحد منا قرصاً صغيراً من الطعمية الرمية ، وعاود التوزيع وأذكر أننى لم أتقزز كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شىء ، ثم ألقى فوق رءوسنا حفنة من الأرغفة وانصرف .

وأحصينا الخبز فوجدنا أنه كسرات بمستوعبها ما يوازى خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين ، فكان لكل عشرة رغيف وأخذ من الخبز .

بعد جوع طويل ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام ولم يكن الرفض احتجاجاً أو تكبراً ، بل كان الخوف يجعلنا لا نحس بضرورة الجوع وبعد قليل دخل « الروبى » نفسه وأعاد على مسامعنا ما سبق أن قاله وكان ممسكاً بيده اليمنى سيخاً طويلا من الحديد .. وفى يده اليسرى .. كوباً من الألمنيوم القديم قد ملأ حتى حافته بالشاى ...

برأسه الطويل شج رءوس بعض الساكن وانسكب قدر كبير من الشاى الموجود فى الكوب أثناء ضربه لنا ، ثم أعطى لنا مصاصاته .. كانت بقية شاى الموجود فى الكوب هو ما تقرر صرفه للخمسين المجتمعين فى مخزن رقم ٦ الرهيب .

وفى هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاى احتقاراً منا لكل شىء ... وبقى فى مكانه حتى الظهر ...

واكتشف الروبى أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقة ساخنة ..

وبعد ذلك أتانا جندى آخر أشد بشاعة من صاحبه .. لقد تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضى حاجتنا ونغتسل ونشرب بدل البول ماء زلالا من حنفيات .. ولم تتم الفرحة .. ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عنوة والسياط والكلاب تنوشنا من كل ناحية .. ظهورنا ووجوهنا ورءوسنا . وأدخلوا كل واحد منا مكاناً ، وكان المكان قذرا جداً والبراز يملأ كل شبر فيه ، ولا توجد نقطة واحدة من الماء .. ليس هذا فحسب .. بل فوجئت – عندما أغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئاً – بالجندى وقد فتح الباب فى قسوة وانهال على ضرباً بالسوط .. وارتبكت ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط .. كان فى نظرى مجرد مخلوق من مخلوقات الله ليس إنساناً وما ينبغى أن يكون .. أسود الوجه .. غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة تنتن يفعل التعفن الذى أصاب اللثة والأسنان من زمن بعيد .. وكانت البقع الجلدية الباهتة البيضاء تتخلل وجهه الدميم .. وتذكرت داروين وحلقته المفقودة .. وكذلك مر تخيلى لكتاب الفرويجى ...

وانطلق من فمه الأهتم صوت كالزئير :

– اطلع بره ياابن الكلب

– يافندم لسه ..

– أنت بترد عليّ ياجربوع ياحثالة .. يا ..يا

والسيوط يفرقع فى حمية وشدة وحماس ...

وعدت إلى المخزن .. وما استفدت شيئاً فى هذه الرحلة المشئومة إلى دورة المياه غير العلقة الساخنة .. تلك التى تركت آثارها جروحاً فى وجهى وعلى كتفى وظهرى ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المذعورة .. والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوى فى الفضاء الخانق عبر ساحة السجن الكبير .

وجلست مكوماً ساخطاً بين عشرات الأجساد التى ألهبتها حرارة السياط وعرفت أن أحداً لم يقض حاجته .. وظلت الوجوه صامتة قاتمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده فى عصبية وانخرط فى بكاء مرير .. ونسى نفسه وتمتم بكلمات :

هذا ظلم !! .. هذا ظلم !!

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

– كما تعرف أن هذا ظلم .. فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة .. نحن لا ندرى من سيموت منا هذا النهار ؟!!

وخيم صمت على المخزن لا يقطعه إلا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد ..

وعاد كل واحد فينا يحتر أفكاره فى شرود ..

وكان كل ما يشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة .. شعبان « بتاع الخانكة » .. أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك ياشعبان .. يسألوننى عنك وأنا لا أعرفك .. وسأموت من أجل جهلى بك ... ولكن الموت تحت السياط شىء رهيب ياشعبان .. ربما يجلدونك فى هذه اللحظة ..

وجدتنى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :

– ياجماعة .. هل فيكم من يعرف شخصاً من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :

– أنا من الخانكة ولا أعرف فيها من يدعى « شعبان » غير رجل فى السبعين من عمره يعمل فراشاً فى الوحدة الصحية .

واقتربت منه بالحاح :

– هل له علاقة بك ؟

– لا أظن .. إنه رجل أمى ولا يهمهم شيئاً من شئون السياسة ..

– هل له علاقة بالإخوان ؟

– ومن أدراك ؟

فأجابنى فى تأفف خوفاً من حضور الجميع :

– أنا من الإخوان .. صدقنى . ليس فى السبعة كلهم شخص واحد فى جماعة الإخوان يحمل هذا الاسم ..

وعدت إليه فى إصرار وتوسل :

– أرجوك ..

– مرة أخرى بالضبط ؟

– أعطنى أية معلومات عن شعبان ..

– فى الوحدة الصحية .

– هه ..

– كذا ؟

– سوف يسألوننى عنه ولا أعرف عنه شيئاً على الإطلاق ..

وأحس بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث .. فكل منا له مشكلته المقعدة ..

– لقد قلت لك .. هذا رجل مسكين ولا يهتم عن علم شيئا .. وربما لم يغادر الخانكة أبداً ولم يكن له أى نشاط سياسى .. وربما لا يعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام هذا « شعبان » الذى يسألونك عنه لا يمكن أن يكون من مدينة الخانكة . فلا تشغل بالك وتشغلنى معك ...

– ولكن ...

فاعتصى :

– أرجوك أن تسكت .. فى رأسى ما يشغلنى .. وليس عندى كلام عن « شعبان » أكثر مما قلته لك ..

وعاد إلى نظراته الشاردة وإلى ما فى جوفه من خوف وهلع وانشغال ... وفشلت كل محاولاتى معه لأجعله يتحدث عن شعبان .. ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية .. كان الألم يفترسها افتراساً .. وكانت وجوها مصفرة كئيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط .. وكان فى بعضها دم مازال وطبا طازجاً يترقرق من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه .. ويبدو أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شرود كاملة ... كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولا يفعل هذا الإنسان شيئاً سوى أن يرفعه بأصبعه إذا اقترب من عينه ..

وصرت أتنقل ببصرى من وجه إلى آخر ... وأجدها جميعا متغضنة ولا شيء يميز بعضها عن بعض .. ثم وقف بصرى على وجه .. كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار ولا أدرى لماذا ركزت عينى على مكانه فى الظلام حتى أستطيع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار .. لقد شغلنى قبل العصابط للحفلات عن أى شيء آخر ... والآن وانت الفرصة لاتأمل هذا الإنسان ...

كان وسيم الوجه ... فى الخامسة والعشرين - هكذا خيل إلى - على شفتيه ابتسامة ميتة ... أو ابتسامة فى طريقها إلى الموت . يرتدى ملابس فاخرة - حليق الذقن والشارب ... وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم يرسل نظرات إلى المكان .. ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو كانت فى طريقها إلى أن تموت وصرت آمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه .. ولاحظ صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين .. وكنت أسأل نفسى .. ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ ... لقد كنا جميعا نقف على حافة الأبدية .. وكانت رائحة الموت ملأ أنوفنا ... فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى تمارسها فى هذا المكان ..

واقترب هذا الشاب بوجهه منى .. فقد كان لا يبعد عنى بأكثر من شبرين .. وباهتمام بالغ همس فى أذنى :

- أريد أن أفضى لك بشيء بالغ الأهمية !!

وارتعدت فرائصى.. ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟ وقلت له وكأنى أدفع خطراً عنى :

- أنا لا أعرفك ... ولم أرك من قبل الآن ...

وكأنه لم يسمع كلماتى ..

وخيل إلىّ لحظتها أن ابتسامته قد بعثت .. ولكنى عرفت بعد ذلك أنه كان وهماً صورته لى اقتراب وجهه منى ..

وقال لى :

– اسمى عاطف .. أعمل فى بنك مصر ...

– ياسيدى لا أعرفك .. واسمك لا يذكرنى بشىء ..

وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب لى ورطة .. وخيل أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة ... وفى لوبة من نوبات الشهامة .. قررت أن أستمع إليه .. والتفت إلىّ فى حماسة .. وتحنى نظرته الحزينة .. وقلت له :

– عند تريد ؟ ... أنا تحت أمرك .. ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئاً ..

– ألا تعرفنى حقاً ؟

– كلا

– حاول أن تتذكر ... وجهك ليس غريباً عنى ... يخيل إلىّ أننى رأيتك فى مكان ما ...

– صدقنى .. لم أرك قبل الآن ...

– ألا يبدو وجهك مألوفاً لدى إلى ؟

– لست أدرى ..

– هل تستطيع أن تكتم سراً ؟

– فى هذا المكان ؟

– نعم

– هل من الخير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ ربما ...

– ربما ... ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سراً

– إذا كان هذا الإنسان أقوى من السوط ...

– وهل السوط أقوى من الإنسان ؟

– لست أدرى ، ربما ...

– أصحيح ياشريف ...

– بعد هذا سأقول لك :

– ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟

– وجهك يبدو مألوفاً لدى ...

– ألا تعتقد أن يخونك التقدير ؟!

– ولماذا يخونى ؟

– في الحقيقة أنك تثير اهتمامي ..
– كأننا أصدقاء ..
– في الماضي كلا ..
– أقصد أن نتصادق الآن ..
– أنت تمزح ولا ريب ..
– كلا .. أنا أعني ما أقول ..

ووجدت نفسي أبتسم ابتسامة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب .. أفي مثل هذا الوقت يحاول أن يتشيء صداقة؟!! ربما إحساسه بالخطر الذي يدفعه إلى الارتباط .. ربما يريد أن يحتمي بحلف شيء ما .. وربما .. وربما ..

وجدت وجهه صبوحاً نبيلاً مليئاً بالأسى .. ونظرة صافية حزينة تشع من عينيه ... وابتسمت من جديد ... وكانت ابتسامة عذبة مخلصة .. وكانت لحظة سعيدة .. وكدت أضحك وأنا أقول له :

– أنا موافق ... لا بأس أن نكون أصدقاء ... اسمي ..

فقاطعني ...

– لست أن أقول لك العمر ...
– أي سر ؟
– السر الذي حدثتك عنه قبل قليل ..
– لا بأس ... إني مصغ إليك ..
– وتلفت حذراً هنا وهناك .. وبدت عليه علامات الجد والاهتمام ...
– الموضوع له علاقة بنبية ...
– نبية ؟
– اصبر ... سأذكر لك كل شيء في حينه ...

وبدأ الخوف يغزو نفسي من جديد .. وغاضت سعادتي .. كنت أريد أن أبتعد بأي اسم لأي فتاة عن هذا المكان ... فأي سم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتي خلال ساعة من الزمن ... ولو كان هذا الاسم لعقربت من الجن على حد تعبير أحد الضباط ... ولكن عاطفاً هذا لم يكن منتفتاً إلى أفكاري التي تنساب عبر عقلي ... ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط .. وأتاني صوته ضعيفاً :

– كنت أحبها ... حباً عميقاً ... وكانت هي كذلك ..

وتملكنى إحساس عارم بالسخرية وقلت له :

– لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك ....

ونظر إلى جندية وهو يجيب ...

– نعم وماذا فى هذا ؟

– لا شيء .. ولكن ألا ترى أن المكان لا يناسبه هذه القصة ؟

– ولكنى أراه مناسباً تماماً ..

وتغرست فى وجهه ... كان المسكين فى حالة ذهول كاملة ... وأدركت ذلك عندما دققت النظر فى وجهه ... وأحسست عندئذ حادة تمزق قلبى ... كان المسكين فى حالة غير عادية لقد أذهله الموقف .. وشعرت بالحيرة .. ماذا يمكن أن أفعله له ؟ لا شيء ومحاولة رأيناه ينخرط فى بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول :

– لقد أخذوها عنوة ... توسلت إليهم أن يتركوها فرفضوا .. كانت فتاة رائعة .. وقاطعته .. عقد ونفث شعرى من هول المعنى الذى تحمله هذه الكلمات :

– عمن تتكلم ؟

– نبيلة – كنا سنتزوج بالأمس .. جاء المأذون لعقد القران ... ولكن

– قبض على أنا وهى .. أخذوها ...

– من الغير أخذوها ..

– المباحث الخائنة العسكرية .. قبل أن يعقد ..

– لماذا ...

– لست أدرى ..

– أنتما من الإخوان ولا ريب ...

– أنا وهى من المسلمين ..

– إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء ..

– لحساب من ؟

– لحساب الروس .. لحساب الإمريكان .. وربما لحساب اليهود ...

– اليهود ؟

– نعم ...

– ألستما أعداء لهم وفى حرب معهم ؟

واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بغزارة علامة الصلاة فى جبهته وهمس :

- نحن نعاديهم في الظاهر ... أما حقيقة الأمر فنحن خدم اليهود المخلصون ...
- نحن من ؟
- المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم ...
- أنت تقول كلاماً خطيراً ..
- أنا أقول الحقيقة ... كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب ..
- أية حرب ؟

- بعد أن ينتهي هذا المعترك سوف تدخل في حرب مع إسرائيل ... ويهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة ..
- لعمري هذا أمر غريب ..
- ستأتيكم الأيام بما لا تعرفون ..

وكان عاطف شارد الذهن ولعله يدرك شيئاً من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

- عندما أتينا ذهبوا بها إلى مكان ... يقولون اثنين ... وهنا أخذ الأمباشي دبلة الزواج .
- أكانت دبلة من الذهب ؟

وأجاب عاطف :

- نعم .. كانت كذلك ..
- ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل في أفكاره .. وأنا أفكر في شعبان بتاع الحانكة .. وعاطف يفكر في زوجته والشيخ يفكر في اليهود القادمين .

قطع علينا الصمت الذي يخيم على المحزن صوت فتح الباب في جلبة وضوضاء .. ودخل جندي كريه كأصحابه .. يحمل في يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون حبق الشعر وكان يمسكها بطريقة مخيفة .. كأنه يمسك بآلة حادة يهم أن يبطش بها بإنسان وتكلم كأنه ذكر الخنزير ...

- يا أوغاد ... يا أولاد الكلاب .. يا حشرات ... ستحلقون رؤوسكم القذرة بعد قليل يا أبناء العاهرات .. وهذا شرف لا يليق بكم يا لمامة .. عبدالنبي .. نعم أنا الأسمى عبدالنبي .. (وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق والمجند حالياً .. سأحلق لكم ... هل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد .. هيا تعال أنت ... وختار واحداً منا وكان الذهول يلفنا كالدوامة ... وتقدم الشخص الذي اختاره .. وحسن

صاغراً بين يديه كالمغشى عليه من الموت ... وكان هذا الشخص ملتحيا ... ورأينا الأسطى عبدالنبى الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الحلاقة كما يدعى .. وقد هم به كأنه سيفترسه لا سيحلق له ..

ومن بين الكلمات والصنعات المتوالية حلق له .. وكانت حلاقة عجيبة .. فقد حلق له نصف لحيته ونصف الشاربه المحلوق .. ثم حلق له شعر رأسه .. وختم الأسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشياً عليه .. واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصراخات والأنات المكتومة .. والكلاب تعوى فى فناء السجن .. وماكينة الحلاقة فى يد « عبدالنبى » التى تقطر دماً .. وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنات وعواء الكلاب الضارية فى فناء السجن ...

وجاء دورى فى الحلاقة وكان نصيبى جرحاً عميقاً فى أعلى جبهتى ...

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الأسطى عبدالنبى ضاحكا مسروراً ... ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من الشتائم المنتقاة التى – والحق أقول لكم – منها ما لم أسمع به قبل أن ينطق بها الأسطى عبدالنبى .

وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جرحنا .. ولم تكن لدينا أدوات الإسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق .

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق ... وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين وترك فى العراء حتى جفت جروحه وتقيحت .. وفاحت رائحتها الكريهة .. ولحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثاً ... وتكوم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة ....

« رجلى ياناس ... احفونى ياناس ... النار ... النار .. ياناس .. حاموت ... ألا يوجد فيكم مسلمون .. والله ما أعرف حاجة عن الإخوان .. الله يلعن السياسة .. ياناس أنا عربجى إيش عرفنى بالإخوان .. ياناس واحد يطفى النار ده فى رجلى » .

كانت قدمه اليسرى ملتهبة ومحتقنة بالصديد ولم نكن نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان اندفع الدم فى عروقه أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقاً عصبياً حتى يأتينا أحد حراس وتجمد الدم فى عروق وفى عروق الموجودين على ما أظن ولن نتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة وصيح ما توقعنا !!

فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين وفى يد كل واحد هراوة ضخمة وكأنهم كانوا على استعداد وفى انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجهاً : وقعتم فى المحظور بأولاد الكلب .. كنا ننتظر هذه الغلطة هيا إلى الخارج جميعاً !!

وأوقفونا صفاً متجورين ولم يأت معنا الرجل الطريح لما كان يقادر على الوقوف وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك بعد أن طعنه بهراوته طعنا ولم يقم الرجل بل كسرت ذراعه لـ هذه العملة أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئاً جديداً لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التى مزقها الزجاج الدقيق المتناثر فى الفناء وأوسعونا ضرباً ولكماً وه رفسا ، ثم جعلونا نلتحق بسلالم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط والهراوات ونهش الكلاب !!

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا ومنا من صاحبه ورم فى لسانه حتى رقدنا هدا !!

أما الرجل الذى تركناه جريحاً بعانى من الصديد الذى ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئاً عجيباً !!

كان يجرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه يطفىء نارها المستعرة ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ صراخاً عالياً وحاولنا رغم كل ما حدث أن نهدئه وأن نمنعه مما كان يفعل !!

ووجدت دموعى تنساب على خدى دون صوت كان قلبى يتمزق وكان هو يتمزق ، ويضغط تحت ثقل يد قوية عاصفة ولم يفكر أحد منا فى استدعاء الحرس لإسعاف الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طوال النهار !!

وفى الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس الثانية صار الرجل ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته ويطلب منهم أن يسامحوه ويغفروا له ذنوباً لا نعرفها ثم اختلج جسده وأسلم الروح .

وفى الصباح وجدنا فى وجهه تعبيراً هادئاً مطمئنا كأن الله غفر له !! بعد أن مات الرجل وعرف كل من فى المخزن أنه مات انفعل أحد الموجودين وبكى بصوت مكتوم ثم ارتج المخزن بالبكاء وصلينا عليه ونحن فى أماكننا وهو غارق فى برازه ، وصديده ، وابتسامته الهادئة التى لم نرها إلا فى الصباح !!

وكانت هذه هى الليلة الثانية فى السجن الحربى ، الليلة الثانية التى لم أذق فيها طعم النوم وإذا أضفنا الأربعة أيام التى قضيتها فى المحمصة يأتى ليصبح يكون مجموع أيام السهر ستة أيام كاملة ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم .

وفى هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى أشرب قدراً أكبر من البول الذى خمناه فى أوعية المطاط طوال النهار وجاء الليل ورحنا نجند ليفعلوا معنا ما فعلوه فى الأمس فتكلم أحدنا فى صوت ضعيف : وهناك روائح أخرى تهب من الأجواف التى أنتنها الجوع والسغب وقذارة الأسنان وكان صوت المزلاج عندما يتحرك إيذانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه يتنبه ويصل إلى قوة إنفعاله وتمتلىء عروقه بالأدرينين تحفزاً واستعداداً لمواجهة الخطر وتمثل لنا أسوأ الأوقات فى لحظة تسليم الطعام الضئيل لكتبة القدر الصناعة لأنهم ينتهزون هذه الفرصة فيوسعوننا ضرباً ولكماً وأذى !!

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة لحظة استدعائه إلى تحقيق وكان عذاب الأنتظار رهيباً هناك من مات فى انتظار هذه اللحظة لم يستطع فيه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف فلم يكن أمامه غير الموت يد أقدم فيه واحد منا !!

وأشار بيده إلى الجثة الماثلة وارتسمت على وجهه حتى بسامة وقحة :

واحد منا يأولاد الكلب ؟ أين يذهب بوجوهنا من سيدة العميد ؟! أى إنسان هنا الذى يحدث عنه الجندى ؟ لا شىء أنه ليس من البشر لا يؤثر فيه منظر الموت الجديد ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يضحكان ويتعمدان كأنهما يحملان ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان أرخص الأشياء وأدناها قيمة وذهب الرجل الكبير الذى لم نعرف عنه شيئاً سوى أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة لم يمت لقد ذهب الرجل إلى مكان خلف الحياة إلى الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمور فى نفسى .

ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ وما العزة ؟ وما الذلة ؟ ما البغض ؟ ما الحب ؟ ما الجوع ؟ ما الخوف ؟ كل هذا ليس سوى كلمات وما أنا ؟ لست سوى كلمة وما الآلام ؟ أيضاً كلمة وما الفكرة وما الصمت ؟ الخير والباطل كلمات ولكن تختلف الكلمات وتتفاوت هناك ﴿ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾ وهناك الكلمة الخالدة طيبة ﴿ كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ وحيرة التى نعيش فيها ويصنعها بعضنا ونصنع نحن البعض الآخر ليس هذا كله إلا صراعاً بين الكلمات ... الكلمات الخبيثة والكلمات الطيبة — ونحن بين هذه وتلك فى علو وانخفاض ولا نزيغ فوق عرش الحياة فى النهاية التى لا يمكن قياسها بمقاييس البشر إلا أصحاب الكلمة العليا الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد الدفاق اللا متناهى ما دام للوجود حس أو شعور .

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا الحزن وبعضنا تاله .. قضيت فى هذا الحزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى الزائرين ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته فى السجن الحربى فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وقد ترك هذا العام فى نفسى أثراً لا يمكن أن يمحى أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه !! وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الأيام المفزعة فكم من الكلمات لا تعنى شيئا بالنسبة لكثير من الناس !! ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا هناك فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس ويكون فى نفوسهم معنى لا يختلفون عليه !!

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يُحكم فيها الحراس علينا غلق باب الحزن رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصديد الموجودة فى كل مكان ورائحة كريهة ، انتهى . وبعد تقديم هذه الصور التى تقشعر منها الأبدان وتشيب من هو لها الولدان أستطيع أن أجزم بأن ماذكر فيها ليس كل الحقيقة بل هو غيض من فيض وجزء من كل ونقطة من بحر وسطر من قمطر من لواقع المرير الذى لا تشرحه العباءة ولا يقوى على وصفه بيان ولا يستطيع أن يوفيه لسان فهو عند ربى فى كتاب ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس وليُنذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴾ .

تهمة عجيبة

دخل معى السجن فتيان كانت تربطنى بهما صلة الشيخ بروادة وكانا يقومان بخدمة المصلين يوم الجمعة حسبة لله تعالى وقد تم اعتقالهما معى فقد كانا يسافران بصحبتى لأداء الخطبة فى مسجد الشهداء بمدينة السويس وقد نالا فى المعتقل العذاب الأليم فى سبيل أن يكونا شاهدين عنى وقد أخبرنى أحدهما بعد انتهاء فترة التحقيق بأنه قد استعمل معه الوسائل العلمية التى تدفعه دفعاً إلى أن يقول كل شىء وكان السؤال الذى يتردد عليهما دائماً أين يختفى الشيخ

كشك السلاح ؟ وهما يعلمان « علم اليقين » بل « عين اليقين » أن السلاح الذي أدعو الناس إليه هو « سلاح التقوى » وهو السلاح الأقوى !!

إذا المرء لم يلبس لباسا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

وأراد الله تعالى أن يجعل من اعتقالهما سلوانا لنفسي وتخفيفاً من أهوال الخطوب الجسيمة فقد كانا يقومان على خدمتي من غسل الثياب التي كادت تبلى وتعشش فيها الهوام كذلك يقومان بإعداد الطعام الذي إن شئت فقل إنه لا يقل بشاعة عن طعام الدواب ، فصرره أكثر من نفعه ، قطعة من الجبن إن شئت فقل إنها اقتطعت من جبال الملح ، إبان العصور الوسطى ، وعسل أسود حامض كأنه العسلين . والناس كثيراً ما يبتلون بالأمراض التي لا تتفق وهذا الطعام فمريض الضغط ، لا يستطيع أن يأكل هذه الحجارة التي كأنها طبخت في جهنم ، ومريض السكر لا يقوى على تناول هذا العسل . فماذا يفعلون ؟! إنهم إن امتنعوا عن الطعام ماتوا جوعاً ، وإن أكلوه ازدادت الأمراض ، واشتد الألم فهم بين أمرين أحلاهما مر . أما عن النوم فقد فرشت الأرض بطبقة من الأسمنت الذي يؤلم الأجسام صيفاً وشتاء ومن الناس من أصيب بأمراض في عظامه وكثير من يؤذيه أن ينام على تلك الأرض الصلبة ذات التعاريج والحفر ، أما ما تحتويه الزنزانة من أنواع الحشرات فحدث عنها ولا حرج . فإن ما بها من لاسع وقارض وقارص يذهب بالنوم من الجفون ويترك الآدمية في فزع ومنع وقلق وجزع هذا هو الطعام . والمنام ، وتأتي ثالثة الأثافي . الذهاب إلى دورة المياه ، إنها مشكلة المشاكل فاعجب معي لقوم يتحكمون في أخص خصائص الإنسان حتى لقد قرأنا على أحد جدران الزنزانة كلمة قالها أحد الذين دخلوها قبلنا كتب يقول « كنا نطالب بحرية القول ، فأصبحنا نطالب بحرية البول » نعم إنها الفطرة التي ركزها الله في الإنسان وقد كان من هديه ﷺ إذا فرغ من تناول الطعام يقول : **الحمد لله الذي أذاقنا لذته ، ودفع عنا أذاه ، وأبقى علينا قوته وكان يدعو بعد الطعام بتلك الكلمات : أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة الأخيار ، وأفطر عندكم الصائمون ، وذكركم الله فيمن عنده اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه » . أما إذا شرب اللبن فكان يدعو قائلا ﴿ وزدنا منه » .**

كيف يصبر الإنسان وهو يدافع الأخبثين ؟ كيف يصبر على من يرد عليه قائلاً أمامك ست ساعات إنه يظل يتلوى من حصر البول !! أيبول في المكان الذي ينام فيه وليس معه ما يبول فيه ؟! أليس هذا تعذيباً بغير سوط أو عقد أو كي بالكهرباء أو إطفاء أعقاب السجاير في ملامس العفسة ؟!! أيقال بعد ذلك لمن دخل السجون هل عذبوك ؟ إنه سؤال

عام وزاد لقد كان يجاورني في زيارة أخرى أحد « علماء المسلمين » وكان له مقام ثابتة في العلم وكان يؤدي حصة جمعة في أحد المساجد بالضاحية المعروفة بمصر الجديدة وكانت جموع العمرة تولي وجوهها شطر هذا المسجد وتؤمه فرحة مستبشرة بالاستماع إلى هذا الداعية الإسلامي الكبير عسى أن تنعش الحكمة من مواعيه وذكره كان يقول حتى ولا يحدث في الله مرة لأم ويسمع رسالات الله ويخشاه ولا يخشى أحداً إلا الله من أجل ذلك أصبح يزيل المسجد وكان مربعاً بالسكر . ومربعي السكر كما هو معروف يكاد من تعدد إلى ندوة الشيء بفرع ما في خانة من جوز . فكان كثيراً ما يفرق بين الزوجة من ذا جهة مخافة أن يفتح له ما يعانيه من ألم بيول . ولكن لا عجب ولا مستمع !! لم يكن هناك رحمة بالأدمية بعد ما كانت أصوات الأبين وارتفعت صوح في المسجد صباح ذو صوت عميد فلا ه يكن يؤدي هذا صوت أو صخة غير ما خرجت من وكلوها وهو صخة جريان وجوه ما عرفت أعضاءه إنه حيق الخراب وسوء الطوية في أنها حسنات بعد كانت بيضاء بلا عمى وكانت نهارها بلا قمر بل هي صفحات لم حر حي يعتنه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا خرج يده لم يكد يراها

إستدعاء إلى التحقيق مرة أخرى

في أثنيه ذلك من عشاء وفي حجر جميل فتح حتى بدت وجوه إضاءة حد خلالها بصوت مرتفع قائلاً إن هذا صوت ضابط زيارة يفتح قفلي وفعلاً بلا رد فطن حد مرتفعي إنه كشيف وأحست من يدي إن مكالة تخفق وجلست أنه العفو فإذا هو يقف على عتبة الأسئلة هل سبق أن حج أو عمرة ؟ قلت : لا . ثم سأل هل أنت على بحث بعض النصارى ؟ قلت : نعم . وسأل وكيف كان ذلك تحدثك قلت : كانوا يتجمعون إن دروس العلم من خارج المسجد ، وكانت تدور بيني وبينهم مناقشات في أرض الحديقة ملحقة بالمسجد . وقبل ذلك وبعده كنت أعلن بقول : **من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ، وذكرت له قصة إسلام أبي ذر الغفاري وقد جلس بين يدي رسول الله ﷺ ولما سأله الرسول عن اسمه وقبيلته يعلم أنه من غفار قال له يا أبا ذر حلت ؟ سأله هذا السؤال وهو يعلم علم أكيد أبو ذر بأنه من لبعض بكلمة موجهة بعلم علم موجد .

وسر عجب الرسول ﷺ من ذلك أن قبيلة غفار كانت تقوم بقطع الطريق وتسلب من تواجهه ولكن زال عجب عندما قرأ الرسول ﷺ قوله تعالى : **﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾** إن الإنسان إذا تمكن منه من ضعف يكاد يعمي يستحيل عليه أن يخرج عليها فيه ، مستحيلاً ، يد قوة وكان الحرب الجبان ، وتسير بعوه

وانتهى التحقيق عند هذا الحد فقد حاولوا أن ينتزعوا أى كلمة من الشابين اللذين دخلا معى السجن ليجعلوا منها قضية ولكن كان الحق أقوى ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾ أين أخفى السلاح ؟ أأخفيه فى المنبر الذى أخطب عليه ؟ وماذا أصنع بالسلاح والحق قوة بين قوى الجبار أمضى من كل أبيض هندى ؟ إننى مازلت أذكر عندما حضر أحدهم إلى بيتى للتفتيش ولم يكن قد مضى على زواجى خمسة أشهر وجد بعض السكاكين التى كنا قد جئنا بها بمناسبة الزواج فسأل متهكماً ما هذا السلاح ؟ وقلت فى نفسى سبحان الله أتسمه سلاح الطيران ؟ أم المدفعية أم المدرعات ؟ أم الصواريخ ؟ وأخيراً قلت : نعم إنه سلاح متصل !! إنها لغة الأقوياء !! لغة الذئب الذى قال للحمل عكرت علىّ الماء !! وهو يعلم أن الماء لا يجرى فى العلالى ، ولكن القوى يختلق الذنوب للضعيف ليهلكه ونسى أن فى السماء مملكة يقول فيها مالكها ومليكها ، **وما كنا عن الخلق غافلين** ﴾ لقد كتب على باب تلك المملكة ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

رؤيا منامية

سألت نفسى وأنا داخل السجن فى أيامه الأولى لماذا جئت إلى هذا المكان ؟ وما هو الذنب الذى جنيته ؟ ومتى وقت الرحيل ؟ وهل هذا الليل من آخر ؟ ليل الظلم والظلمات وقطع علىّ هذه الأسئلة النوم فقد نمت بعد الإرهاق الشديد فرأيت فى المنام الصديق رضى الله عنه واقفاً أمام منبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وسألته أيرضيك يا خليفة رسول الله ما نحن فيه فرد علىّ بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾ وعلمت أن هذه الشدة لابد لها من الصبر والصبر كما قال العلماء : احتمال الكد أو هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد للقبائح . أو هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات . وقد يكون الصبر عفة إذا كان صبراً عن شهوة ، وقد يكون حلماً إذا كان عن جهالة الجاهلين وكاد الحليم أن يكون نبياً ، وقد يكون شجاعة إذا كان على الغضب وقد يكون قناعة إذا كان عن شهوة الغنى ، فالصبر مع الله وفاء ، والصبر لله ولاء ، والصبر فى الله عطاء ، والصبر عن الله جفاء ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ وعلمت أنه لابد من الصبر من التسبيح بحمد الله حين يقوم الإنسان وحين الليل وساعة إدبار النجوم ولابد من لزوم الاستغفار فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجاً ومن كل شدة مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب

جاء عوف بن مالك إلى النبي ﷺ يشكو له أسر ابنه بيد الأعداء فقال له الرسول صلوات ربي وسلامه عليه « **أكثر وأنت زوجك من قول لا حول ولا قوة إلا بالله** » وعاد الرجل إلى بيته وأخبر زوجه بما أوصى به رسول الله فجلس يرددان هذا القول المأثور « **لا حول ولا قوة إلا بالله** » وما أن أوشك الفجر أن ينشق ضوءه حتى كان الباب يطرقه وإذا بطارق ابنهما وبعد أن استقر به المقام سأل ماذا كنتما تقولان فقالا كنا نقول : « **لا حول ولا قوة إلا بالله** » فماذا حدث لك ؟ قال لقد قيدني الأعداء بسلاسل من حديد كي لا أستطيع الفرار فشعرت كأن حلقات السلسلة تتسع شيئاً فشيئاً حتى أخرجت يدي وقدمي وعلى حين غفلة من الأعداء سقت تلك الرؤوس من الغنم فذهب عوف بن مالك وأخرجه ترفرف فوق رأسه كأنها الحمائم البيضاء ، فوق المروج الخضراء ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ليقص عليه ما حدث وإذا الصادق المعصوم يقول له : **ياعوف ، لقد أنزل الله في حقك قرآنا يتلى إلى يوم القيامة وتلا عليه قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾**

صور من السجن

خبر الصادق المعصوم ﷺ أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها وذكروا أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما ذهب إلى بلاد الشام وجد رجلا يقف في حر الشمس وأمامه ظل ظليل فسأل : لم وقفتم هذا في حر الشمس وهو لافح؟ قالوا : ياأمير المؤمنين لقد أتى ذنبا فكان ما رأيته عقابا له ، فأخذه عمر بيده إلى الظل ثم قال لهم : قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا** » ، نعم يافاروق هذه الأمة . يامن حكمت بعدلت فأمنت فنمت . لقد كان إسلامك نصرا وهجرتك عزاً وخلافتك رحمة !

إن جاع في شدة قوم شركتهم	في الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	في الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى ابا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها	من أين لي ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به	أولى فقومي لبيت المال رديها

إن الرسول ﷺ يخبر عن الرحمة فيقول : « **من لا يرحم لا يرحم** » ويقول : « **لا تنزع الرحمة إلا من شقي** » ويقول : « **الراحمون يرحمهم الرحمن** » « **ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » . وروى أبو بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن الأمين

جبريل عن رب العزة أنه قال في حديثه القدسي الجليل: (إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي) .

حدث أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فدعا الله قائلا: « اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم أحدا سوانا » فقال له مبعوث العناية الإلهية : يا أعرابي لقد حجّرت واسعا أي ضيقت رحمة الله الواسعة . وكان أحد الصالحين يناجي ربه فيقول : إلهي إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغني فأنت القائل : ورحمتي وسعت كل شيء وأنا شيء فلتسعني رحمتك . وكان بعضهم يقول : شعاع من رضاك يطفيء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا ، قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريّاً ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

إن كانوا يقولون : الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، فهناك من يقول : الحرية تاج على رءوس الأحرار لا يراه إلا المسجونون . إذا نزعت الرحمة من الإنسان فقد نزعت منه حقيقة الإنسانية في الإنسان . لقد رأيت صوراً داخل السجن يندى لها جبين الإنسانية حياء منها ، فقد كان جوار زنزانتي شيخ من علماء الإسلام سبق أن تحدثت عنه كان قد اشتد به مرض السكر ، فكان إذا جاع ألمه الجوع إيلاما شديدا بحيث ينهار انهياراً كاملا ، طلب الطعام وهو يئن من وطأة الجوع . فجاءه أحد الجلادين وهو من غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، فسأله الشيخ شيئا من الطعام ، فقال له الجلاد ساخرا : انظر إلى سقف الزنزانة ، فنظر الشيخ الجليل ، الذي كانت ألوف النفوس تهوي إلى سماعه في مسجده ، قال له : فماذا ترى ؟ قال : أرى حشرة تمشي . قال له الجلاد : إن قفزت وجئت بها من السقف فسوف أحضر لك الطعام . وازداد الشيخ ألماً على ألمه كما يقولون : وأخف من بعض الدواء الداء . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ . لقد فتح الإسلام أبواب الجنة أمام رجل سقي كلبا كان قد اشتد به العطش . وهذا إنسان زادت سنه عن الخمسين وعاء وسع قلبه كتاب الله لفظاً وغاية . ومريض هزم المرض فيه العافية . فما حركت كل هذه العوامل شعرة في هذا الجلاد . يا للأسى !!

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

ومن هذه الصور التي يسيل لها الكبد مرارة . استيقظنا ذات صباح على صوت ينطلق من داخل زنزانة يصيح : صداع ، صداع . فما استجاب له أحد ، إنما ردّ عليه أحد الجلادين بصوت مفزع : مت إن شئت . فلو مات من أصدقائك مليون أو مليونان لاستراح

البلد . فتصوّر معى : إنسانا يكاد الصداع يفلق رأسه ويشق كبده . لا يُستحاب له ولو بقرص من المسكنات .

— صورة أخرى مقبضة : شكوت ألما فى مفاصلى من طول المُكث على أرض لا تليق إلا بالدواب حتى أوشكت ألا أقوى على القيام ، ونُوديَ ذات يوم : من أراد الباشا الدكتور فليبلغ عن اسمه ، فبلّغت عن اسمى عسى أن أجد عنده منَ الدواء ما يُسكن ألمى . وجاء من يأخذ بيدى فإذا الطبيب على غير ملة الإسلام وسألنى : م أشكو ؟ . وشرحت له . فقال متهكما : إذا كنت تشكو الأمّ عندما تقوم فلاداعى إلى قيامك . فقلت له : يؤلمنى أكثر أن أصلى جالسا . فقال متهكما ساخرا : لا داعى أن تصلى وماذا فعلتم بصلاتكم ؟ وتذكرت قول الشاعر العربى :

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

— صورة مؤسفة : نعم بها مؤسفة ومخزية ولكن ليست عجيبة ، كما إذا ذهبنا إلى دورة المياه صباحا لُساق بالعصا كقطيع من الغنم . وكان أحدنا لا يُسْمَحُ له فى دورة المياه بأكثر من ثلاث دقائق لقضاء الحاجة فإذا مضت الدقائق الثلاث دون أن يخرج فتح عليه الباب قسراً وضُرب ، وخرج مهينا كمسف الذنب قليل الرجاء ، بل ربما كان بعضنا يخرج دون أن يقضى الحاجة . وكان من بيننا شاب يشكو مرض « الدوسنتريا » ، وكان قضاء الحاجة بالنسبة له يحتاج إلى وقت طويل . فكان كثيرا أو دائما ما يخرج مضروبا . وكان ذلك يجرى فى نفوسنا ويزيدنا كربا فوق كربنا ، فكان إذا اشتد بنا الكرب وادلهمت أمامنا الخطوب نستغرق فى الاستغفار وذكر الله .

يد الله تعمل فى الخفاء

إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها وما من يد إلا يد الله . فوقها وفوق تدبيرنا الله تدبير الله تعالى فى كل نفس مائة ألف فرج !!

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد فحسبك الله فى كل لك الله

وقد صدق الرسول ﷺ وهو يقرأ في قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾ قال لن يغلب عسر يسرين . لقد هيأ الله تعالى لشيخ الخليل الذي كان حواري ورفاقي يكاد يغرق في مرض السكر بكليته شيء وشفاه الخروج عليه الله رجلا من الحواس لكل رزقه الله قبساً كان يمتاز عن صحبه ويحبه لشيخ . كما أحضر له كوراً البول فيه وقصارى القول كان يتعهده وهكذا حتى خلصني من الرمحة كشعرة الخمير المتسللة من عجين العائنة وسبحان من ولى موسى في بيت فرعون ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾ نعم إن لله تعالى في الخفاء

من حلاوة الذي كان يسوقه إلى دوره بيده بعضه كقضيب حتى قبس في أدنى ذات يوم وقال هو يكاد يبكي : ادع الله أن يشفي ويحني فإنا تعدى من عدوستان . قلت له : إن أردت أن يشفيها الله فاعمل بنصيحتي أعرف لأي ولاء قال نعم : قلت إنه يعالج من الغيبتي وأنت لا تسمح له في زيارة بيته إلا ثلاث دقائق فيه تأخر عنها فتحت عبه الباب وضربته بعصاه بأحد راحتيه وأنفه من وقت فصاعدا ما كتب الله فرزيه ، وسوف يشفي الله روحك وكان يقول الصيد بعضه ﷺ « الم لا يلي والذنب لا ينسى والديان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان » بعد الصيحة حتى كان يقبل لأي المرض يعجب حتى بعصاة حتى يعهدها من قبل كان كما أراد لأستشفي بن نعمي عالجه من دوره تبيه في ه حتى كان يحمره من قبل جمع عصبت ربع ساعة ، وقت يعدي ، وجاءني ذلك الجلاد بعد يومين فرحاً مستبشراً يشكره ما يوجه نعم !! بالكي حتى تكيل به الناس سبكان به عليك ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ يأيها الناس حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا .

ثم عد سيد ه ذلك الخارس عصب عند أهدى عدية من أسعد ما حيت عند أحذق ذات يوم لأ توجأ لصلاة الفجر وأنه عزيل بن العير عزيل في يدي يوضع بها بصلة صغيرة وقال لي خذ عدة لتأكله بجانب عين وزوجتي ، أم بعينة ، يزعموك ألا ترمي لشرها في العير يوم من المسوعات . عسى سبحان الله !! فشر عصي من المسوعات !! وقتل الأبرياء ، وتعيب الناس وجلدهم بمحبهم ويعمهم في زنازين عصبه ده ، وصليبهم فوق سور سجن في رعس ، وتشريد عائلاتهم وبيع الأسرى ، وإطفاء احتقب سجاير في ملابس العفة ، كل هذا لجي من المسوعات ؟!! قلت له أصدق ياعم سيد فسوف أكتبها بقشرها .

رُبَّ : بعض من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

صبرنا إلى أن مل من صبرنا الصبر ... وقلنا غدا أو بعده ينجلي الأمر
فكان غدا عمراً ولو مد حبله ... لقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر
وقلنا عسى أن يدرك الحق أهله ... فضاعت عسى من لا ولا طعمها مر
عجبت لمصر يهضم الليث حقه ... وتفخر بالستور ويحك يا مصر !!
سلام على الدنيا سلام على الورى ... إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر

كان من أشد الأشياء لنا إيلاماً أن لم يكن معنا كتاب حتى نعمل ما علينا أحسنا وحسبنا من كتب خرجنا من ديارنا أو أخرجنا منها وقيل لنا يومها : إنكم لن تتأخروا خمس دقائق وكانت الكتب التي وقد ملأتها الهوام ومنها حشرة القمل وأوشكت العورات أن تكشف ولم يكن معنا إبرة ولا خيط فكنا بفضل أكثر وثقنا لدعوة الله بدعوتين عسى النبي ﷺ أصحابه يوم الخندق وعسى قريظة بعد ما اشتد الكرب ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾ قالوا يارسول الله هذا ما قول؟ قال لهم قولوا « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » .

قضينا في سجن خلعة ثلاثة أشهر مضت السنة فيها كأنها شهر ومضى يوم كأنه دهر كنا نرمي بنفسي متثاقلاً بطيئاً كأن أقدامه سلسلة من الحمال ولكل منا كيس يحتفظ على نفسه فيه أنا كنا مجموعة تزيد عن العشرة في مكان واحد لكي كان الأنين يبدو يبعث من أصوات المعذبين يجمع اللوم عما ويجعل الطعام ذا غصة كأنه الضريع أو الزقوم أو الحنظل مكان دست كنه يحز في النفوس أصعب إلى هذا ما كنا نعانيه من الانشغال على أولادنا وأهلنا ولا عن عليها العذاب البدني فمن الصعب أن يهون العذاب النفسي ولكن الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر وسبحان من قال ﴿ ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ كان القرآن ما خير جليس وأنفس أنيس وأعظم صديق وأكرم رفيق فمن أراد أن يكلم الله فليدخل في الصلاة ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ، فمن أراد مؤنساً فليكلمه ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد العبر فالقناعة تكفيه ، ومن أراد الموعظة فليكلمه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه نعم كان القرآن ما شرحاً ومعللاً .

وخير جليس لا يمل حديثه ... ولرداده لزداد فيه تجملاً
وخير الفتى يرتاع في ظلماته ... من القبر يلقاه سمعاً متهللا

سالك يهبه مقبلا وروضة ومن أجله في ذروة العز يجتلي
يناشد في إرضائه لحبيبه وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيأيها القارىء به متمسكاً مجلاً له في كل حال مبجلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما ملابس أنواع من التاج والحلي

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ نعم إنه الروح الذي يحي الموات والنور الذي يذيب غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

انتهى الجزء الثاني من كتاب

« قصة أيامي »

ويليه الجزء الثالث بإذن الله مبتدئاً به تحت عنوان :

« من قمعة إلى طرة »

من القلعـــة إلى طـرة

قبل الرحيل إلى سجن طرة لابد أن أذكر تلك الواقعة التي تعتبر من المضحكات المبكيات، وقد قالوا: إنا من شر المصائب ما يضحك. فوجئت وأنا في معتقل القلعة بوجود طالب قد اعتقل وهو أحد طلبة كلية الآداب جامعة عين شمس، وكان مندوب الطلبة في دعوة الحاضرين بكليات جامعة، وهو الذي كان قد دعاني مرتين لأحاضر في طلبة جامعة عين شمس، ولما لقيته بالمعتقل سألته السؤال التقليدي الذي يتردد على ألسنة المعتقلين عندما يلقى بعضهم بعضا. قلت: من الذي جاء بك يا عبد الفتاح؟ وما التهمة التي وجهت إليك؟

وكانت الإجابة تدعو إلى الأسى!! وفي نفس الوقت تدعو إلى الضحك!! قال: عندما دعوت المشايخ لإحياء حفلتنا استدعيت للسؤال في إحدى الجهات المختصة بالأمن وقالوا: إنك قد كلفت بإحياء حفلة ترفيهية لخلف الأعباء عن الطلاب ولم تكلف بإقامة مأتم وأحزان!

قلت له: فماذا كانت إجابتك؟ قال: أجبرتهم بأنني قد ذهبت إلى بعض نجوم الفكاهة والطرب فطلبوا مني مبلغا من المال لم يكن في الصندوق نصفه ولا ربعه، فلما ناموت المشايخ لم يطلبوا مني شيئا، فأقمت الحفل على خير ما يرام وأنفقنا المبلغ الذي كان سيعطى إلى نجوم الفكاهة والطرب للطلبة المحتاجين، والذين لا يجدون ما ينفقونه في الكساء والغذاء والكتب، فأي الوجهتين خير؟

فكان الجواب: إذن فاذهب إلى المشايخ الذين دعوتهم!! أتدري أين هم؟! إنهم هناك في سجن القلعة وبين غمضة عين وانتباهتها رأيت نفسي وراء الأسوار!! فنصحته بالصبر وتفويض الأمر إلى الله، وذكرته بقوله جل شأنه: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾

تراءت الأنباء بقرب رحيلنا من هذا المكان ، وفي البعض إفراجاً فسرت البهجة في النفوس ؛ فإن الإفراج للسجين كالإحياء للميت ، لأن السجن مقبرة الأحياء ، ومنسأة الأعداء ومفرق الأحباء ، ومحزن الأصدقاء ، لكني لم أشعر بهذه البهجة ، فقد زارني أحد الصالحين في المنام ، وقال لي اصبر واحتسب ولا تجزع ؛ فإنه ما زال هناك قضاء سيفد ، وصلينا الفجر ، ونودي على أسمائنا ، وقال المنادي : من سمع اسمه فليحضر متاعه ، ويستعد لركوب السيارة ، ولم يكن لدينا متاع سوى ثيابنا التي بنا وقال فيها حافظ إبراهيم :

أبلى الشقاء جديده ... فتقطعت منه الأظافر
فانظر إلى الثوابه ... لم يبق منها ما يظاهر
هو لا يريد فراقها ... خوف الفوارس والفواجر
لكنها قد فارقته ... فراق معذور وعاذر
إني أعد ضلوعه ... من تحتها والليل عاكر
أبصرت هيكل عظمه ... فذكرت سكان المقابر
فكأنه هو ميت ... أحياه عيسى بعد عاذر
قد كاد يهدمه النسيم ... وتكاد تلمزه الأعاصر
وتراه من فرط الهزال ... تكاد تخنقه الخواطر

كانت هذه أحوالنا من ثياب بالية ، وهزال ، وضعف في الأجسام وعاهة مرضها العذاب ، والضعف ، وجفوة النوم ، وسوء التغذية ، والتهوية ، وسألت نفسي بعض الأمر بالرحيل : لماذا سجنت ؟ ولماذا لم يفرج عني من هذا المكان ؟ وساق الرحيل إلى سجن حر ؟ وطريقي ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟ وحتى الآن ما زلت ألتمس من يجيب عن هذا السؤال ؟ لماذا سجنت ؟ وما هي التهمة التي وجهت إلي ؟ وأي ذنب اقترفت ؟

إلى سجن طرة

قطعت بنا السيارة الطريق من القلعة إلى سجن طرة ، تحت حراسة مشددة من جنود الصامتين الذين لا يردون على سؤال منا ، وقد دارت في نفوسنا أسئلة كثيرة كان منها : إلى أين ؟ وإلى متى ؟ ولماذا ؟ وكان الجواب عنها علمه عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . ونزلنا في ساحة السجن الرهيب حيث وقفنا ساعات طويلة ننتظر ما سيفعل بنا ، وأمر بخلع ثيابنا لتلبس ثياب السجن ، وحمدنا الله فقد بليت ثياب التي كانت علينا من يوم اعتقالنا ولبسنا ثياب السجن ، وقد مر في نفسي حالة ذلك الشيخ الذي بلغ من السن ما يزيد عن الثمانين عاما ، وهو الشيخ ، محمد عوض ، كان يعمل ناظرا في إحدى المدارس

السويس ، وكان رجلا قد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً ، وقد بلغ من الكبر عتيا ، جيء به كما جيء بالألوف من أمثاله من غير ذنب أو جناية أو جنحة أو مخالفة ، لكنها لغة الذئب الذي قال للحمل لقد عكرت على الماء .

صدقت يا رسول الله يا من رويت عن ربك في الحديث القدسي الجليل : « **اشتد غضبي على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيري واشتد غضبي على من وجد مظلوماً فقرر أن ينصره فلم ينصره** » . حزنت كثيرا لحال ذلك الشيخ المهيب الذي جيء له بكثير من بدل السجن فكانت كلها فضفاضة لا يستطيع أن يلبسها لأنه ناحل الجسم كأنه يقول بلسان حال ما قاله شاعر قبله :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

لكنهم لم يرحموا شيخا كبيرا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ضعيفة ولا عجوزاً فانيا ، ولا مصابا واهيا ، وأخيراً أمر بترحيلنا وتوزيعنا على العنابر ، لقد سرنا في الطرقة المؤدية إلى العنابر وسمعنا أصواتا عالية وصحيحا وعجيجا فعلمنا أن بالسجن جموعاً من المعتقلين ولبست أصواتهم على كثرتهم ولما أراد الحارس المكلف بتوزيعنا فتح باب العنبر وأدخلنا واحدا بعد الآخر وهو يقول متهكما ساخرا : هذا أخوكم في الله !! ولما جاء دور « الشيخ محمد عوض » قدمه قائلا : هذا جدكم في الله !! إنها سخرية برجل كان يجب أن يحترم لسنه وعلمه وفضله وضعفه ، فالراحمون يرحمهم الرحمن « **ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » . « **ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر** » . « **ومن لا يرحم لا يُرحم** » . « **ولا تنزع الرحمة إلا من شقي** » ودخلنا العنبر وما فيه من اسمه شيء ، فهو من أسماء الأضداد كما تسمى الصحراء بالمفازة ، وما هو بعنبر ، بل إني أقسم بالله غير حانث على أنه لا يليق حتى بالدواب !! الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، نعم مفقود لأن الحضور فيه موت بطيء ، والخروج منه موت بطيء ، فما نجا من المرض إلا القليل ، وليس مرضا عابراً أو خفيفا إنما أمراض أقلها الربو والروماتزم ، يشعر الإنسان عندما يدخل هذه الأماكن بالسآمة والملل والكلال ، فسوء التهوية وسوء التغذية ، والظلام الدامس بالليل والنهار ، والحر الشديد اللافح ، وإغلاق الباب ، أضف إلى ذلك هذه المأساة الكبرى ، لم يكن هناك دورة للمياه تصرف الفضلات خارج المكان ، إنما كان هناك بجانب العنبر صفيحة على جانبيها قطعتان من الخشب وسط بول كثير تنبعث منه رائحة تركم الأنوف ، وتعمي الأبصار ، وتملأ الرئتين وباء ووبالا ، والويل كل الويل لمن زلت قدمه فسقط في تلك الصفيحة ، لضعفه أو لكبر سنه ، أو لضعف بصره ، إنه حينئذ يرى من المتاعب والمصاعب ما لا تتوجه العبارة ، فهو إما أن يقع في الغائط حتى منتصف جسمه أو يقف في حر من

البول إنه في كلا الحالين ضائق الصدر ، معتل الوجدان ، سقيم النفس ، وكم كنت ألاقي من العناء ما ألاقي عندما أريد قضاء الحاجة ، بما كان يدفعني إلى أن أقلل من الطعام والشراب ، وكثيرا ما كنت أصوم ، وأنا أعلم أنه لا غذاء في الإفطار ، وما هي إلا لقيمات بقطعة جبن هي عبارة عن مسح متجمد ، كأنها قطعت من حبل في طلسمات العصور الوسطى .

لقد ضاقت بنا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا ، وعلمنا أن ليس لها من دون الله كاشفة ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فماذا نصنع ؟ السجن رهيب وقد انقطعت صلتنا تماما بالعالم الخارجي ، فلا تصلنا أخبار عن الدنيا وما فيها ، وأصبحنا كما يقول القائل على لسان أحد السجناء :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلا نحن بالأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

نماذج مختلفة

كان كل عنبر من عنابر سجن طرة يشتمل على نماذج مختلفة الأسنان والثقافة والعمل ، لكن جمع بينها جميعا وحدة العقيدة وسمو الغاية وشرف الهدف ، فهذا شيخ قد بلغ من الكبر عتيا ، وذاك شاب فتى ، وذلك في ميعة الصبا ، وعصر العمر الأخضر ، جاءوا من بلاد شتى من أسوان .. إلى الاسكندرية .. رأيت شيوخاً قد دخلوا السجن ظلوا صائمين حتى جاءهم الفرج من الله لم يفطروا إلا أيام العيد ، ورأيت شبابا في ريعان أيامهم رأيتهم إذا جن الليل عليهم تجافت جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . شباب مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن الباطل أرجلهم ، نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه نعم ! لقد أحيوا الليل بالصلاة والقرآن .

سمعت أحدهم وقد قرأ في ركعة واحدة جزء « تبارك الذي بيده الملك » وفي الركعة الثانية « جزء عم يتساءلون » .

سمعت بعضهم يدعو الله فيقول : اللهم لا تخرجني من هذا المكان حتى أتم حفظ القرآن الكريم . واستجاب الله له فلبث في السجن عامين حفظ فيهما القرآن الكريم حفظا جيدا ، وإن كنا نسأل الله العافية إلا أنه رأى في السجن خلوة فجعل منه غار حراء ، تعبداً ، وتبتلا ومناجاة وصلاة وقرآنا كريما ، رأيت في السجن أساتذة جامعات كما رأيت المحامين والمهندسين والأطباء ، كما التقيت بالطلبة والفلاحين والعمال لقد جاءوا جميعا تحت لافتة

كتب عليها « الإخوان المسلمون » أو « النشاط الديني » أو « النشاط المعادي » أو « الثورة مضادة » أيا كان « فإن الظلم مرتعه وخيم » ، و« هو ظلمات يوم القيامة » . ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ .

يا نائم الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يأتين أسحارا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا واضمحل جبال

كان الحر يشتد ، ونسبة الرطوبة ترتفع ، فأدمت العنبر الذي لا يصلح اصطبلا لمحبوس ، ولا حظيرة للمواشي كان يضم بين جدرانه مائة وعشرين . وكانت الجدران ذات لون أسود ، والأرض حفر وثعاريق ، وقد تلاصقت الأجسام من شدة الزحام ، وانعقد في هواء العنبر بخار كثيف من التنفس ، فإذا كان كل إنسان يتنفس في الدقيقة ست عشرة مرة فما بالك بمائة وعشرين يتنفسون في مكان قد أحكم إغلاقه . وهو في نفس الوقت محتوى على حرارة من عرق الواقف و عائط والروائح الحية !! تخيل كيف تتباين وضع الأجساد على تقلب مضاجع بائسة ، لعل أحدهم في ليالي الصيف القائظة يحصل على شيء من الهواء الذي ملأ الله به جنبات الأرض لكن ذلك كان عليه حراما ، وكانت المأساة الكبرى عندما يكشف الثلث منا عمل صفيحة البراز للإلقاء بها في مكان خارج العنبر . كانت هذه فرصة لمن يأتي عليه الدور بأن يستنشق شيئا من هواء ، لكنها وهما جميعا تلك الصفيحة كانا يحفظ من في وسط العنبر ما يثير في النفس الغثيان ، وفي الكبد المرارة ، كانت مأساة ما بعدها مأساة .. لا هواء ولا ماء .. إلا ما يسد الرمق ، ولا نوم حيث لا فراش ولا غطاء إلا سفليل الذي لا يمنع ألم الأرض ، ولا شدة البرد ، ولا طعام إلا كطعام الأنعام .. كالصريع والرفوه والعفن والعصيدة ، والظلمة قاتمة ، والفراغ قاتل وأصحاب الفكر قد لجمهم فكرهم ، والكفايات وأساتذة العلوم والمعرفة أصبحوا يلتمسون من الحارس أن يفتح باب العنبر ولو لدقائق قليلة ، والمرضى يئنون ، أو يشهقون ، فلا يعودون ، وآخر لا يتم ، والعرق منضح ، والثياب في حاجة إلى تنشيف ، وارتفاع درجة الرطوبة لا تساعد على تجفيف العرق !! لقد ضاقت القلوب الحناجر !! وضاقت عليها الأرض بما رحبت !!

دروس العصـــــر

لما ضاقت بنا الأرض ، والظلم ضارب أطنابه ، والقلوب أصبحت أشد قسوة من الحجارة ، رأينا أن نخفف من وطأة الأحداث فاقترحنا أن يتحدث من يستطيع الحديث إلى إخوانه بعد صلاة العصر من كل يوم ، فليحاضرنا الأطباء في الطب ، والأدباء في الأدب ، والمهندسون في الهندسة ، والعلماء في الإسلام حتى لا يضيع العمر في هذا الجمود ، وحتى تقضى الوقت في شيء مما يخفف الأعباء وقد كلفت بإلقاء درس بعد العصر ، فاخترت التفسير واخترت من القرآن ما يناسب المقام فكان حديثي يدور في سورة يوسف حول ما لقيه الصديق ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام من شدائد وعناء !! وهو الذي دخل السجن مظلوماً بكيدة من مكايد النساء ، وكيف قام القميص بمواقف مشهودة في السورة ، فهذا قميص الجفاء : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ وقميص الإبراء : ﴿ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ وقميص الشفاء : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ . ثم تحدثت عن دور الرؤيا في حياة السجين وحقا لم تكن هناك وسيلة اتصال لنا بالخارج إلا الرؤيا الصادقة وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » وقد علمنا الصادق المعصوم أدب الرؤيا حيث قال : « إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فليحمد الله عليها وليحدث بها . وإذا رأى غير ذلك مما يكره فليستعذ بالله منها ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لا تضره » . وقد جاء رجل إلى بيت الإمام محمد بن سيرين ليقص عليه رؤيا فأخبرته الجارية بأن الإمام نائم فغضب وقال : ولكني أريده هو فقالت له : قص على رؤياك ، وسأعبرها لك . فقال : رأيت كأني أصعد السلم فانكسر بي فسقطت من فوقه فمت . فقالت له : إن صدقت رؤياك فستموت ، فاهتاج غضباً وصعد السلم ليوقظ الإمام من نومه ، فانكسر به السلم فسقط فمات ، فاستيقظ الإمام على هذا الصوت صوت سقوط السلم ، وارتطام الرجل بالأرض ، فسأل الجارية فقصت عليه رؤياه فقال الإمام متعجبا : سبحان الله الرؤيا على جناح طائر متى قص وقع . وسبحان ربي لقد اشتملت سورة يوسف على أنواع كثيرة من الرؤى بسأم العلي العظيم برؤيا يوسف :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ ثم ذكر مولانا تبارك وتعالى بعد ذلك اثنين من الرؤى فصهما فتيان دخلا مع يوسف السجن : ﴿ قال أحدهما : إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ ثم ذكر مولانا جل ثناؤه رؤيا الملك التي كانت سببا أراده الله تعالى لإنقاذ أهل مصر من أزمة اقتصادية حادة ، ومجاعة مدمرة ، وكانت سببا في أن يقول الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي قال تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات ثمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ فتأمل معي كيف قامت الرؤيا في سورة يوسف في شتى المقامات ومختلف المناسبات كيف قامت بتلك الدلالات وهاتيك الإشارات وكيف كانت سببا في أن يقول الملك ليوسف : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وكيف كانت عاقبة الصبر والصابرين قالوا : ﴿ أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ثم انظر كيف جمع الله الشمل ، ورأب الصدع ، ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ نعم ! لقد كانت الرؤيا في حياتنا لها مبناها ومعناها ومرماها فقد كنت داخل السجن أقضي الساعات طوال كل يوم أستمع إلى رؤى الإخوة وأقوم بتعبيرها ، والرؤيا لا تقص إلا على حبيب أو لبيب ، وما زلت أذكر هذه الظاهرة الغريبة في الرؤيا فكثيرا ما كنت أرى أبي رحمه الله تعالى في المنام جالسا معي لا يفارقني إلا عندما أقوم استعداداً لصلاة الفجر ، وكأن جالسا قد عز على الأموات فجاءوا يقفون بجانبنا مدماً بعد أن قست قلوب الأحياء وقدت من الصخور !!

رمضـــان في السجـــن

مضت شهور الصيف لما فيها من المآسي والمعاناة والشدائد والمحن والفتن وكان على رأس تلك المآسي ما أصبنا به – أعني الكثير من المسجونين – بالأمراض الجلدية التي سرت في صفوفنا سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء ، وكان ذلك ناتجا عن منع الماء عنا مما كان يدفعنا كثيرا إلى استعمال قطرات الماء في الشرب ، ونستعمل التيمم لتؤدي الصلاة . وقد لطف الله بي فعافاني من هذه الأمراض الجلدية التي كان المرضى بها يعزلون في مكان بعيد . وقد علم الله تعالى أن معي في العنبر إخوة يقومون على خدمتي . فلو أني عزلت مع الذين عزلوا لشق ذلك على نفسي : ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ . كذلك كان من الأحداث الجسام التي وقعت في صيف السجن ذلك الخبر الذي تعلمنا أن

يذيعوه علينا بالمذياع غداة تمّ تنفيذ حكم الإعدام فى الشهداء الثلاثة : « سيد قطب » و« عبد الفتاح إسماعيل » و« محمد يوسف هواش » . ولن أنسى صيحة هذا اليوم وقد أذاعت النبأ إحدى المذيعات وكأنها تزف نبأ انتصار الجيش على إسرائيل ، وكأننا استعدنا أرض فلسطين المقدسة .. ومما زاد الأمر فى النفوس أنها بعد إذاعة النبأ قالت : والآن نستمع إلى أغنية بسيس لو !!

إلى هذا الحد بلغت الشماتة بقوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ونسى هؤلاء أو تناسوا أن هؤلاء الذين تم تنفيذ الإعدام فيهم أحياء عند ربهم يرزقون . قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله يوم استشهد أبوه يوم أحد : « يا جابر إن الله تعالى كلّم أباك كفاحا (أى بدون حجاب) . وقال له : يا عبد الله تمنّ علىّ . قال : يارب أتمنى أن أعود إلى الدنيا فأحبر إخوانى بما أنا فيه من النعيم المقيم ثم أقتل فيك . قال له الله : لقد حقّ القول منى أنهم إليها لا يُرجعون . قال : يارب فمن يُخبر إخوانى ؟ قال الله : أنا أخبرهم فأرسل الله جبريل بقوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ » .

إن هؤلاء النفر الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام فجر التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٦ قوم قالوا كلمة حق عند سلطان جائر ، فهم بين حمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بن أبى طالب . لقد أمروا هذا السلطان الجائر بالمعروف ونهوه عن المنكر فقتلهم بعدما عضّهم بنابه ، وصبّ عليهم سوط عذابه ، لقد جرّعهم كئوس الثكيل ، وأذاقهم من العذاب ما لو صُبّ على الجبال لهدّه هداً . إن هؤلاء الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام يقول فيهم تبارك اسمه : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء ﴾ ويقول فى الظلمة الذين أوقعوا بهم تلك المقربة : ﴿ ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ .

وبينما الأحداث الجسام تتوالى والهم والغم والنصب والوصب والحزن والأذى تنتظم سلكا واحدا ، وقد بلغت القلوب الحناجر وابتُلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، كان ربك ينزل برد السكينة فى القلوب . كلما اشتدت الخطوب وادلهمت المحن ، فكنت تسمع بالعنابر دويا بالقرآن كدوى النحل . فسبحانك ربى يا من قلت وقولك الحق : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾ . ونزلا السكينة فى قلوب المؤمنين قد تجمدت العواقب ومن ثمّ ترى السكينة فى قلوب المؤمنين تُذكر فى مواطن الشدة ، قرأ قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد

نصره الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين . إذ هما في الغار . إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ﴾ . وقرأ قوله جل جلاله : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ .

ثم لقد وقف الصديق المعصوم في حومة الوغى وساحات القتال في جموع مشركين . وقف زمجر زمجرة الضيغم في بصول الغاب ينادي بأعلى صوته : « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » .

سيدي أبو القاسم يا رسول الله :

أنت الذي قاد الجيوش محطما ... عهد الضلال وأدبت السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا ... سنن الشريعة فاونقوا سعداء
سعدت بطلعتك السماوات العلا ... والأرض صارت جنة خضراء

وقرأ معي قول الله عز وجل : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ ثم اقرأ قوله عز وجل : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما » .

سبحان من يقول للشيء كن فيكون . وسبحان من خشعت الأصوات لعظمة ملكوته . وعنت الوجوه لجلال جبروته . حي العطاء وهي رحيم . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . تنزه عن الشريك في ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية . واحد لا من قلة . وموجود لا من عدة . حي في شيء فاقه به . وكل شيء خاشع له . رضا كل ملوم . وغنى كل ذليل وعضد كل فقير . وقوة كل ضعيف . وملجأ كل ملهوف . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره . ومن عاش فعليه رزقه . ومن مات فإليه منقلبه عالما بظهر . وبطن مخبر . وقبر مقبور . قائما بلا عمد . وراقا بلا أمد . لا يشغله سائل ولا يشغله سائل .

من لطف الله تعالى ومن منه في كرمه أنه كلما اشتد الكرب هان . وأقرب ساعات بين يعجز أشد ساعات بين ظلمة . لقد ضاق البشير وأنا في سجن صرة من إدارة السجن جعل بين يشتري موعد خلاء قد تركته حتى في بعض مه لأربعة أشهر . وقد مللت هذه ... في رأيه كما كفى ... عنه وبين شقيقي أكثر من ... يحمل طعاما ... وقد

كفاه الله تعالى جهالا يهم به على باب السجن ويلقى وراءه هذا الباب الحديدى وهى وراء القضبان سألته : من هذا ؟ فقال : إنه ابنك سيد . والرؤى تُعبر بالإشارات التى تحملها الأسماء . فرؤية من يسمى ياسر أو سهيل أو مفتاح .. كل هذه الأسماء تعطى معنى اليسر والسهولة والفتح هكذا علمنا رسول الله ﷺ فى تأويل الرؤى فقد قال له الصحابة ذات يوم : لقد رأى أحدنا أننا نأكل رطبا فى بيت عقبة منه لهم . « لقد طاب لكم الأمر والعقبى لكم » . وقد كان ﷺ يتفاءل بالأسماء .. لما جاءه سهيل بن عمرو مندوبا عن المشركين يوم الحديبية قال له الرسول . « ما اسمك ؟ قال له : سهيل بن عمرو قال له الصادق المعصوم : الأمر سهيل إن شاء الله » .

ولقد تفاءلت باسم سيد . قلت : لعله سيد من قال ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ . ولقد تم تأويل هذه الرؤيا عندما قضى فى السجن بعد مولد هذا الغلام أربعة عشر شهرا . وجاء يزورنى مع أمه وأخيه . ولن أنسى يوم أن خرج من بين ذراعى عندما انتهى وقت الزيارة ، وكان للزائرين دقيقة . وقلت له ودعه : أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه .

ولقد يجمع الله الشهيرين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

رؤيـــا قبـــل رمضـــان

كان الفلك يتحرك والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، والليل والنهار يتعاقبان ، إذ رأيت فى المنام كأنى جالس بجانبى من عرفه بجوار المكان فجاء إنسان وبيده عدية ، فقطع الحبلين وأطلق الشعر من عقاله . فصحت أن إطلاق سراحى من السجن أمامه عشرة ، إذا ما مرا بسلام جاء الفرج من الله . لكنى لم أكن أدرى ما هاتان العقبتان ؟ ما نوعهما ؟ وما حقيقتهما ؟ كان هذا الحادث على أبواب شهر رمضان المعظم ، وجاء رمضان وفُتحت أبواب الجنة . وغُلّت أبواب النار . وسُلسلت الشياطين لكى شياطين الإنس الذين يتحكمون فيها ، ويجعلون ظهورنا ، وبعدوها عنا كما يُسلسلوا . لقد كنا نتوقع أن مجىء رمضان سيحدث فى قلوبهم ألوانا من الرحمة ، ونوع من الشفقة فيعاملوا معاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، لكن كان التوقع فى غير موضعه :

ولا ترج السماحة من بخيل ... فما فى النار للظمآن ماء

أو كما قال الآخر :

ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

كنا نتوقع من هؤلاء أن يسمحوا لنا بالرسائل إلى أهلنا وأن يفتحوا باب الزيارات لنطمئن على ذويها ، ونقف على أخبارهم . ولكن :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

إن رمضان كما عرفناه في الإسلام خمسة أحرف : الراء رحمة ، والميم مغفرة ، والضاد ضمان لجنة ، والألف أمان من النار ، والنون نور من الكريم الغفار . لكن هؤلاء الذين قاموا على شأننا لو وزعت قسوة قلب واحد منهم على أهل الأرض ما بقي للرحمة سبيل إلى قلب واحد من بني آدم .

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضا عيانا

صدق الله تعالى إذ وصف هؤلاء بأنهم أضل من الأنعام فقال سبحانه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

نعم بل هم أضل :

أسمعت بالإنسان يُنفخ بطنه حتى يُرى في هيئة البالون
أرأيت للإنسان يُوضع رأسه في الطوق حتى يُبتلى بجنون
أعلمت بالمظلوم يُلهب ظهره حتى يقول أنا المسيء خذولي
اسأل ثرى الحربي أو جدرانه كم من قتيل تحتها وطعين
من ظنّ قانونا هناك فإنما قانونهم هو « حمزة البسيوني »

كنا نتوقع أن هؤلاء في رمضان سيخشون الواحد الديّان الذي يأمر ملكا ينادي في رمضان : « يا باغي الخير أبشر . يا باغي الشر أقصر » ولكن هؤلاء لا يسمعون ولو سمعوا لا يستجيبون والحكم لله العليّ الكبير ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾

الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره ومن اعتمد على الله لا تزل قدمه ولا يضل سعيه ولا يضيع سؤله .

إلـــى أيـــن ؟

ستعددنا للرحيل بعدما صلينا الفجر ، ولكنهم جمعونا في فناء السجن ، وكان يوما عاصفا تحمل رياحه الهوج الرمال والغبار وكأن الطبيعة التي خلقها الله تعالى قد احتجت على هذا الظلم المبين ، وظللنا واقفين في هذا الجو المكفهر ، وفي هذا العراء حتى بعد الظهر ، ثم جيء بسيارة الترحيل ، ذات المقاعد الخشبية الخشنة فحشرنا فيها حشر الأنعام . إنهم قوم لا يعرفون للإنسان كرامة ولا للرجال قدرا ولا لكبار السن وقارا ولا للعلم كرامة . إنه ليحز في نفسي كثيرا أن أرى هؤلاء الناس الذين داسوا بأحذيتهم الغليظة كل قيمة من القيم ، وحطموا المثل فأصبحت المعايير عندهم منكوسة ، وصارت المثل في خيالهم المريض منحوسة ، وأصبحت معايير الأمور لديهم معكوسة . لقد انتهكوا كل حرمة ، واستحلوا كل عرض ، لأنهم مسخوا ، فظنوا الحياة كلها مسخا شائها :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

انطلقت بنا السيارة ونحن يلفنا صمت أعمق من صمت المقابر ، وعلامات الاستفهام تصرخ في وجوهنا تريد أن تقول هؤلاء الجلادين : فأين تذهبون ؟ وعلامات التعجب تصيح : أي ذنب جنيناه نستحق عليه كل هذا ولمصلحة من هذا ؟ ولكن سرعان ما طاشت تلك العلامات أمام حقيقة تقول : إنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وويل للإنسان من الإنسان **﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾** .

أيا كانت الجهة التي سنتجه إليها فإنها في ملك الله ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم . فنحن أينما كنا فالله معنا : **﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾** . واستقربنا المقام أمام أحد السجون المشهورة في مصر . إنه « أبو زعبل » ونزلنا هناك وكان النهار قصيرا ، وأوشكت الشمس الغاربة أن تطبع قبلة الوداع على السحاب فتكسوه ثوب الحياء الأحمر . كان اليوم يوما عبوسا قمطريرا خيم الحزن فيه على النفوس وزاد من أسانا وأسفنا أنه ما كان ينبغي في بلد الإسلام والأزهر أن تنزل كل هذه النكبات على رءوس المسلمين . ودخلنا أحد العنابر ولم يكن يتسع لهذا العدد ، فقام بعض المهندسين المعتقلين بتوزيعنا على عدد البلاط بحيث إننا

تلاصقنا لو أراد أحدنا أن يغير جنبه الأيمن إلى الأيسر لا يستطيع إلا إذا جلس أولا . ثم يتحول إلى الجانب الآخر . ولست أبالغ إنما أكرس الحقيقة إذا ما قلت إن بعض الأفراد لم يكن لهم مكان فاضطروا إلى أن يناموا فى دورة المياه ، وكان بها مرحاض فكان كل واحد منهما يضع جسمه داخل المرحاض ورأسه خارجه . وقد يحتصرك الألم اعتصارا عندما تعلم أنه لم يكن بالسجن طعام تتناوله عند الإفطار ، لولا أن تتاركنا الحق بلطف بره فجاء لنا بعض المعتقلين ببعض كسر الخبز الجاف وبعض حصيات الملح .. كل هذا يجرى على أرض مصر !!

عجبت لمصر تهضم الليث حقه ... وتفخر بالسيور ويحك يا مصر
سلام على الدنيا سلام على الورى ... إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر

وصبيحة اليوم الثانى نُوذِن علينا وعلى المعتقلين جميعا فى هذا السجن ، فوقفنا فى الفناء الفسيح وكل يحمل أمتعته . وكنا ألوفا ، فذكرنى هذا الموقف بصعيد القيامة بعدما تُنشر من القبور : ماذا يُراد بهذا الجمع ؟ إنه جمع يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . إنه يوم يذكرنى بيوم البعث : يلقى الولد والده فيقول له : يا أبت لقد كنت بك بارا وإليك محسنا وعليك مشفقا . فهل أجد لديك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول له : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك . إننى أشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاءً ، وكان حجرى لك غطاءً ، وكان ثدىى لك سقاءً . فهل أجد لديك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول لها : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك . إننى أشكو مما منه تشكين . إنه العجب كل العجب :

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا

إنها المأساة وإن شئت فقل : إنها الملهاة . لماذا جمعنا ؟ قالوا : إنه بلغة السجون : تسكين جديد . ونعم التسكين وقد أصابنا الإعياء واللغوب وكان هذا هو المقصود الأهم : أن تهزم العافية فى الأجسام المتعبة ، لا نوم ولا طعام ولا هواء ، إنه تخطيط لموت بطىء . إنهم علاط الأكباد ، قساة القلوب ، جفاة الأطباع ، قدَّت قلوبهم من حديد ، بل إن الحديد يأنُ عندما تُشبه به قلوبهم ، فإن الحديد قد يلين ، ولكن قلوب هؤلاء لا تلين .

ومرت أيام رمضان ، وأقبل عيد الفطر ، فأثار فى النفوس الحنين إلى الأهل الذين تقطَّعت بهم الأسباب ، وسُمح فى هذا اليوم بفتح الأبواب : أعنى أبواب العنابر الحديدية ، فكان فى ذلك ترويح للنفوس وتخفيف للمعاناة ، فقد تزاورنا وتجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا ، وسُمح لنا أن نحتفل بالعيد ، فقام الأدباء بإلقاء القصائد ، وقام آخرون بأداء بعض التمثيليات الهادفة . ثم بعد ذلك انتهى العيد بما فيه من دمعة وبسمة : دمعة شوق وبسمة رضا

بقضاء الله تعالى وقدره ، فقضاء الله لا يُقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل .
كان هذا السجن – أعني سجن أبي زعبل – أقل سوءاً من سجن طرة ، وذلك لأن عنابره نظيفة ودورات مياهه جارية . فقد بُني خصيصا لنا قبل أن تدخله ، ويوم نزل البنّاءون وسلموه دخلته أول فرقة من المعتقلين الذين لاقوا ما لاقوا من ألوان العذاب التي تقشعر منها الأبدان ، وتشيب من هولها نواصي الولدان . لقد عُلّقوا على سور السجن كما قال فرعون للسحرة الذين آمنوا : ﴿ **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل** ﴾ . بدأ ذلك العذاب من أغسطس ١٩٦٥ إلى أن انتهت التحقيقات – أستغفر الله – بل التلفيقات ، لقد ماوسوا مع هؤلاء الأبرياء ألواناً من العذاب يستحي الشيطان أن يذكرها فاللهم اجعلها في حسناتنا وكفر بها سيئاتنا .

كان المرحلون إلى أبي زعبل يعلمون أنهم جيء بهم ليمكثوا مدة طويلة ، فقد كان هذا السجن يسمى المخزن ، وكان نزلاؤه يسمى المخمصة لشدة ما وقع فيه من العذاب . ولا أستطيع أن أنسى ذلك العالم الجليل الكفيف البصر الشيخ « **عبد الحليم سعفان** » . وكانت تهمته أنه تبرع لأسرة اعتقل عائلها ، فكانت هذه جريمة لا تُغتفر . التقيت به في سجن أبي زعبل ، فسمعته يردد هذه الأبيات :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي ... وصار القارّ كاللبن الحليب
وصار البرُّ مرتع كل حوت ... وصار البحر مرتع كل ذيب

ثم يصمت قليلا ويقول :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

أعدنا أنفسنا لمكث طويل . وكانت يد الله تعمل في الخفاء ، وعلى المؤمن أن يسلم الأمر لله وحده : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ . ﴿ **ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ .

شيء من التيسير

تبارك ربنا وتعالت لقد قلت وقولك الحق : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ وجاء في محكم كتابك : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ . وجاء على لسان رسولك : « **لن يغلب عسر يسرين** » .

تقدمنا إلى قائد السجن بمطالب :

– طالبنا بأن يُسمح لنا بفسحة في إحدى ساعات النهار فسُمح لنا بنصف ساعة ، كنا نلتقي فيها فنتحدث والحديث ذو شجون ، ونمشي طوال هذا الوقت حتى يكون في ذلك رياضة للأجسام التي كادت تتصلب من طول القعود .

– وطالبنا بأن يُسمح لنا بمراسلة الأهل ليرسلوا إلينا بعض النقود لتقوم إدارة السجن بشراء بعض المعلبات والفاكهة والخضر عن طريق ما يسمى بلغة السجون « الكانتين » وسُمح لنا بذلك .

– وطالبنا بأن يُسمح لنا بقراءة الصحف اليومية فأذن لنا .

واستطعنا بذلك أن نكيف حياتنا حتى لا تسأم النفوس من طول المكث وكانت الصحف مرآة تعكس ما يجري في هذا البلد . وكان لها أثر عميق في النفوس لما نعانيه من ظلم وما يرفل فيه غيرنا في النعيم : قوم يُعانيون لأنهم مدوا يد المعونة لأسرة فقدت عائلها حيث رُمي في غياهب السجون وراء القضبان ، وقوم يقضون الليالي الحمراء حول الموائد خضراء يُشار إليهم بالبنان ، وتسير بمفاخرهم الركبان . ما تعاقب الموان واختلف الجديدان قوم تتمرغ النعمة في أعنابهم ويدوسونها بأقدامهم . وآخرون يتجشمون الأوصاب ويتجرعون كئوس العذاب . قوم تهب عليهم النسمات معطرة بالأريج ، وآخرون يلفحهم لفيح الهواجر من فيح جهنم . قوم إذا جنّ عليهم الليل ركبوا فرس النهر يفرحون ويمرحون . وقوم لا يُسمح لهم إلا أن يفترشوا الغبراء ويلتحفوا السماء .

إن الله تعالى صوّر هذا المجتمع أدق صورة في أسمى درجات الدقة ، قال عزّ من قائل : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ .

دعوة إلى وضع المساجد تحت الرقابة

تصور معي كاتبا يجعل قلما مسمرا يكتب فيقول : « راقبوا أولادكم في المساجد » . أيها الكاتب كيف طاوعت لك نفسك وكيف استجاب قلمك أن تكتب هذه العبارة ؟ وكيف تدعو الجماهير إلى أن يضعوا المساجد تحت الرقابة البوليسية ، والمساجد منازل السكينة والرحمة والملائكة . ألم تسمع قول الله تبارك اسمه : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ . كيف طاوعت لك نفسك الأمارة أن تكتب مطالبا بوضع المساجد تحت رقابة

إلا أن يكون ذلك سعيا منك فى خرابها لأن من دخل المساجد وهو يعلم أنه تراقب وبعد الرقابة سيُكتب فيه تقرير يؤدى به إلى عالم النيه فى ظلمات السجون التى تذكر بعصر التفتيش فى ظلمات العصور الوسطى . أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها . أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم فى الدنيا خزى . ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ . كيف تدعو إلى وضع المساجد تحت الرقابة ، وقد قال رب العالمين : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ . وقال فى حقها : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

وكيف يُوضع أهل هذه البيوت التى أذن الله أن تُرفع . كيف يوضعون تحت الرقابة . وقد قال الصادق المصدوم صلوات ربى وسلامه عليه : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » . إن المساجد هى بيوت الله . وقد قال الله فى حديثه القدسى الجليل : « بيوتى فى الأرض المساجد وعمارها زوارها . فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى . وحق على المزور أن يُكرم زائره » .. فكيف يكرم الله زواره فى تلك البيوت وتريد أن تضعهم تحت الرقابة ؟ إن الرقيب الأول هو الله وحده لا شريك له . كنت أود أن تصحح تلك الكلمة التى كُبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا – كنت أود أن تصحح هذه الكلمة الخبيثة فتكتب : راقبوا أولادكم فى المساجد . إن المساجد مهابط الرحمة : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

الظلم إذا دام دمر

أيام بلا شمس وليال بلا قمر . تلك التى صار المعروف فيها منكرا ، والمنكر فيها معروفا . والتى صار شعارها :

صوموا ولا تتكلموا ... إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوّم
إن قيل إن نهاركم ليل ... فقولوا : مظلم
أو قيل هذا شهدكم ... مر فقولوا علقم

نعم لقد أصبح الشعار للمجتمع : ﴿ نافق أو وافق وإلا ففارق ﴾ . وضاعت النصيحة كما ضاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحولت الأمة إلى أشباح تتحرك ومن قيل عنه إنه صاحب مبدأ أو يدعو إلى مبدأ ، فليس مكانه بين الناس ، إنما يُعزل بعيدا عنهم هناك وراء القضبان ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ وكم يقف الإنسان عاجبا مشدوها من شدة العجب عندما يقرأ قول الله تعالى على لسان نبيه صالح وهو يقول لقومه : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ . إنها ذروة المأساة وقمة الملهاة ألا يحب الناس الناصحين حتى يقول الناصح الأمين :

نصحت فلم أفلح وغشوا فأفلحوا فأوقعني نصحي بدار هوان

أصبحت سماء مصر ملبدة بغيوم النفاق والظلم ، فهذا صاحب قلم يسيل مداده سما ناقعا يريد أن ينافق صلاح نصر فيكتب عنه قائلا : « إنه الرجل الذي تكلؤنا عينه بالليل ونحن نيام » ثم يستطرد قائلا : « إنه الرجل الذي بلغ من دقة رقابته أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » . هل هذه العبارة في حاجة إلى تعليق ؟ ألم يخطر على باله آية في كتاب الله تقول : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما في السماوات وما في الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ .. إن الله تعالى هو القيوم وحده ، القائم على شئون عباده . ألم يقرأ قوله جل شأنه : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .. تلك خاصية من خصائص الألوهية والله لا يشرك في حكمه أحد ﴿ والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ ألم يقرأ قوله جلّ شأنه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . ثم ألم يقرأ قول الباري تبارك اسمه : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . ولو كان هذا الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور كما قال صاحب هذا القلم — لو كان كذلك فلِمَ لم يخبرنا بما سوف تقوم به إسرائيل في هزيمة يونيو . سبحانك هذا بهتان عظيم : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .. لقد بلغ النفاق مداه عندما وقف أحد الشعراء ينافق عبد الناصر فيقول :

بشراي إن صلاح الدين قد عاد وأصبحت هذه الأيام أعيادا
أجمال مالك من بين الأنام فتى في الشرق والغرب ممن ينطق الضادّ
لو كان يعبد من بين الأنام فتى كنا لشخصك دون الناس عبادا

جـــرأة خطيـــرة

يارب يارب

ما أحلمك ! ما أكرمك ! ما أصبرك على عبادك ! يقولون عنك ما لا يليق بذاتك من الصاحبة والولد ، ويجحدون فضلك ، وينكرون جميلك ، وأنت ترزقهم ، وتكلؤهم بالليل والنهار ، سبحانك من قائل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ . وتأتى الآية الأخرى فتبين ما هو الكسب الذى لو آخذ الله به عباده لدمر ما فى الأرض وما عليها فيقول سبحانه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ وصدق رسولك إذ يقول : « إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

نعم ! إنها لجرأة خطيرة وجرم فظيع وانحراف شنيع لأحد كبار الجلادين فى السجن الحربى (باستيل مصر) الذى أخذ يلهب بسوطه أحد الضحايا وقد علقه كما يعلق الجزار بهيمته بحيث تكون الرأس إلى أسفل ، وانهال عليه ضربا فاستغاث المظلوم بالله فقال له الجلاد : لو نزل ربك من السماء فقد أعددت له زنزانة لأحبسه حبسا انفراديا ، هكذا إذا نسى الإنسان أصله وجحد ربه حل عليه غضب الله ومن يفعل ذلك فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . إنه يذكرنا بكلمة قالها فرعون مصر وذكر العلى العظيم فى قوله : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ . فاعجب معى يا أخى لهذا الطاغية الذى غره سلطانه فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم وتأمل معى لهذا الذى ظن أن الله سبحانه وتعالى قد تدركه الأبصار ، أو تحويه الأقطار ، أو يؤثر فيه الليل والنهار ، ونسى أو تناسى أنه هو الذى يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير !!

تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، واحد بلا عدد وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناه ولا متكيف ، ولا متلون .

لا يسأل عنه بما لأنه لا يعرف حقيقة الله إلا الله .

وهذا يذكرني بذلك المحتوه الذي دخل على الحاكم ذات يوم في صائف العصر فقال له :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

إن النفاق شجرة خبيثة مرة المذاق اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فحق عليها قول الله تبارك اسمه : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ أمرناهم بالمعروف والعدل والإحسان ففسقوا واستكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . وفرق كبير بين أن يقول الله تعالى : ﴿ ففسقوا ﴾ وبين أن يقول : أن يفسقوا . فلو قال : أمرنا مترفيها أن يفسقوا لكان الأمر هنا بالفسق وهو الخروج عن طاعة الله تعالى وحاشا لله أن يأمر بذلك : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ . أما قوله تعالى : ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا ﴾ فإن الفاء هنا عاطفة على أمرنا . وفي الآية إيجاز بالحذف . وقد قال أهل اللغة : الحذف مالم يعلم جائز . فإذا كنت قد قرأت قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ علمت ما هو المحذوف المعلوم أي أمرناهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى . ثم تأمل كيف جاء العطف بالفاء في ﴿ ففسقوا ﴾ وهي تفيد الترتيب والتعقيب . ولم يأت بثم التي تفيد الترتيب والتراخي ، مما يعطيك لمحة قرآنية عميقة بأن هؤلاء القوم المفسدين قد بلغ من جرأتهم أنهم فسقوا عقب الأمر مباشرة استهزاءً واستكبارا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .

وفي قراءة في تلك الآية : ﴿ أمّرنا مترفيها ﴾ بتشديد الميم في أمّرنا أي جعلنا أمراءها مترفيها ومفسديها . وقد جاء في حيثيات الحكم على أصحاب الشمال قوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ . وجاء في دعاء الصالحين : اللهم ولِّ أمورنا خيارنا ولا تول أمورنا شرارنا .. كان الإمام أبو الفرج بن الجوزي يقول : إني لأظل أتقلب في فراشي طول الليل أبحث عن كلمة أرضي بها الحاكم ولا أغضب بها الله فلا أجد .

وقد أخبر النبي ﷺ عن خطر النفاق فقال : « أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن » .. كما بين لنا صفات المجتمع السليم من المجتمع السقيم فقال : « إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها . وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم . وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها » .

قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه يا أبا بكر بم عرفت ربك ؟ فقال رضوان الله عليه : عرفت ربي برب بلولا ربي ما عرفت ربي . قالوا : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك .

لا يسأل عن الله بمتى كان ؟ لأنه خالق الزمان ﴿ **وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء** ﴾ .

كان الله ولا شيء معه ، استوى على العرش ، والاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون . قيل لعلي كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن .

ولا يسأل عنه سبحانه وتعالى بأين هو سؤال إحاطة ؟ لأنه تعالى خالق المكان .

قالوا : وما خطر ببالك فالله خلاف ذلك . والقول الفصل ما وصف الله به ذاته فقال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

مر الإمام سفيان الثوري بقوم يحتفلون بأحد العلماء فسأل : لماذا الاحتفال ؟ قالوا : لأنه أقام ألف دليل على وجود الله . فقال سفيان والعجب قد أخذ عليه كل مأخذ : ومتى غاب سبحانه حتى يُسأل عن وجوده ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد بوجوده في ملك الله دليل على وجود الله .

الديّـان لا يمـوت

كيف طوّعت هذا الجلاد نفسه أن يتجرأ على الذات الأعلى ؟ نصيح في فناء السجن بصوت منزعج كربه ويقول : إن الله لو نزل من السماء فقد أعددت له هذه الزنزانة . ولكن يزول العجب وتتهاوى علامات الاستفهام عندما نقرأ قوله عزّ وجلّ : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون** ﴾ .

ألم تر كيف فعل ربك بهذا الجلاد الطاغية ؟ لقد جاء اليوم الذي دار الفلك فيه دورته ، وغضب عليه سيده « عبد الناصر » ، فأدخله السجن ليذوق من نفس الكأس المرة التي جرّعها لألوف من الضحايا الأبرياء . وهكذا اقتضت سنة الله تعالى أن من أعان ظالماً

سلطه الله عليه . والظالم وجنوده وأعوانه داخل دائرة المسئولية قال تعالى : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** ﴾ .

فماذا حدث ؟ أفرج عن هذا الجلاد وسافر يوم « عيد الفطر » ليزور أهله ؛ وبينما هو في الطريق الزراعي لا يدري ماذا خبأت له الأقدار . لقد ظنَّ أن الكون يسير وفق هواه ونسي أن في السماء ملكة مكتوب على بابها : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ . خرج عليه في الطريق الزراعي سيارة ذات مقطورة ، فعصفت بسيارته ، فوقع فريسة بين أنيابها ودهست في عنفه أجسام صلبة ، فأخذ يخور كالثور والدماء تنزف منه ، فلم يكن هناك بد من فصل رأسه عن جسده . وهكذا كان القصاص العادل من رب الأرض والسماء ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام** ﴾ .

يا نائم الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وهكذا الدنيا إذا جلست أمام الظالمين أوجلت ، وإذا كشت أوكشت ، وإذا جلت أوجلت ، وكم من ملك رُفعت له علامات ، فلما علا ... مات .

دعـــوة مستجابـــة

اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب .

وإذا رُميت من الزمان بشدة ... وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربـــك إنـــه ... أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب
واحذر من المظلوم سهما صائبا ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب

كان أحد كبار الجلادين في السجن الحربي يمر بنزلاء الزنازين فوجد شيخا كبيرا في زنزانة قد امتلأ نصفها بالماء والبرد قارس ، فقال له شامتا متهكما : كيف حالك ؟ فأجاب ذلك الشيخ : بالحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه . فالها بلسان اليقين ونطق الحق المبين . نعم إنه يحمد الله الذي عافاه مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقد وهبه قلبا ذاكراً ، ولسانا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا .

كان الإمام أحمد بن حنبل في محنته ، يضربه الجلادون بالسياط الحامية ، فكان إذا اشتد به الجلادون ضربا ، ارتسمت ابتسامة الرضا على وجهه ، وتلاميذه من حوله يبكون ، بل وينتحبون . فلما رُفع العذاب عنه سألوه : يا إمامنا لماذا كنت تبتسم ونحن نبكي ؟ فقال

بمنطق الإيمان : إنكم تبكون لأنكم ترون هذا الجلاد ، أما أنا فأبتسم لأنني أرى يد رب العباد .

لقد رأى الإمام أحمد رضي الله عنه رسول الله ﷺ في المنام فقال له : « **يا أحمد ستُبتلى فاصبر يرفع الله ذكرك إلى يوم القيامة** » .

إن كبير الجلادين في السجن الحربي سأل الشيخ الوقور الذي يرتعد من شدة البرد في زنزانة ملىء نصفها بالماء ، سأل شامتا متهكما ساخرا : ادع لنا يا شيخ فنظر إليه الشيخ مشفقا عليه وقال له : أتهزأ بي ؟ قال : ادع الله لنا يا شيخ . فتوجه الشيخ الوقور إلى ربه الكريم ، ودعا الله بدعوة غريبة من نوعها ، قال : **أسأل الله أن يأتي عليك اليوم الذي تتمنى فيه الموت فلا تجده** . ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . فأي ظلم أشد من ظلم هؤلاء ؟ بل إن الحديث الشريف ينطق بصراحة ووضوح فيقول : « **اتق دعوة المظلوم ولو كافرا ، فعليه كفره** » . ويقول : « **دعوة المظلوم لترفع فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويستقبلها الرب تبارك وتعالى ، ويقول لصاحبها : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين** » .

وجاء اليوم الذي نفذ فيه حكم من محكمة العدل الإلهية الكبرى في هذا الأفاك الأثيم ، العتل الزنيم ، الفظ الغليظ ، فأصيب بسرطان في كليته . ولما كان من الشخصيات المرموقة ، طاف بدول أوربا يلتمس العلاج . فكان كما قال الله تعالى : ﴿ **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب** ﴾ .

وعاد من أوربا كما ذهب إليها ، وكان يصرخ فيمن حوله مستعينا بهم وأحيا إياهم أن يضربوه بالنار حتى يستريح من النار في داخله . وكانوا إذا وضعوه على سريره صاح فيهم : أنزلوني لأنام على الأرض ، فيُقال له : إن البرد شديد . فيقول : أنيموني على الأرض مهما كان البرد قارسا فأنا لا أستريح في النوم على السرير . وظلّ هكذا يتجشم الأوصاب ويتجرع كئوس العذاب حتى قضى عليه الموت . صدقت يا سيدي يا رسول الله : « **البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديّان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان** » .. وهكذا استجاب الله دعوة المظلوم ، فجاء على ذلك الظالم ليوم الذي تمنى فيه الموت فلم يجده . وبالكيل الذي تكيل به للناس سيُكال عليك لا راد لما قضى الله ، ولا معقب لحكمه ولا شفاعة في الموت ولا حيلة في الرزق . قال ﷺ : « **من سعى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام** » . فما للقلوب أصبحت لا تخشع ، وما للآذان أصبحت لا تسمع ، وما للأعين أصبحت لا تدمع وما للأجسام أصبحت لا تسجد ولا تركع . فقم سلسل الدموع حزنا ، على هذا الضمير الضائع وقم مزق الضلوع كمدا على هذا الفساد الشائع . والله لو ترحم

الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ، ولاطمأنت الجنوب في المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح مداد الظلام . فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء . واستمع معي إلى ما قاله مبعوث العناية الإلهية صلوات ربي وسلامه عليه : « إنما أنا رحمة مهداة » . ثم « الراحمون يرحمهم الرحمن » . « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » . « من لا يرحم لا يُرحم » .

وتبارك اسم الله وتعالى جده إذ يقول لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وكان الكلب خيرا منه

مر رسول الله ﷺ بجثة قتيل فسأل : من قتل هذا ؟ قالوا : يا رسول الله إنه لص سطا على غنم القوم ، فخرج عليه كلب الغنم فقتله ، فقال الصادق المعصوم : « قتل نفسه وأضاع دينه ، وكان الكلب خيرا منه » .

صدقت يا سيدي يا رسول الله ، ففي الكلب وفاء لصاحبه ، يصون بهذا الوفاء الأمانة ويحافظ على من استرعاه ، وقد يفقد الكثير من الناس تلك المروءة :

مررت على المروءة وهي تبكي ... فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي ... جميعا دون خلق الله ماتوا

جيء ذات يوم وفي صيف ١٩٦٥ ؛ جيء بأحد العلماء المتخصصين في دراسة الكتاب والسنة ، وقد بلغ من الكبر عتيا ، ووضع في قفص حديدي لما أصاب عظامه من الكسور ، فقال قائد الجلادين لزبانيته : ادخلوه زنزانة واحبسوه حبساً انفرادياً وجوعوا له كلباً وثم هو جدير بالذكر أن الكلاب في السجن الحربي كانت تأكل ما لذ وطاب من الطعام بينما الآدميون لا يجدون فتات الموائد وكانت الكلاب مدربة على نهش لحوم البشر فانظر يرعاك الله .. وتأمل ما هي العزة والكرامة التي كان يتغنى بها زعيم البلاد ؟ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ ونفذ الزبانية الأمر وجيء بالشيخ وقد بلغ الوهن منه ما بلغ واشتعل الرأس شيباً وصار فيه دبيب الشيب فهزم العافية في جسده الناعم ودخل الزنزانة وهو لا يدري ماذا يراد به ولكن من كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ لقد اعتقلوا أبناءه من قبله فأرسل التماساً إلى أحد كبار المسئولين يقول فيه أرجو أن تبقى لي أحد أبنائي ليقوم على خدمتي في بيتي فكان رد ذلك المسئول رداً عملياً أرسل إليه من زبانيته من قام بإلقاء القبض عليه وقال له : إن سيادة المشير يقول لك بل

أنت الذى تذهب إليهم فى السجن ليقوموا على خدمتك هناك فاعجب معى إلى أى مدى بلغ إهدار الآدمية وتحطيم الإنسانية فى بنى البشر ؟! وإلى أى حد قست قلوب هؤلاء الجبابرة وأولئك الأباطرة الذين نسوا الله وقالوا من أشد منا قوة ؟! ثم يأبى لنا نحن الإنسان ما أكفره !!.

الشيخ الجليل فى الزنزانة

دخل الشيخ زنزانته وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً ﴾ ثم يقرأ : ﴿ رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين ﴾ واستقبل القبلة وصلى ثلاث ركعات صلاة كيف المؤمن كما أخبر بذلك الصادق المعصوم وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال » فمن أراد أن يكلم الله فليصل ومن أحب أن يكلمه الله فليقرأ القرآن وكانت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه .

وفوجىء الشيخ ببعض الجلادين يدخلون معه كلبا مفترس ضخما ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وأطلقوا عليه ذلك الوحش ونسى الشيخ فى غمرة انشغاله بالصلاة روح يسرى فى قلب المؤمن يصنه بعده عن الدنيا ولا يبالى وقد قال رحمه الله : « إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، موقناً بأن الله مطلع على فإذا سمعت لا أدرى قصد الله أم دعا على ؟! وبعد ساعات من وضع الكلب بجانب الشيخ الذى قد انشغل عن وجوده وقد أعمه بالسان الصلاة والخشوع ، ادهشوا وانتظروا ماذا فعل الكلب بالشيخ ... وذهب بريئة على أن الكلب قد أكل من الشيخ لحمه وعظمه وبقاء عليه فسوف تتصرف معه مكافأة مجزية وهكذا كانت أحوال الناس وعلاقاتهم المنفعة .. المصلحة .. الذلة .. الكسب الرخيص .. الأنانية .. حب الذات .. النفاق .. الكسب .. الخيانة ... أما وصرخات من بعيد : « أنج سعد فقد هلك سعيد » وتطلع من عين بصيرة من بيت الزنزانة يخرجوا الكلب ويعضوا اللحم وبكل كانت المفاجأة تنتظر هذا الشيخ وتعقد ألسنة دهشة وفغرها لقد وجدوا الشيخ ساجداً لله تعالى مستغرقاً فى نور جلال وجمال وتكمل عليه كوكبة تغشاها السكينة والوقار ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها

بضوء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ . نعم :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

ورجعوا الشيخ ساجداً والكلب يحرسه كأنهما كانا على معرفة قديمة وصداقة أصيلة !! وهذه الإيمان قد تمكنت بشاشته من شغاف القلوب لتكاد تجعل المستحيل ممكنا والمنع الأجنح عندها فراد مسبيلا . إنه اليقين في الله والاعتصام بحبله المتين إنه صدق النية والإخلاص .. إنها لغة لا يسلكي القلوب ، لا يفهمها إلا من صفا قلبه وقوى يقينه إن هذا الإيمان بحر عميق ويسير العوام

إن لله عباداً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي سكنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

لقد رجع فرقة من سيدهم وقد انعقدت على رءوسهم هالات ضخمة من الدهشة فقد كان منهم لا أن قبل ذلك بسنوات والشائع وقال لهم : ارجعوا فحرضوا الكلب بجهنم حتى هذا ..... وهمو ذلك ولكن دون جلوى ملكلب وفي لأولياء الله الصالحين والود قيمة عظيمة في القلوب ولها مكانة عظمى بينما بعد الإنسان حرموا هذا القدر العظيم من عند الله لعنهم ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ .

يارب ما أعظمك ! ما أكرمك ! ما أرحمك ! ما أجملك ؟ كل شيء قائم بك ، وكل شيء خاضع لك ، أنت قوة كل ضعيف ، وعز كل ذليل وغنى كل فقير ، ومفرج كل مكروب ، من تكلم سمعت نطقه ، ومن سكت علمت سره ، ومن عاش لعلمك وزنه ، ومن مات فإليك منقلبه يا عظيماً يرجى لكل عظيم

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت الرقيب لكل ما يتوقع

ألست أنت القائل في الحديث القدسي الجميل :

« عبدي أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد ؟ ؟ .

يارب :

حاسبت نفسي لم أجد لي صالحاً ... إلا رجائي رحمة الرحمن
وعددت أفعالي عليّ فلم أجد ... في الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسي في فعالي كلها ... ويحي إذاً من وقفة الديان
يا أيها الإخوان إني راحل ... مهما يطل عمري فإنيّ فاني
يارب إن لم ترضى إلا ذا تقى ... من للمسيء المذنب الحيران ؟!

لقد شكا الزبانية إلى سيدهم صمود الكلب وثبوته وإصراره على موقفه من الشيخ فقال لهم وقد ظل وجهه مسوداً وهو كظيم إذاً فأخرجوا الكلب حتى لا يصاب من رائحة الزنزانة بشيء يؤذيه ونسي هذا أو تناسى أن للقلوب دولة لا يملك مفاتحها إلا الله لقد ظل الشيخ في هذا السجن عاماً خرج بعده مسافراً إلى مملكة الحجاز حيث عاش بها متنقلا بين الحرمين الشريفين وأراد ربك أن يختاره إلى جواره هناك وأن يدفن بأرض الطهر ومنازل الوحي ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ .

إلهي نجنا من كل كرب بهدى المصطفى خير الجميع

وهب لي في مدينته قراراً ورزقاً ثم دفنا بالبقيع

مشهـــد مهيـــب

يذكرني ما حدث لذلك الشيخ الجليل مع زبانية السجن حرى بهذا المشهد المهيب الذي أجراه الله على يدي هذا العالم الجليل القدر « أبي الحسن أحمد بن بنان » وقد دخل على أحمد بن طولون حاكم مصر فأمره ونهاه فغضب الحاكم على العالم متجاهلا قول الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسد فسدت الأمة العلماء والأمراء » .

غضب الحاكم ولم يبق في قوس صبره منزع وبلغ من غضبه بعدما غلى مرجل غيظه وتفجر أنه قال جنده خذوا هذا وادفعوا به إلى أسد جائع وعنقوا عليهما قفصاً حتى لا يبقى من عظامه ولحمه ولا يدر ونفرة الأسد بالعالم الجليل وفي صبيحة اليوم التالي نظر الحراس فوجدوا العالم يجلس في وقار وجلال يذكر الله ويتلو آياته المباركات ووجدوا الأسد الرئبال مطأطأ الرأس في سكينة وتواضع يستمع إلى آي الذكر الحكيم وكيف لا وهو كلام الله جل جلاله ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ ثم كيف لا ومنزل الكتاب سبحانه يقول . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

لقد جيء بالعالم إلى الحاكم وقال له : ما هذا الذي سمعت عنك ؟ قال : العالم وماذا سمعت يا ابن طولون ؟ قال : كيف امتنعت عن الأسد ؟ قال : إن الذي منعني منه هو الذي يقول : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ ويقول : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ قال ابن طولون : فأي شيء كنت تخشى وأنت مع الأسد ؟ قال : كنت أخشى أن يصيبني لعاب الأسد فينجس ثوبي قال ابن طولون : فأي شيء تمثلت في هذا المقام ؟ قال : تمثلت قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ فلم يسع ابن طولون إلا أن يودع العالم ويسأله دعوة صالحة يهديه الله بها سواء السبيل .

لو يعلم الزبانية

قال رجل للإمام أحمد بن حنبل : يا إمام ، إني أخيط للظلمة ثيابهم فهل أعتبر منهم ؟ قال : بل أنت من أعوانهم فانظر إلى أي حد عمت مسئولية ، واحتدم الأمر ؟ إن الله تبارك وتعالى لم يلق اللعنة على فرعون وهامان وحدهما إنما لعن الحكم جنودهما قال تعالى : ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ ولو يعلم الزبانية ماذا كان مصير فرعون وجنوده ؟ ما جلدوا ظهراً ، ولا انتهكوا حرمة ، ولا استباحوا عرضاً ، قال تعالى عن فرعون : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ لو يعلم الزبانية موقف السادة منهم يوم القيامة ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ لو يعلم الزبانية هذا المصير ما أطاعوا سادتهم أو كبراءهم حتى يكونوا في منأى عن العقاب في يوم ﴿ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ﴾ فيقال له كلا ﴿ إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى ﴾ لو يعلم الزبانية كيف سيتبرأ منهم أسيادهم ما أطاعوهم في دنيا ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما

للحرب.. كما أيام النكسة نرقص ونغني في الطرقات ، وكانت إسرائيل - أيام انتصارها - ترتدي ثياب الحداد وتصلي على قتلاها. فانتظر معي لم اعجب مهزوم يرقص ويفرح ويطرب ، ولمنتصر يصلي على قتلاه !!

حتاتيك يارب . اللهم ثبت علينا عقولنا واحفظ علينا دينا .. هكذا كان خطاب الزعيم يزأر ويهدر ، وبوسائل صيحته العالية التي تنبعث من رأس بلا شيطان وفرّخ فيه ، من رأس فارغ يشخشخ في الهواء كرءوس التماثيل ، أسدّ عليّ وفي الحروب نعامة ! .

جريمـــة التكافـــل

كان في السجن ما يسمى بالتكافل وهو تعاون الإخوة فيما بينهم بمعنى أن من وجد يعطي من لم يجد ، وأن القوي يعين الضعيف ، ويغيث الملهوف ، وأن القادر يأخذ بيد العاجز ، وهكذا لقد كنا نتعامل مع ما يسمى (بالكانتين) الذي يقوم بشراء الفاكهة والمعلبات ، ثم يقوم القادرون بالتعامل معه ، والشراء منه ، وكل ذلك سلفة متبادلة ، فهي تدر الربح الوفير للقائمين عليه وتعود بالفائدة عليها ، حيث إن طعام السجن يأتي بأمراض لا يعلم مدى خطرها إلا الله تعالى !!

والشيء الذي يثير في النفس كوامن الحزن ، ولواعج الأسى ويخلع له القلب من الخلع ، أنهم حرموا التعاون فيما بيـ !!

لم يكن في طاقة الجميع أن يتعامل مع الكانتين لأنه عاجز عن ذلك لضيق ذات اليد ، فإنه قبل أن يدخل السجن كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه ، وعرق جبينه ، فلما دخل السجن ، وقع أهله في ضيق شديد ، فقد كان من المستحيل له معه أن يطرق بابهم ولو بالسؤال عنهم كان مصيره كما يقولون « وراء الشمس » .

فإذا ما مدّ لهم يد المعونة فتلك جريمة لا تغتفر .

تعرف رجلا كفيف البصر ظل في السجن عامين لأن حره قد اعتقل فذهب إلى أهله ، وأعطاهم جنيهين تلك كانت جريمته !

الله تعالى يقول : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ، لقانون النظام قانون ، عبد الناصر ، يقول : من مد يده لهذا سجن عاما . وهكذا قانونهم من جاء بالحسنة فله عشر سيئات . فكيف تتصور أن تأكل شيئاً من فاكهة وأخوك جوعان ينظر إليك ، لا يملك أن يمد يده ، بل يشم أريجها ، ويجره من مذاقها !!

حقوق بريئة

من تستطيع نفسك أن تقوم على مثل هذا العمل !!

عرف رجلا كان تعيسا ، وكان يعمل بالبناء ، فلما اعتقل اضطرت زوجته أن تبيع حتى الأدوات التي كان يقوم بواسطتها بعملية البناء ، فكيف يتصور إنسان أن يأكل شيئا يحرم منه أخوه والرسول ﷺ يقول في حقوق الجار : « ولا تؤذه بريح قدرك وإذا دخلت على أهلك بالفاكهة فإما أن تطعمه منها ، وإما أن تدخل بها سرا ولا تترك ابنك يخرج بها فيغيظ بها ولده » صدقت يا سيدي يا رسول الله يا صاحب القلب الرحيم !! واخلق العظيم !!

حادثة تسلل داخل العنبر

.. من شر المصائب ما يضحك !

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

تذكر دائما يوم أن اقتصين على شأن « الكانتين » في سجن أن رحل حضر لنا بكمية وفيرة من البرتقال وزرعت على المتعاملين مع الكانتين وهم منها الذين لا يجدون ما ينفقون وحسبه الجاهل أنهم من التعفف لعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وكنا في العنبر قد مع خمسة عشر وعشرين منه بعض أفراد لم يستطيعوا التعامل ومن هنا حرموا من البرتقال ذلك الفواكه العصارة للبيع معا بائنا أن يجد أحد المعتقلين يده بشيء أيا كان نوع هذا شيء في أحيه في المعتقل ومن ضبط متلبسا بذلك استدعي للتحقيق وحبس حسب انفراديا في زنزانة عذاب حيث يصرف له رغيف واحد طول اليوم بجانب قليل من الماء وبعض حبات الملح !!

وقد يقول قائل ، ولماذا لا يمد أحدكم أخاه بشيء من المال سرا ؟ لأنا نقول إن المال كان محرما علينا ، لأننا نرسل إلى الأهل فيرسلون النقود إلى إدارة السجن وتقوم بدورها بتوزيع حصلت تعامل بقيمتها مع الكانتين فمن ليس عنده نقود يتعامل بها لا تصرف له تلك حصة ومن ثم يخرج من التعفف بطريق التكافل أو التعاون ، حتى يخطئوا برعمهم تعاليم الإسلام في النفوس حتى يخرج المعتقل إلى المجتمع إنه قدر له ذلك متسربلا ثوب أنانيا عيا ... حتى حتما فيها بالشحناء والبغضاء في ظل الاشتراكية البوليسلافية وتعاليم « تيتو » الذي قال عنهم لأن تكون زعيما مهيبا أفضل من أن تكون زعيما محبوبا .

كانت القوانين صارمة إذا ما قام أحد (الهاربين) جميع سجين وكان هذا الاسم يطلق على كتلة المقررات سيره

فتأمل معي يرحمك الله كيف صارت الأنانية نصيبة ، وكيف أضحى التعاون رذيلة ، وكيف صار المعروف منكرا ، والمنكر معروفاً ، وكيف أصبح الذئب راعيا والخصم العنيد قاضياً ؟!!

حدث ذات ليلة أن قام أحد المعتقلين في عنبرة حمل بعض الفاكهة إلى أحد الإخوة الذين حرموا من التعامل وتسلل على يديه ورجليه في ظلمة الليل حتى لا يشعر به أحد من كتبة التقريرات ، وأخذ طريقه إلى مكان هذا الأخ ، وبينما هو يريد العودة إلى مكانه إذ أخرج له أحد البصابص رأسه من تحت الغطاء بعدما رآه يتسلل إلى هناك وغطى رأسه من باب التمويه وصاح قائلا : قف عندك فقد رأيتك واشهدوا يا سكان هذا العنبر على ما فعل هذا !!

وتساءلنا ماذا فعل ؟ وقال بأعلى صوته وكأنه بقي يقبض على عصابة من المهربين صاح قائلا : (تكافل - تكامل - تكامل) .

اعجب معي لقوم ضيعوا البلاد والعباد ولم يصونوا عرضا ولم يحفظوا أرضا ولا عهداً ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾

شعرت بمرارة في حلقي لما سمعت ورأيت وذكرني ذلك بقول أبي العلاء المعري

إذا وصف الطائيّ بالبخل مادر ... وعير قسا بالفهاهة باقل
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر إن الحياة مريرة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

نعم ليأتين على الناس زمان يقف الحي فيه على قبر الميت ويقول يا ليتني مكانه !!

وقامت الدنيا ولم تقعد كيف يتسلل أحدنا ببعض حبات البرتقال جادت به نفسه لأخيه المسلم إن هذا لشيء عجاب !!

إن الله تعالى أدخل رجلا مذنب الجنة لأنه سقى كلبا كان قد اشتد به العطش فشكر الله له فغفر له ذنبه .

أليس هذا المخلوق الذي سقاه لوجه الله كبد رطبة ؟! فما بالك بالإنسان الذي كرمه الله على كثير ممن خلق ، وفضله تفضيلا ؟!

إن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة ويقول له : (عبدي مرضت فلم تعدني فيقول العبد وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول له : مرض عبدي فلان فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . عبدي استطعمتك فلم تطعمني فيقول

العبد : وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول له الله : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟!

عبدى استسقيتك فلم تسقنى !! فيقول العبد يا رب : وكيف أسقيك وأنت الله رب العالمين ؟

فيقول الله : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى !! » .

تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما نصبت ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت .

إنهم يريدون تعطيم الإنسانية فى الإنسان بحيث تصير المرء فى نظرهم قرداً ، أى حيوان منحط لا يعرف ربا ولا دينا ، يريدون أن يقتلوا فينا جانب الرحمة وينضوا على عضلة الإثم ، ليحرموا فى النفوس حب الأثرة التى سمى الله تبارك وتعالى عنها ودم أهلها فى قوله : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ .

إن رسولنا الكريم يقول : « من لا يرحم لا يُرحم » ويقول « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » ويقول : « أيما أهل محلة باتوا وفيهم جائع برئت منهم ذمة الله » .

ويرحم الله فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب الذى كان يقول بلسان حاله ومقاله « لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟! » .

وما أجمل قول حافظ إبراهيم فى عمريته :

إن جاع فى شدة قوم شركتهم ... أو تسجل عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته ... فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم انثنت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها؟!
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى ... فقومى لبيت المال رديها

ويرحم الله فاروق هذه الأمة كان يقول لأهله : « إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فاتقوا الله يا آل عمر !! » .

كان الفاروق رضى الله عنه يتردد على خيمة امرأة عجوز عمياء فى ضاحية من ضواحى المدينة أيام خلافة الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، فكان يذهب إليها قبل أن تزول الغلالة من

خدرها فيسارع الطيور في البكور ، فيكنس لها خيمتها ويرشها بالماء ويحضر لها الطعام ثم ينصرف ، والعجوز لا تعلم من هذا ، وذات صباح ذهب إليها كعادته ، فوجد خيمتها قد كنست ورشت ، وأحضر لها الطعام فسألها من الذي فعل هذا يا أمة الله ؟!

فقالت له : رجل لا أعرفه !!

فذهب عمر ليأتي في اليوم الثاني فيختبئ وراء صخرة لينظر من الذي أتى إلى هذه الخيمة فإذا هو خليفة رسول الله أبو بكر الصديق !!

فقال له عمر : يا أبا بكر لله درك ما سابقتك إلى خير إلا سبقتني !!

فانظر يرعاك الله إلى قوم وضعوا أرصدتهم في صناديق التوفير التي كتب عليها ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

قوم إذا دعاهم الداعي إلى فعل الخيرات تمثلوا قوله جل شأنه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ . وقوله تعالى :

﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا ﴾ . وقوله جل شأنه :

﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ . وقوله تبارك اسمه :

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

أي قوم كانوا ؟ وأين نحن منهم ؟

شتان بين ما كانوا عليه !! وبين ما صرنا إليه !!

كان الواحد منهم يقول : نزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بإبرتين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لي أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عيني .

فماذا كانت نتيجة التحقيق في حادثة التسلل ؟

لقد حبس كل من المتسلل والمتسلل إليه فما ذنبهما ؟

أما ذنب المتسلل ؛ لأنه ما زال حتى لأن يحمل بين جنبيه نفسا حيرة ، وأما ذنب المتسلل إليه ؛ لأنه علم ولم يبلغ !!

أرأيت أمة مثل هذه الأمة التي تحكم حكما ينزع الرحمة من القلوب ، ويحطم الإنسانية في الإنسان .

اللهم لطفا بعقولنا ورحمة بنا !!

إنك أنت الغفور الرحيم !!

رائحـــة الجبـــن

قد يقول قائل : وهل للجبن رائحة ؟ إنه معنى من المعاني !! فكيف يوصف بما هو محسوس مادي !! وأبادر بأنني ما قصدت بالجبن هنا تلك الرذيلة التي تمثل أحد طرفي صفتين تقع فضيلة الشجاعة بينهما وهما الجبن والتهور - إنما قصدت به الجبن الذي نأكله والذي جيء به إلينا ذات يوم في « صفيحته » فلما فتحت داخل العنبر فاحت منه رائحة أشد نتنا من جيفة الكلاب فصاح الأمير « الدسوقي ضيف » وكان تاجرا من بورسعيد وكان مكانه بجواري صاح لما أزكمت الرائحة أنفه قال : هذا هو الجبن في عهد « عبد الناصر » وظن أنها كلمة هو قائلها سرعان ما تذهب أدراج الرياح ولم يدر ماذا سيحدث بعدها !!

لقد كتب بها تقرير سري إلى قائد المعتقل العقيد « عبد العال سلومة » وبين غمضة عين وانتباهتها خف سيادة العقيد إلى مكان الحادث وخلفه السادة أركان حربه وكأنهم يريدون أن يفتحوا محضرا مستعجلا أو يذكروا قلعة حصينة ووقف سيادة القائد يزأر زئير الأسود إذا دنس عرينها وسأل أين « الدسوق ضيف » ؟ وقد أمرنا جميعا أن نجلس على ركبنا وصمتت الألسنة ، وشخصت الأبصار وفتحت الجلسة ، وثار الرجل وفار ، وتأجج وتوهج ، وأرعى وأزبد ، وهدد وأرعد ، وألقى العقاب على من قال هذه الكلمة ، وكأنه قال فخرا ، ولفق كفرا !!

وهكذا كانت العقوبة توقع بحزم وحسم لكل من تسول له نفسه أن ينطق بكلمة تشير من قريب أو بعيد إلى ذات المصونة ، ذات الزعيم الذي أوشك أن يقول : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ والذي كان لا يقبل نصحا ، ولا يرضخ لموعظة الناصحين ، بل كان يقول : أنا الذي حلفت فيكم الغرة والكرامة ما أريكم إلا ما أرى

نعم

لقد طال هذا ليل وأسود جانبه ، وحار اللسان ، وعجز البيان ، وحزن الجنان !!

صبرنا إلى أن مل من صبرنا الصبرُ وقلنا غدا أو بعده ينجلي الأمر

فكان غد عمرا ولو مد حبله ... فقد ينطوى فى جوف هذا الغد الدهر
وقلنا عسى أن يدرك الحق أهله ... فصاحت عسى من لا ولا طعمها مر
عجبت لمصر تهضم الليث حقه ... وتفخر بالسنّور ويحك يا مصر
سلام على الدنيا سلام على الورى ... إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر

أسوأ من رائحة الجبن

حسبنا بعد أن وقع العقاب على من قال « هذه رائحة الجبن فى عهد عبد الناصر » جلسنا فى حزن ووجوم كيف استطاع ذلك النظام أن يجعل من الناس دمى يشدها بخيط واحد ؟! وكيف استطاع كما قال أن ينيم الناس ، ويوقظهم كأنه يضغط على زر ؟! وكيف استخف قومه فأطاعوه حتى جاء اليوم الذى وقف فيه الملهم بعد أن أصيب بانفصال الوحدة بين مصر وسوريا وقف بين شرذمة من المصفقين يقول :

« لقد أمرت السفن أن تتحرك لتضرب سوريا » فالتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلا هتاف : بالروح .. بالدم .. نفديك يا جمال .. اضرب .. اضرب يا جمال .. أدب .. أدب يا جمال ، حتى بحت الحناجر وكأنهم يلبون فى عرفات ، يسألون الله المغفرة والرحمة يسبحون ويحمدون ويكبرون ويسبون وبعد أن خشعت الأصوات للزعيم قال :

« لكنى رأيت أن السلاح العربى ، لا يوجه إلى صدر العربى »

وصاحت الهتافات تدوى وتشق عنان السماء : عاش رجل السلام .. عاش رجل العزة والكرامة .. عاش رجل الحرية .. من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر .. لبيك عبد الناصر .

وعجب الناس وأكبر ظنى أنه هو نفسه كان يسخر من تلك العقول .. وهذه الأشباح لمن كان الهتاف الأول ؟ ولمن كان الهتاف الثانى ؟ ولكل منهما موضوع يناقض الآخر !! الحق أننا نعيش فى عجب !!

وكذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب .

حدثنى بعد حادثة رائحة الجبن « الشيخ عبد المقصود حجر » وقال لى : أيعاقبون أخا وجه نقد إلى صفيحة الجبن ؟ ألا تدرى ماذا حدث لى فى السجن الحربى على يدى شمس بدران ؟

فقلت له : قل يا أخى أسمع وكان الحديث بيننا همسا !!

قال « الشيخ عبد المقصود » : لما دخلت السجن الحربى نودى على وذلك من قبل

« شمس بدران » وبعد سؤال وجواب قال لى : إن لم تعترف الآن بالمعروف فسوف أعرفك كيف تعترف .. سأنتزع الاعتراف من رأسك بالطريقة التى أراها ، ولم يكن عندى ما أقوله ، فليس هناك تهمة ولا ذنب ، فبماذا أعترف ؟!

ولكنهم قوم لو وزعت قسوة قلوبهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد من أهل الأرض ، ولما لم يجد منى أى اعتراف أمر زبانيته أن يأخذونى ، ويغلونى ، ورأيت نفسى أمام بئر من آبار المجارى ، وإذا به يصدر الأمر أن أنزل فى هذا البئر المليء بالقاذورات والفضلات ، وكان يوماً شديد الحر كأن شمسه خرجت من بين الرمال ولم تشرق من بين السحب ، لقد سال من الشمس لعاب كالمهل يشوى الوجوه .. أمرهم أن يحلقوا ثيابى كيوم ولدتنى أمى ، وامتثالا لأمر الطاغية نزلت فى البئر ، ووصلت القاذورات إلى عنقى فقال لى الطاغية : اغمس رأسك يا ابن كذا وكذا .... وإلا حطمت رأسك بحذائى هذا !!

قال الشيخ – وهو من حملة القرآن الكريم –: فوضعت يدى على وجهى وغمست رأسى فلما رفعته قال لى بصوته المفزع : هل ستعترف ؟ فأقسمت بالله أن ليس عندى ما أعترف به .

هذا وقد اشتعل جسمى لهيبا وكان هناك من الحشرات ما يلسع ويقرض ويبدغ كلها كأنها قد اجتمعت على ، فضلا عن الرائحة التى تركم الأنوف وتطيش لها العقول . ثم قال أخرجوه وحسبت أننى سأذهب إلى دورة المياه لأغسل ما علق بجسمى من تلك النجاسات المركزة ولكنى فوجئت بهم يأخذوننى عارياً ملوث البدن إلى مكان تركز الشمس حرارتها على فاجتمع على قيظ الهواجر ولهيب ما علق بجسمى من قاذورات وما زكم أنفى من خبيث الرائحة وظللت هكذا ساعات وساعات .

ثم ختم الشيخ هذه المأساة بقوله :

أبعد هذا كله تثور ثائرتهم ، ويقيمون الدنيا من أجل كلمة قيلت فى رائحة الخبز ؟!

إن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر !! يا ابن آدم إذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك ، ما أضعفك ! إذا غرتك قوتك فلماذا استحكمت فيك شهوتك ؟!

وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً ، إن فى القرآن دروسا جعلها الله تذكرة وعبرة لآذان الواعية !!

تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى لا يرى يوما يسره

لقد علقت رءوس المصلين في المشانق وسيق الذين اتقوا ربهم تحت السياط الحامية إلى السجون وارتفعت أصوات المنافقين حتى جعلوا من شهيد الإسلام « سيد قطب » « مسيلمة الكذاب » ومن طاغية العصر أعدل من عمر بن الخطاب !!

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا !!

إن النفاق أشد من الكفر ؛ لأن النفاق سم في عسل وأخطر الناس على المجتمعات هم المنافقون !!

إنهم عالة على المجتمع ساعة السراء ، وسوس يمخر في عظام الأمة ، إذا حلت بها البأساء والضراء ، إنهم الآكلون على كل الموائد ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾

يقول تعالى في حديثه القدسي الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبي حلفت ، لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران !!، أبي يغترون ؟ أم علي يجترئون ؟ » تباركت ربنا وتعاليت يا من فتنت وقولك الحق : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

إنهم أصحاب القلوب المظلمة ، والأفئدة المتحجرة ، إنهم العشاشون ، الكذابون ، المترددون ، المشاءون بين الناس بالنميمة ، الملتمسون للبرء العيب ، إنهم المخادعون ، الأفاقون .

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ .

إنهم الذين إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، وإذا خاصموا فجروا وإذا عاهدوا غدروا ،

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم إنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

إنهم حريصون على الذنوب والخطايا ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾

كم من صاحب يلقاك عابسا ، ويقسم بالله أنه لا يطيق لك فراقا !!

إنه مسلك كريم في مظهره .. شيطان رجيم في مخبره يلقاك بوجه أبي ذر ، وقلب أبي لهب .

كان المسيح عليه السلام يقول : يا بني إسرائيل لا تأتوني بثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بخشية الله

إن هناك مرضا اجتماعيا خطيرا ليس طفحا جلديا ، وإنما هو سرطان في الدم .

إنا نسمع نشرة الأخبار الخبيثة إلا في الظلام والمصائب .. عندما يرى ربيع أخرى نذيرا ، ولعل هذه لغتي الاستبداد ، فإذا انكمش الفهم ، واهتزت المعايير ، وانقلبت الحقائق ، عفا على وجه الأرض الفساد ، وويل للأمة إذا تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا صارت غثاء كغثاء السيل ، فتصاب بالهزل والخور ، إنهم كثيرون ، ولكن كثرتهم عبء ثقيل على كواهلهم ، عندئذ ينزع الله مهابتهم من قلوب أعدائهم فيحسبونهم ، ويلقي الوهن في قلوبهم ، فيتركون الجهاد ويستكينون ، وما الوهن إلا حب الدنيا وكراهية الموت !!

بعد هذه الخصلة من أرذل الخصال ، قال الله في شأن اليهود : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ .

والمجتمع الحريص على الحياة أي الحياة المجتمع الخيل جياد الجنود مصاب الحب الدنيا والأدب الشعور : « أنا ومن بعدي الطوفان من بعدي » .

لن تكون هذه الصفات في المجتمع إلا إذا ضاعت منه أقدس القيم ، ولعل رأسها الحرية التي عرفها عمر رضي الله عنه : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

والمجتمع الذي يساوم على حريته فطيع من السائمة ، وقد كان الإسلام وما زال يسعى لبعث الحرية والشورى والعدل .

وما من أمة تتحلى بتلك المبادىء إلا كان السعد رائدها ، والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، وما من مجتمع يتخلى عن تلك المبادىء ، إلا كان الذل رائده ، والخذلان حليفه وأذاقه الله لباس الجوع والخوف !!

وأخوف ما يخاف الناصح الأمين على بنى قومه أن يفقدوا انتماءهم ، وإخلاصهم ، فيصابون بالأنانية الحاقدة ، فيصبح هدف كل منهم نفسه ، ويصير شعاره :

لن أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

نعم أخوف ما يخاف الناصح على الأمة حب الأثرة ونبذ الإيثار .

وفى الأثرة يقول تعالى : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .

وفى الإيثار يقول جل شأنه

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ .

ويقول تبارك اسمه

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾

استوصوا بالشباب خيرا

وصية غالية وجهها سيد المخلصين وإمام المتقين إلى الأمة ، يريد لها الحياة الطيبة ، الدافئة بالإيمان ، الفياضة بكريم المشاعر ، استوصوا بالشباب خيرا ، فإنهم أرق أفئدة ، وإن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ، فخالفنى الشباب وخالفنى الشيوخ !

نعم !

الشباب نصف الحاضر ، وكل المستقبل !!

وهو تلك الطاقة التى تدفع الأمة من حاضرها المجيد إلى مستقبلها السعيد ، ليكون يومها خيراً من أمسها وغدها خيراً من يومها .

لذلك عنى الإسلام بتربية الشباب تربية تقوم على الطهر والنقاء ، وطهارة الأبدان والأردان !! فطفلك لاعبه سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعاً ، « مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

قال صلوات ربى وسلامه عليه :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للطرف وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب . نعم وأى دهشة وأى عجب أشد من أن يعذب الشباب لأنه يتردد على المساجد ، ولا يذهب إلى دور السينما والمسارح ويلاقى فى سبيل ذلك ، كل ألوان المعاناة وصنوف العذاب الأليم !!

صدقت ربنا فأنت القائل : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾ .

إن الأمم تبنى نفسها ببناء أبنائها

تبنى نفسها على الخلق والقيم والمثل

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وكيف يقوم صرح ويشيد بناء على أمواج من الرمال

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

وكيف تتبوأ أمة مكانة من المجد المؤثل عندما تحرض أبناءها على الفساد والانحراف ؟!

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويرحم الله شاعر النيل إذ يقول على لسان مصر :

قد وعدت العلا بكل أبى من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس بجدى
أنا إن قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

لقد كان كارل ماركس يقول فى جرأة وتبجح : لأنسين الناس الله بالمسرح !!

ولم تكن السينما قد اخترعت فى زمانه فما بالنا نكرر نداءه من حيث نشعر أو لا نشعر فنضع تحت العذاب الأليم شبابا مكتهلين فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن

الباطل أرجلهم ، تظل العين إليهم فى جوف الليل ، وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه !!

هل الدعوة إلى الاصلاح تكون بهدم الإنسان أم بناءه ؟ شتان ثم شتان !! وهيهات هيهات ما تقولون وما تزعمون !!

إن « رتشارد نيكسون » عندما تولى رئاسة الولايات المتحدة قال فى بيان له : « إن أمريكا لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحية لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع لكننا فقراء فى الروح نصل فى قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض .

أعلمت كيف واجه حاكم الولايات المتحدة تلك الصعاب ؟! وكيف أصاب كبد الحقيقة ؟!

أمة بلا روح ، جسد هامد لا حراك فيه !!

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

ومن تستقيم الحياة إذا اكتنفتها ظلمات الشهوات وغشيتها دياجير الظلام ؟!

ومن انتشرت ظاهرة الانتحار إلا فى أرقى دول الغرب وأغناه وأعظمها ثراء؟!

هل انتشرت تلك الظاهرة إلا لخراب النفوس من الروحانيات الصافية وموت الإيمان فى القلوب ؟!

ليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالعيد الأماليد ، إنما السعادة فى تقوى الله واكتساب رضاه

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

أحداث جسام

جاء شهر مايو ١٩٦٧ وطالعتنا الصحف ونحن فى سجن أبى زعبل بعناوين ضخمة وفى صدر صفحاتها تفيد أن الجيش قد تحرك إلى سيناء وقد أحد وضع استعداد وأعلنت حالة

الطوارىء بعد طرد قوات الأمم المتحدة من منطقة خليج العقبة التي لم يكن أحد من الشعب يدري أنها قد وضعت تحت تصرف اليهود في الملاحة حتى جاء ذلك اليوم ، وأحداث الأحداث تتحرك بسرعة ، ولم تكن مصر مهيأة لخوض الحرب . لقد كان قادتها يهربون يا لا يعرفون ، ويملئون الدنيا صياحاً وعجيجاً وضجيجاً ، وحشت بها تكية الشعرات « سنقي إسرائيل في البحر » « سنضرب إسرائيل ومن وراءها » وكان في إذاعة صوت العرب سميع جهوري الصوت يكاد صوته يصم الآذان ، كان عمله مقصوراً على توجيه السباب و شتائم المقذعة للأمة العربية، كنا ندعو إلى الحرب، ولا نعمل لها حساباً ، وكانت إسرائيل تدعو إلى السلام ، وهي تستعد للحرب !!

إن اليهود قوم يحفظون جدول الضرب عن ظهر قلب وحساباتهم دقيقة ، وخططهم مدروسة ، وخطواتهم محسوبة .. أما نحن فكما قال موشي ديان :

إن العرب لا يقرءون ، وإذا قرءوا لا يفهمون ، وإذا فهموا سرعان ما ينسون ، ولا يتذكرون !!!

وهذه كلمة عدو ولكي تحارب العدو لابد أن تفكر بعقلك ، لتقع على موطن الخطر في تفكيره ، ولابد أن تعلم أن العدو لا يتمنى لك خيراً ، ولو أبدى حسن نيته ، فإذا كان عدوك غبياً فلا تنم له واعلم بأن القول فصل ليس بهزل ، ودقت طبول الحرب ، وعلا صياحها ، والحرب أولها كلام :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا وما هو عنها بالحديث المرجم

المجتمع الممزق

حدثنا حذاق التاريخ أن القائد الحكيم إذا أراد أن يخوض معركة ، كان لزاماً عليه أن يقوم بتوحيد الجبهة الداخلية ، لأنها التي تقف وراء صفوف المقاتلين في الميدان ، وتمدهم بالعتاد والعدد وتخلفهم خيراً في أهليهم ، فإذا ما أصيبت تلك الجبهة بالفرقة ، وتصدعت وحدتها ، وتمزقت أواصرها ، وانفصلت وشائجها ، وانحلت عراها كان سهلا على العدو ينزل بها فاقرة تقصم ظهرها .

ولقد صور النبي الكريم في حديث جامع صورة المجتمع الفاضل ، والمجتمع المحارب ، فقال في بلاغة معجزة وإيجاز وجيز :

« إذا كان امراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها وإذا كان امراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها » .

كما قال : « يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم . ولم ينقصوا زكاة مالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سُلّط عليهم عدو من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم » كانت تلك الرذائل كلها مركوزة في طبائع المجتمع قبل الحرب فكان على رأس مصر الزعيم الأوحد والدكتاتور المستبد الذي تمثل كلمة فرعون ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ وكان هناك الصحفي الأوحد صاحب المقال الأسبوعي « بصراحة » .

وكان هناك الحزب الأوحد « الاتحاد الاشتراكي » . ولم يكن هناك إيمان بالله الواحد القهار ، الذي عنت الوجوه خلال جبروته ، وخشعت الأصوات لعظم لكوته ، الذي يحيي العظام وهي رميم ، وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم وهو القادر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

لقد قرب الزعيم الأوحد إليه أعداء الله ورسوله من المنافقين وهيأ المنتفعين ، وأبعد كل مخلص أمين ، فلم يصر العدو صديقا وإنما صار الصديق عدواً واختلطت الأمور وأصبح المجتمع يعيش في جو كئيب كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها . وصدق الله جل جلاله إذ يقرر تلك الحقيقة : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

وإذ يقول : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾

وإذ يقول : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ .

وإذ يقول : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ﴾ .

وإذ يقول : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ .

كان المجتمع قبل الحرب مزق النفس ، ممثلا مريضاً كئيبا كاسف البال . قليل الرجاء ، فالفزع والخوف والقلق والإرهاب والعنف كلها أشباح رهيبة ، تخيم

بأجنحتها الكئيبة على كل بيت ، والأمن والأمان ، والسكينة والاطمئنان كلها ، قد صلى عليها المجتمع صلاة الجنازة ، ومؤسسة ناصر للسجون والمعتقلات قد فتحت أبوابها ، وأخذت الزبانية أقصى وضع فى الاستعداد لتمزيق الجلود والأجساد !! فمن رفع صوته بكلمة حق يقال له : خفوه فغلوه ، وما أدراك ما غلوه : سجون لا يكف النازل فيها عن الصراخ والعويل حتى لقد كانت هناك نكتة نرددها ونحن فى السجون : كانوا إذا أذاعوا عبر قرآن الفجر وقت السحور فى رمضان كنا نسمع صوت رجل يصيح بعد أن يسكت القارىء على آخر الآى يصيح قائلا : « صل على حضرة النبى » بصوت مرتفع وذات ليلة لم نسمع صوت هذا الرجل فتساءلنا لماذا لم يظهر صوته هذه الليلة ؟ فجاء التعقيب من بعض الإخوة : لابد أنه قد اعتقل وتساءل البعض : ولماذا يعتقل ؟ فأجاب آخر : لأن صوته أعلى من صوت المعركة !!

وقد أعلن الزعيم الملهم أنه لا صوت يعلو على صوت المعركة .

وتحت هذا الشعار استبيحت أموال ، واستغل النفوذ ، وهتكت أعراض ، وتحولت الأمة إلى كتلة تقريرات ، حتى كان الولد يكتب التقرير فى أبيه ، والأخ يكتب فى أخيه !!

وجاءت الصاعقة ، وفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، وانتشر زوار الفجر ، يجوبون البلاد جيئة وذهابا !! فخبرنى بربك أين الأمل فى النصر ؟!

وهل هؤلاء فعلا سيرمون بإسرائيل فى البحر ؟ لقد تحولت الآمال إلى سراب يقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب

إذا ما الظلم حل بأرض قوم ... وعم الفسق وانتشر الرياء
فويل ثم ويل ثم ويل ... لأهل الأرض من رب السماء

انتهى بعون الله تعالى المجلد الثالث ويليه بإذن الله المجلد الرابع من كتابنا « قصة أيامى » وسنبدأ المجلد بعنوان « عوامل النصر » والله نعم الموفق .

عبد الحميد كشك

عوامل النصر

وأعنى بها عوامل البناء ، كما أعنى بالبناء بناء النفوس ، وهل تنهار المجتمعات إلا عندما تحطم النفوس فيأتى تحطيمها على البنيان من القواعد ، فيخر عليهم السقف من فوقهم ، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون !!

إن عوامل البناء عقيدة راسخة .. معنويات عالية .. قوة الوازع الديني .. أسلوب علمي متطور في حرب الأعداء مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ .

ولقد رزق الله الأمة الإسلامية عقيدة والمعنويات المترتبة عليها ، والثروة البشرية والموقع الجغرافي الممتاز ، والأرصدة العربية التي صارت مجمدة أو مجندة في بنوك الغرب ومصارف الصهيونية كما رزقها الطاقة التي تسيل ذهبا أسود في عروق الأرض ، فالبترول عصب الصناعات وغذاء الحروب ، والورقة الرابحة على مائدة الدبلوماسية العالمية ، فهل هناك عوامل أقوى من تلك العوامل لو أنها سارت في مسارها الصحيح ؟! إننا لسنا ضعفاء وليس عدونا أقوى منا ، لسنا ضعفاء في ذاتنا ، إنما أتى ضعفنا من فرقنا وتمزيق كلمتنا ، وليس عدونا أقوى منا ، إنما جاءت قوته بضعفنا لما تفرق شملنا . إننا ألف مليون .. نملك بلايين البلايين من الدولارات والأرصدة والطاقة .. إلى غير ذلك ولقد أنجز الله وعده وهو يقول :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ .

ولقد كان علينا خيرا ومازال وسيظل علينا خيرا فقد تحركت في النفوس بعض الهواجس : أفذا منعنا المشركين وقطعنا علاقاتنا بهم أوليس يترتب على ذلك الكساد الاقتصادي وفساد حال التجارة ؟! فأزال العليم الخبير تلك الوساوس بقوله في نفس الآية : ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾ .

وقد أنجز الله عهده ، وصدق وعده ، فأجرى في بطون أرض الإسلام من المعادن والبترول ما يمكنها من إعلاء كلمة الله تعالى خفاقة عالية ملاحة الذرى تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس في الجلاء فهل أخذت الأمة بتلك الأسباب واستعرت بالله ؟ كما قال تعالى : ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ وهل وقفت عند تلك المقولة التي قالها عمر وهو يخوض في الطين بقدميه عندما كان في طريقه إلى بلاد الشام ليتسلم مفاتيح المدينة المقدسة من بطريق الرومان سفرنيوس وقد قال له أبو عبيدة : أتخوض في الطين بقدميك يا أمير المؤمنين ؟

فغضب عمر غضبة لله وقال : يا أبا عبيدة لو غيرك قالها ؟

نعم أخوض في الطين بقدمي لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله .

وهذا هو الذى حدث انتهينا العزة عند اليهود والنصارى ، والشيوعيين ، فضربت عليها الذلة والمسكنة ، وأصبح الحق باطلا ، والباطل حقا وصار المعروف منكرا ، والمنكر معروفاً وأضحى الذئب راعيا ، وبات الخصم العنيد قاضيا !!

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .

معـــاول الهـــدم

بعد بيان عوامل البناء نأخذ هنا فى بيان معاول الهدم وبين عوامل البناء ومعاول الهدم تقف الأمة موقف الخوف والرجاء ، والوعد والوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد يتقرر مصيرها . والأمة التى تنسى ماضيها تستدبر مستقبلها ، والأمة التى تساوم على حريتها تتحول إلى قطيع تلهب السياط ظهره ، وتنهال العصا عليه تدمى جسمه .

ومعاول الهدم خطيرة أشد خطرا من الحرب الضروس إذ هى التى تقدم للهزيمة فإن لم تتدارك الأمة أخطارها وتعالج جراحها فعلتها العفاء !!

لئن حياة تبعث الروح فى البلى ... وتثبت فى تلك الرءوس رقاقى
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمرى لم يقس بممات

معاول الهدم تفسخ أخلاق ، والخلال اجتماعى وضعف للوازع الدينى ، وهبوط معنوى ، وتفاق ناشىء عن الظلم الاجتماعى !!

وهنالك تكون الحاقة وما أدراك ما الحاقة وتقع الواقعة وتكون الطوبة وما أدراك ما هي نار حامية .

فإذا ما ضعف وازع الدين تأمت النفوس على متعددة الشهوات ، وبين قسوة العاطفة وغفوة الضمير تتفسخ الأخلاق وينحل المجتمع، وقد كانت الأمة العربية في حربها مع إسرائيل كانت بين يدي الحرب قد فتكت بها تلك العوامل حيث استشرى الفساد ، وعم الظلم ، وانتشر البلاء ، وكانت صورة المجتمع كما صورته القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ .

وكان المجتمع قبل الحرب كما صوره الصادق المصدوق ﷺ في أحاديث الشريعة حيث يقول في الحديث الذي رواه أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » رواه البخاري ومسلم .

لقد تحول دعاة المجتمع إلى أبواق للسلطان يؤيدون الباطل ، ويخذلون أهل الحق ، حتى لقد جاءنا أحد كبار الشيوخ في السجن - لم يأت معتقلا ولا مسجونا - إنما جاء ليلقي على أسماعنا درسا في التوجيه فاقتحم بالله قائلا : والله الذي لا إله غيره إن الحكومة قد طبقت تسعة وتسعين بابا من الشريعة ولم يبق سوى باب واحد هو حد الحرابة وقد طبقته فيكم لم تساءل قائلا : أتدرون ما حد الحرابة ؟ إنه قول الله تعالى :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

وظن بذلك أنه أرضى سيده ، وأنه سيحمد عنه بالأوسمة والنياشين فيصير وزيرا للأوقاف أو شيخا للأزهر ، أو مفتيا للديار المصرية فذهب بي أنعه يتمطى ، ونسي أو تناسى أنه سوف يدعو ثبورا ، وإن لم يغفر الله له فسيصلى سعيرا !!

صدقت يا رسول الله إذ قلت : « رأيت ليلة أسري في رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت : من هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟!

قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟! » .

لقد اشتد بي الحزن وكاد الجوع يصدع كبدي وأنا أقرأ على رسالة حملها البريد إلى أحد المعتقلين وقد جاءته من صهره ، وكان شيخاً واعظاً قرأها عليّ ذلك الأخ وإذا بفضيلته يقول له فيها : لقد أحسنت الحكومة صنعاً إذ اعتقلتكم يا ذوي الأغراض الدنيئة والنفوس المريضة ولقد كان الرئيس عبد الناصر أرأف بكم من أهلكم حيث لم يقطع رواتبكم عنكم ، ثم انهال شتماً وسباً ولعناً بكلمات تركم العقول فضلاً عن الأنوف ، وكأنها بركان من المجاري يرسل حمماً ، كريهة الرائحة ، وبعد أن فرغ من قراءتها تجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا : ما الذي دفعه أن يكتب هذا الكلام وكان في غنى عنه ؟ أما كان الأولى به أن يسأل الله العافية من هذا السباب والنفاق !!

فقال لي صاحبي كلمة اقتنعت بها :

قال : إن الذي دفعه إلى هذا أنه يعلم أن الرسالة قبل أن تصل إلينا ستمر على لجان الأمن المتخصصة بمراجعة الرسائل ، وقد انقدح في عقله أنهم إذا قرءوا هذا الكلام سيعلمون أنه مواطن صالح ، وداعية إلى الوطنية ، لا يلحق به ، ولا يشق له غبار ، وعندما يقتنعون بذلك سيمنحونه ترقية وينعمون عليه بالدرجات العلى .

أنسى هذا الواعظ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أردت بها ؟ » .

قال فكان مالك يعني ابن دينار إذا حدث بهذا بكى ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقر بكلامي عليكم وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة قال : ما أردت به فأقول أنت الشهيد على قلبي لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً .

وقال شيخ ثالث من الشيوخ الكبار قال ينصح الحكومة ويوجهها إلى الطريق الذي رضي عنه ، ويبين لها كيف تعالجنا نحن المعتقلين ؟ وما هو الدواء الناجع والنصح النافع لنا ؟ قال بصوته الجهوري : وجهوا لهم الضربة القاضية حتى لا يرفعوا رءوسهم مرة أخرى ، وهكذا كان هؤلاء يسافرون إلى المحافظات وينتقلون من بلد إلى بلد يعملون النفوس .. يحرضون الدولة على القتل والتشريد ، ويحلون دماء الأبرياء ناسين أو متناسين قوله ﷺ : « الأدمي بنيان الرب ملعون من هدمه » وقوله ﷺ : « من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » .

ألم يسمعوا إلى قوله ﷺ :

« إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » .

نعم كان المجتمع كما صوره الرسول ﷺ في قوله : « إني لا أخوف على أمتي مؤمنا ، ولا مشركا . أما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره . ولكن أخوف عليكم منافقا عالم اللسان يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون » .

كانت طول الحرب تدلي بدلوها توشك أن تستقر والسفينة تميد تكاد تهتك أمواج الفضاء ، ولم يكن هناك أدنى إشارة إلى توقع النصر . كان مجتمع يعج بالظلم والفساد على جميع المستويات : من قيادة سياسية ملأت السجون والمعتقلات بالأحرار ، إلى اقتصاد مهد حطمته حروب في غير موقعها كحرب اليمن ، إلى مجتمع يعيش في رعب وهلع من روع الفجر . فخبرني برهلك : أهذه حال فيها بريق أمل لنصر مرتقب ؟ إنني وأنا أطالع أحوال المسلمين الأوائل ، الذين حاضوا غمار حروب بشجاعة ويقين وحسن ، بحصرني حين القيادة السياسية وكيف كانت على مستوى المسئولية ؟ فها هو ذا خليفة الأول أبو بكر الصديق يوصي الفاروق عمر عندما أراد أن يستخلفه فيقول له : إني أوشك إن أمر مُنْقَضٍ من وليته فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقوى ، فإن التقى أبْنُ محموض ثم رب الأمر معروض لا يستوجبه إلا من عمل به ، فمن أمر باطل وعمل بالباطل ، وأمر بمعروف ، وعمل بالمنكر يوشك أن تقتطع أمنيته ، وأن يُختَطَفَ عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن يُجنَّ بدنك من دمائهم ، وأن لضمرَ بصنت من أموالهم . وأن تجنّ سنتي عن أعراضهم فافعل ولا قوة إلا بالله .

(رواه الطبراني)

مجتمع مفكك العرى

أصيب المجتمع في أغلى شيء يملكه كل إنسان وهو حاسة الإحساس بالألم الذي يحطم والذي قضى عليه الخوف ، فقد أصيب المجتمع ما قبل الحرب بعقدة الخوف من الخوف ، ولجوء الناس إلى كتبة التقريرات حتى كان الولد يكتب في أبيه والأخ يبلغ عن أخيه !!! فهل يصلح هذا المجتمع أن يخوض معركة من معارك المصير ؟ شتان بين ما كانوا عليه وبين ما صرنا إليه : لقد كان المجتمع الإسلامي يقوم على الحب والإيثار لا على الأنانية والكراهية . فحدد هذه الصورة الإسلامية الصافية وقارن بينها وبين ما نحن عليه :

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » (رواه مسلم) .

- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، من كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كُربة فرّج الله عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة »

(رواه أبو داود)

- وعن دحيم أبي اليمان كاتب عقبة بن عامر قال : قلت لعقبة بن عامر : إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم شُرَطاً لأحدوهم . قال : لا تفعل وعظهم وهددهم . قال : إن منهم من يتوبوا ، وأنا داع لهم الشرط لأحدوهم ، فقال عقبة : ويحك لا تفعل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر عورة فكأنما استحيا موءودة في قبرها » .

(رواه ابن حبان وأبو داود والنسائي)

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فقال : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ، ولو في جوف رَحْله » .

ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وما أعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك ... (رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه) إلا أنه قال فيه : « يا معشر من أسلم بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ، ولا تُعيّروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم » الحديث .

وكيف يرجى الخير من قوم تحولوا إلى وحوشيين يبغي كل منهم العيب للبرءاء ، ويبغي أميرهم الريبة في قومه ، فما أعظم ما أرشد به النبي ﷺ إذ يقول : « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » (رواه أبو داود) .

وإن العدل هو ميزان الأمة الذي به تستقيم معايرها وتسير سفينتها في بحر ممتلئ ، لذا ركّز الإسلام على العدل خاصة في الأمراء . قال ﷺ : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاما » .

(رواه الطبراني)

ومن صور العدالة الاجتماعية أن العدل لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فالعدل هو العدل على جميع المستويات لا فرق بين الملوك والسوقة ، تأمل معي هذا المشهد المهيب الذي ينطق بالعدالة الاجتماعية في أسمى معانيها وأعلى مراقيها : عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا : من يُكَلِّم فيها رسول الله ﷺ ؟ ثم قالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ : « يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

(رواه البخاري ومسلم)

إن إقامة الحدود هو صمام الأمن للأمة ، إذ في إقامتها تحقيق الحق والعدل والمساواة ، وفي تنفيذها يعيش المجتمع آمنا مطمئنا يأتيه رزقه رغدا من كل مكان . فمن الحقائق الثابتة أنه لن يرتفع صوت الباطل إلا إذا عقل أهل الحق . عندئذ يزأر الباطل في عرصات الدنيا يملؤها ظلما وجورا وانحلالا وتفسخا . وإذا تُرك العابثون وما يعملون ، فإن نار عبثهم ستحرقهم وتحرق غيرهم . قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ وإذا تُرك أهل الفجور وما يصنعون ، اكتوى المجتمع كله بنار استهتارهم . من ثَمَّ فإن مبعوث العناية الإلهية صلوات ربي وسلامه عليه يبين لنا الصورة الرائعة للمجتمع الذي يقيم حدود الله فيكون قد أخذ طريق النجاة له سبيلا . وللمجتمع الذي لا يقيم حدود الله فيكون مآله الدمار ، ومصيره الدرك الأسفل من النار . فاستمع معي إلى هذا التصوير البلاغي الرائع في قوله ﷺ : « مثل القائم في حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » . (رواه البخاري)

وشر ما يُبتلى به المجتمع أن يباشر ما حرَّم الله ، وعلى رأس تلك المحرمات إباحة الخمر وهي أم الكبائر وأصل الخبائث ، وكفاها سوءاً أنها تغتال أغلى شيء في الإنسان وهو العقل . وهل إباحتها إلا إعلان حرب على الله ؟ وماذا بعد إعلان الحرب على الله ؟ إن الله تعالى لا تغلبه قوة ولا تقهر إرادته أهل السماوات والأرض ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

إذا كانت الخمر أم الكبائر فكيف تُحتسى فى أمة دينها الإسلام ؟ أليس ذلك حربا على جبّار السماوات والأرض ؟ أليس ذلك عدوانا على تعاليم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ؟

لقد جاءت النذر فيها تترى الوعيد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، قال ﷺ : « إن الله حرّم الخمر وثمنها ، وحرّم الميتة وثمنها ، وحرّم الخنزير وثمنه » .

(رواه أبو داود)

— وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها ، وشاربها وحاملها ، والمحمولة إليه وسالمها وبائعها وآكل ثمنها ، والمُشترِى لها ، والمُشتَرَى له » . (رواه ابن ماجه)

— وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير ، ولبعضهم خسف وقذف حتى يصبح الناس ، فيقولون : لقد خسف الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان خواصٌ ، ولترسلنّ عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها ، وعلى دورٌ ، ولترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عادا على قبائل فيها ، وعلى دور بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات . وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم » . (رواه أحمد)

— وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء ، قيل : ما هى يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمه وبرّ صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكرِم الرجلُ مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء ، أو خسفا ومسخا » . (رواه الترمذى)

نفـــاق وخيـــص

أخطر أمراض المجتمع النفاق إذا ابتليت به أمة أضحى الذل رائدها ، والهزيمة عاقبتها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ذلك لأن النفاق كشهادة الزور يقلب الحق باطلا ، والباطل حقا ، يقرب الأعداء ويبعد الأصدقاء ، ومن ثم لا يصير العدو صديقا بما يصبح الصديق عدوا ، ، مدرسة النفاق تخرج الآكلين على كل موائد ، وحملة القمائم

الدين لا عهد لهم ، ولا ذمة ، ولقد فتح القرآن الكريم أبوابه ، يلقى الدروس النافعة حتى تسلم المجتمعات من هذا الداء العضال ، وما أمر ثعلبة ببعيد ، إنه ذلك الفقير الذى جعل من مسجد رسول الله ﷺ موطنا وسكنا ومنزلا حتى سمى بحمامة المسجد ، تحركت نفسه ذات يوم طمعا فى الدنيا ، فقال للرسول الكريم سل الله أن يغنينى يا رسول الله !!

تقدم به صاحب الخلق العظيم ، والقلب الرحيم بصوت فيه الخلال و جمال والكمال :

« يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تؤدى شكره » ، لكن ثعلبة أبى إلا الطلب من السيد الكريم وعاهد الله إن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين ودعا الرسول له : « اللهم ارزق ثعلبة مالا » ودعوة رسول الله ليس بينها وبين الله حجاب أليس هو الذى زكى الله عقله ، فقد : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ وزكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ وزكى جسمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ ، وزكى رسالته فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

واستجاب الله الدعوة وورق ثعلبة بالمال من الأنعام من غنم وبقر ، وإبل والماشية وتكاثرت ، حتى صارت كالدود فى كثرتها وضاقت بها شعب المدينة ، فما كان منه بعد ذلك ، إلا أن ترك الصلاة وراء الرسول الكريم ، وهجر المسجد النبوى العظيم وسأل الرسول عنه ، ولكنه علم أن ماله شغله وتعوذ بالله من ذلك ، الله تعالى يقول فى الحديث القدسى الجليل : « ابن آدم عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطغيك ، لا يقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع ، إذا كنت معافى فى بدنك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء » !!

لقد حرمت حمامة المسجد من بيت الله فحرمت فى ضنين الأرض وأرجائها فما استطاعت أن تحلق بعد ذلك فى أجواء الروحانيات الصافية بعد أن قرعت فى حمأة الطين المسنون ، يا ثعلبة كان لا تلزمك كثيرة الإحرام خلف الصادق المعصوم فماذا دهاه ؟ وأى بلاء نزل به .

لقد أرسل الرسول ﷺ إليه عامله على الزكاة فما كان من ثعلبة إلا أن قال بلسان النفاق : ما هذه إلا أخت الجزية ، هنالك زلزل عامل بيت المال زلزالا شديداً !! فقال له : ألا لا نراه لك صاحبا ، وما بلغ رسول الله الكريم ذلك الخبر حتى قال : « يا ويح ثعلبة » ذلك لأن الله أنزل قرآنا يتلى إلى يوم القيامة قال حل شأنه : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما

آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ .

لقد حمل ثعلبة المال إلى الصادق المعصوم فلم يقبله ، وجاء به إلى أبي بكر في خلافته فرده ، كما رده عمر وعثمان ، ذلك لأن النفاق قد غزا قلبه فأفرخ الإلحاد بعدما عششت فيه الزندقة ، وقف معي عند قوله تعالى : ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ إنها كلمة تتخلع لها القلوب ، وتنفطر من هولها الأفئدة ، وتتصدع لها الأكباد وتسيل لها النفس مرارة !!

إن المنافقين في أي مجتمع سلبيون ، هدامون ، معاول هدم ، وليسوا هو من بناء ، لقد كانوا في مجالسهم يسخرون من ضعفاء المسلمين وفقرائهم !!

إن أحد الفقراء من أصحاب رسول الله عمل أجيرا ، وجاء آخر النهار بحفنة من الشعير إلى رسول الله على سبيل التبرع لجيش العسرة ، جاء بها والمنافقون جالسون فأخذوا يلمزون ، ويطعنون ، ويستهزئون ، فأنزل الله في ذلك قرآنا قال جل شأنه : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾

إنهم المعوقون المثبطون المرجفون المروجون الشائعات ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ إنهم لا أمان لهم ولا عهد عندهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ .

ثم ينهى الله نبيه عن الصلاة عليهم بعد موتهم أو القيام على قبورهم ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ إنهم مهما أوتوا من الأموال والأولاد فإنما ذلك وبال عليهم ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ إنهم المتآمرون على الأمة المحرضون عليها هم الذين يقولون : ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ ألا يعلم هؤلاء أن الله جل شأنه يقول . ﴿ ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقون لا يفقهون ﴾ إنهم الطاعنون في أصحاب الهمم العوالي ، والقمم السامقة ، يقولون . ﴿ لئن

رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ أم يعلم هؤلاء أن لله جل شأنه يقول : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

الإيمان قـــوة والنفـــاق ضعـــف

تلك حقيقة لا يختلف عليها إلا من اختصه موريس بأمور عنده فالمؤمن لا يعرف النفاق ، لأنه قوي بالله متوكل عليه معتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ من هنا نعلم : أن ما قدر على فكيك أن تصنعه فلانة يصنعه وتصنعه بقرة ، أما النفاق فهو ضد الإيمان لا يجتمع معه في قلب مؤمن ، لأن النفاق شجرة خبيثة ، خبثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ومن هنا نقد سجل القرآن الكريم على المؤمنين خمس صفات جمعت في قول الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وبعد هذه الصفات الخمس يأتي حكم من الحكم العدل في قوله تعالى عنهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾

بينما سجل القرآن للمؤمنين تلك الصفات وحكم لهم بهذا الحكم سجلت السنة المطهرة للمنافقين خمس خصال وقالت : « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »

من هنا فقد حكم الله على منافقين بقوله : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾ .

وبين قوة الإيمان وضعف النفاق نقف بين أبي بكر الصديق وثعلبة بن حاطب فهنا هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأن كله إلى رسول الله ﷺ فيسأله الرسول الكريم « هذا تركت لأولادك يا أبا بكر ؟ » فيجيب بيقين ومنطق حتى يعجب من حسن البديهة : « تركت لهم الله ورسوله !!

أما ثعلبة فيطلب منه الزكاة فيرفضها فيأتي ويخبر الناس أن هذين الموقفين !!

إن أبا بكر ملك الدنيا في يده ، ولكنه « يسمح » أما ثعلبة « فشح » في قلبه فهانت عليه ، ورخص عليه وسهولة !! أما الذي قلبه مكهم فترفض عن سهولة فوجدت في حياته

تمكنت من فضل تمكن فصار عسيراً عليه أن يخرجها من قلبه وهذا هو الفرق بين الموقفين !!

ذات ليلـــة

بينما نحن نيام في سجن أبي زعبل وفي ليلة من الليالي الحزينة قبيل النكسة وإذا بنا نفيق من نومنا فزعين وكل منا يشعر بألم في إصبعه كأن دبوسا وخزه وخزا شديداً ، فما استيقظ علماء أن أحد الأطباء المعتقلين ، أراد أن يجامل السلطة فقدم لها نفاقا رخيصا ، أخذ الدم من أصابعنا ونحن مصدومون بفقر الدم ، أحدهم ما وغن نيام : لماذا ؟ ليكتب وثيقة يقدم للقيادة يقول فيها " بعاهدكم على الوقوف خلفكم ، أبشروا بالنصر وكم كنت أتمنى شديداً وأنا أرى النفاق يفضح موقف هذا الذي ظن أنه بذلك الموقف المخزي سيعجل بالإفراج عنه ، ونسي أو تناسى أن كل شيء بقضاء ، ولكن لم أجد ما أعلق به أبلغ من قول رسول الله ﷺ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت »

سيـــف الحيـــاء

لما أوشكت حرب أن تقع بيننا وبين إسرائيل في يونيو سنة ٦٧ أذاعت القيادة عبيا في معتقل وأعلن بها « إذاعة الحية في السجن » أذاعت أن من أراد أن يتطوع بالمال للقوات المسلحة فباب التطوع مفتوح ، وظن الناس الذي يلمعون وراء القضبان ظنوا أنه بقدر ما يكون مقدار التطوع بقدر ما يفترب يوم الإفراج ، فتقدم الأغنياء بمبالغ هائلة ، متطوعين عسى أن يكون ذلك سببا في كسر ذلك الخاتم الحديدي والكل يعلم أن النفوس قد غارت وتمزقت جراحها بسبب النصر ، وقد بعث القلوب الخناجر ، وغفت مرجل الغيظ ، وأن ما أخذ بسيف الحيف فهو حرام ، ولا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه ، والذي أخبرني كثير أنه كان جواري أي كريم كان يعمل بالبناء وكان يعول أسرة تتكون من زوجة وسبعة أبناء فاضطر أن يبيع أدوات العمل ليحصلوا على لقمة العيش بعد اعتقال عائلهم فلما طلب منه أن يتطوع لما تعود بالجهود الحربي ، سألني ذلك الأخ عن رأيي : هل يتطوع وهو لا يملك في الأرض سوى خمسة وعشرين قرشا ، أبقى عليها ليشتري منه لحما من حتى يعد تطوعه فضحك الذي يعلم في الصدور كعلم الخبير ؟ فقلت له يا عم حسن رأيي أن تكتب اسمك في سجل المتطوعين ولو بخمسة قروش حتى لا يوضع اسمك في القائمة السوداء ويقف عندك من الأكاذيب والأباطيل ما أنت عنه في غنى ، فقد يقال : ذلك من سيرة المفسدة أو من بطانة الحاكم ، أو من أعداء الثقاة ، أو من الخائفين على دينهم أنهم

أو غير ذلك ، من العبارات التي كانوا يتشدقون بها ضد الأبرياء لأتفياء الأتقياء الأطهار الأبرار الأخيار !!

ومما مر علينا المسئول عن كتابة الأهرام وشيخ المحررين به عندما الأخ حسن بتبرع مقداره خمسة قروش فرأيته وسمعته بعد أن دفعها ، وكأنه تذكر أولاده فاشتدت عليه وطأة الظلم ، سمعته وقد توجه إلى القبلة ورفع يديه بنصب صريح ويدعو عليه قائلا : اللهم اجعل ما دفعته نار وناراً وغضبا من غضبك الجبار على كل من ضحك وأوعد في هذا المكان وقطع صلتنا بأولادنا . وشعرت كأن الأرض زلزلت وبرقت وبرقت ورعدت ودعوة مظلوم ليس بينها وبين الله حجاب يرفعها الله تعالى فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويستقبلها رب عز وجل ، ويقول لصاحبها وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

موقف نبيل

كان من بيننا رجال شاركوا في حرب اليهود في سنة ١٩٤٨ وكان على رأسهم قائد عامدين لأخ ، محمود عبده ، والذي عرف عنه أنه كان يعد كل درة من رمال فلسطين أرض هؤلاء الرجال أن يحذروا إن الله فكتير مكرة بل زعيم الأوحد يعاقدون الله فيه على الصدق في قتال اليهود على أن يعودوا بعد انتهاء المعركة – إن قدر لهم ذلك – إلى السجن مرة أخرى فإذا نالوا الشهادة فذلك الفضل من الله وما عرضت مذكرة على المسئولين قوبلت بالرفض وقال الزعيم يومها : إن الهزيمة على أيدي اليهود خير من النصر على أيدي هؤلاء !! وهكذا ركبه الغرور وعشش الشيطان في رأسه (فبئس مثوى المتكبرين) .

لقد فاضت العيون من الدمع لما قرئ على هؤلاء الرفض ، لأنهم كانوا يريدون ؟ ، الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا ، ولكنك تحذرنا من الله وأنت زعيم الحجة أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهكذا كانت الأيام ، والأحداث تتلاحق ، والزعيم يخطب ويقول : (أنا مش حرع متل بتاع) ، حرب أو كلام ، والجمعان يكادان يصطدمان على الحدود ، والمعتقلات والسجون قد مئت بمعتقلين ، والظلم طافح ، ملأ طباق الأرض ، حتى كاد يخيل إلى أن الظلم لو تقسم بين مائة جزء لكان لسعة وتسعون جزءاً منه في مصر ، والجزء الباقي يطوف بالدنيا ، ثم بيت ليله في مصر . لقد تمزقت وشائج المجتمع ، وتقطعت عراه ، وتقطعت أرحامه ، وأصبح الابن جاسوساً على أبيه ، والأخ عدواً لأخيه ،

والظلمات بعضها فوق بعض ، وأخرست الألسنة ، ومات الناصحون ، وانتشر المنافقون ، والغشاشون ، وضيعت الأمانة ، ووسد الأمر إلى غير أهله .

دعـــوة غريـــة !

فى صبيحة يوم من أيام ماير ، وقبل وقوع النكسة بأيام قلائل ، استيقظنا ذات يوم على بكاء أخ كنا نعرف فيه الشجاعة والرجولة والشهامة والنفى والصبر ، كان يبكى وينتحب وقد جرت على لسانه دعوة يقول فيها : (اللهم خيبظهم) وسألناه بما يبكيه وعلمنا أنه قد وصله نبأ وفاة ابنه ، والرجل كان يود أن يكون حاضراً مولد ، وتشييع جنازته ، لكن حيل بينه وبين ذلك ، وأخذت شفتاه ترسلان لنا المعرجل الذى يقل ، إنه وراء الأسوار المنيعة العالية الحصينة أيحرم من تشييع جنازة ابنه ؟! أبلغ الظلم بالعباد إلى هذا الحد ؟! إن هذا الأخ المبتلى كان قد حضر المحنة التى وقعت بالمسلمين عام ١٩٥٤ ودخل السجن الحربى وقضى ضمناً مما لقيه من العذاب فى تلك المحنة .

أصيبت أذنه بالتهاب حاد فالتمس العرض على الطبيب فقال له طبيب السجن الحربى فى ذلك الوقت ، قال له فى غلظة وفظاظة وقلب قد من حديد بل يتأذى الحديد إذا وصف القلب به ، نهره الطبيب قائلا : م تشكو ؟

قال : أذنى كأن فيها جمرة من نار !!

قال له : أى أذنيك ؟

قال له : اليمنى .

وظن الأخ الفاضل أن الطبيب وهو رسول الرحمة ومنقذ الشاكى ، وملجأ الملهوف ظن أنه سيوقع عليها كشفا ، فيشخص الداء ويصف الدواء .

لكن الأمر كان بخلاف ذلك تماماً لقد رفع الطبيب يده وصفعه على أذنه لصفعة جعلت عينيه ترميان بشرر كالقصر فأغمى عليه إغماءة لم يفق بعدها إلا وهو ممدد فى أرض الزنزانة .

أهذا هو إنسان الذى كرمه الله فى كتابه فقال : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ؟! ﴾ .

أهذا هو مواطن الذى كان الزعيم الملهم ابن مصر الذى ولد فى بنى مر كان يخاطبه ويقول له : ارفع رأسك ، أنى فقد مضى عهد الاستعباد ؟!

ولسان الحال والمقال يقول :

ارفع رأسك يا أخي لأقطعها

أهذا هو الإنسان الذي أسجد لله الملائكة لأبيه إذ يقول :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون ؟ ﴾ .

أتلك هي الحرية التي منحها الله الإنسان وقال عنها الفاروق عمر : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!) .

أتلك هي مسئولية الراعي عن رعيته والتي قال عنها الفاروق : (لو عثرت بغلة بالعراق لسألني الله عنها لم لمّ تصلح لها الطريق يا عمر ؟!) .

أتلك هي الإنسانية التي أعطاها الله من الحقوق ما يحفظ عليها كرامتها وعزتها والتي أدخل الله من أجل تلك الحقوق ، أدخل امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ولكن ماذا تقول لقوم لا يسمعون وإذا سمعوا لا يستجيبون ؟!

أصحاب قلوب لا يفقهون بها

وآذان لا يسمعون بها

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ .. ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

اقتربت الساعة

مرت الأيام والموقف بيننا وبين إسرائيل يحتدم ويزداد سوءاً على سوء وأجبت أم كلثوم حفلا ساهراً قبل وقوع الواقعة وقالت : ستكون حفلتنا القادمة في تل أبيب ورد عليها وزير الحرب الإسرائيلي قائلا : أتحداك لو استطعت أن تقيمي حفلتك القادم في القاهرة يا للمأساة !!

ويا سخرى !!

لقد مرت إحدى السفن الأمريكية قبيل النكسة بأيام مرت بقناة السويس وكانت سفينة حربية ضخمة سميت بجزيرة تصب ونشرت الصحف يومها صورة امرأة من منطقة

القناة ترفع حذاءها عاليا بردها تشير إلى بحارة السفينة كأنها تهددهم بسلاح ذرى لا يبقى ولا يذر وعلمنا أن المسألة هزل لا جد فيها وأن البلد نادم على مأساة لا يعلم مداها إلا الله !!

لقد ظن القادة السياسيون أن تعبئة الجيش لا تعدو إلا أن تكون تهديداً تعقبها الأناشيد الحماسية الكاذبة ، وسموا هذا الموقف سياسة « حافة الهاوية » وبعد ذلك يرقص الراقصون على أوهام نصر خادع فقد هددنا إسرائيل وحشدنا لها الحشود ثم انتصرنا بتخويفها وتهديدها بالخطب الحماسية الرنانة ، ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الحرب أولها كلام وأوسطها حديد ونار وآخرها إما إلى صداحة تطرب الورى ، وإما إلى نواحة فى المآتم .

يـــوم النكســـة

استيقظنا صبيحة الخامس من يونيو كالمعتاد فصلينا الفجر فى وقته ، وجلسنا كالعادة نقرأ ورد الصباح إلى أن أشرقت الأرض بنور ربها واستعددنا لصلاة الضحى مصداقا لقول الصادق المعصوم : « **من صلى الفجر فى جماعة ، ثم جلس فى مصلاه يذكر الله حتى طلعت الشمس فقام وصلى الضحى كتب الله له ثواب حجة وعمرة تامتين تامتين** » .

لكننا بعد طلوع الشمس سمعنا أزيز الطائرات يدوى فى سماء مصر فى سرعة لم يسبق لها مثيل ولما انتصف النهار لم نكن ندرى ماذا حدث لقد أمر قائد السجن بمنع الإذاعة أن تذيع علينا أى أخبار ، كما أمر بمنع الصحف ، حتى لا نعلم بما وقع وما حدث من هزيمة منكرة حتى لا نشمت !!

ولما عربت شمس هذا اليوم أذاع علينا بيانا من تأليفه وتلحينه : بأن الجيش قد انتصر . وكان يردد فى ذلك ما كان يذيعه مدير إذاعة صوت العرب بصوته الجهورى ، والذى أعلن فى إحدى كلماته وبياناته الحربية بأننا قد أسقطنا للعدو مائتين وخمسين طائرة ، وكان ذلك كذبا مفضوحا إذ لو كانت الطائرات ذبابا ما استطعنا أن نسقط منها هذا العدد !!

لقد كانوا يذيعون على الشعب أن الطريق إلى فلسطين ، ما هو إلا نزهة جوية فى ليلة صيف مقمرة حتى كانوا يقولون فى إذاعتهم هذه العبارة الممجوجة : (ألح إسرائيل وقعت فى الفخ) .

ولما أمر الجيش بالانسحاب بطريق تدعو إلى الأسى وإلى الألم أذاع قائد السجن علينا بيانا قال فيه : إن الجيش لم ينسحب إلا لخطة عسكرية سيجعل فيها للعدو كمينا يكون مقبرة له . وكانوا يقولون لنا هذا الكلام كأننا العدو الذى يجب أن يحذروه ، وكأن الحقيقة ستظل

في خفاء ، ونسي هؤلاء أو تناسوا أنه لابد أن تتضح الحقائق ، وأن الليل لابد أن ينجلي ، مهما طالت ظلمته ، وأن حرارة الشمس ستذيب ثلوج الباطل ، وأن الحق أبلج ، والباطل لجلج ، وجاءت الحقائق تترى فقد ضربت طائراتنا وهي رابضة في حظائرها ، كالبط على وجه الماء ، وانتهت الجبهة المصرية ، كما قال قائد الحرب الإسرائيلي يومها :

« لقد ضربت الجبهة المصرية فإذا هي هشة عندما اصطدمنا بها ، وكأنه صدام بين مطارق الحديد ، وأواني الفخار » ، هكذا قال موشي ديان ، كما قال أيضا : بينما كنت أتدرب على حرب الأدغال في فيتنام كان المشير ورجاله في مصر مشغولين بحل مشاكل النوادي الرياضية ، يقضون ليلهم ونهارهم مشغولين بالكرة ، وإن تعجب فعجب ما قاله قائد سلاح الجو الإسرائيلي : مردخاي هود قال : إن ما حدث في مصر يفوق أكثر أحلامي جنونا لقد سقطت الجولان ، والضفة الغربية ، ومدينة القدس ، كما ضاعت غزة .

ومع ذلك فلقد ظللنا في السجون نقاسي ما نقاسي على أيدي القادة المنهزمين الذين أرسلوا بالجيش ، وقالوا له انسحب فانسحب !!

لقد كان كل شيء قبل الحرب ينذر بالهزيمة وعلى رأس هذه الأشياء الظلم الاجتماعي ولكنهم لا يقرءون وإذا قرءوا لا يفهمون وإذا فهموا سرعان ما ينسون ولا يتذكرون .

في عام ١٩٥٤ كانت السجون قد ضمت برجال مسلمين ونساء مسلمات فوقعت الهزيمة في عام ١٩٥٦ على أيدي ثلاث دول : انجلترا وفرنسا وإسرائيل ذلك بعد ظلم ، وقتل ، وتشريد وتجويع . لقد علقت رءوس الشهداء في المشانق وعلى رأسهم شهيد الإسلام العظيم « عبد القادر عودة » الذي كتب في الإسلام كتابه الشهير (التشريع الجنائي في الإسلام) وهو موسوعة علمية يستعين بها الذين يريدون أن يطبقوا شرع الله ومنهم سلطان العلماء الشيخ « محمد فرغلي » الذي حار فيه الانجليز على صدق القضاء حتى أنهم جعلوا مكافأة عظمى لمن يأتي به حيا أو ميتا فقدم الزعيم الخالد رأسه مجانا وهكذا نسوا أن في السماء مملكة كتب على بابها : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ .

لقد تناسوا قول رسول الله ﷺ : « إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرءوا إن شئتم

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما جهز جيش التوجه بإذن الله إلى بلاد فارس والذي كان على رأسه سعد بن أبي وقاص خال رسول الله ﷺ وهو قائد موقعة القادسية ماذا قال عمر وهو يودع الجيش ؟ قال يا سعد :

« أوصيك وإياك بتقوى الله ولا يغرنك أن قيل حال رسول الله ﷺ فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه أو حسبه ، إني لا أخشى على الجيش من أعدائه ، إنما أخشى عليه من ذنوبه ، فإنا إذا عصينا الله تساوينا مع عدونا في المعصية ، وزاد عليها في العدد والعُدد »

كان عمر ينظر من وراء الحجب ويستشف الغيوب ، ليلقننا هذا الدرس الذي يبقى وعيده . إنه ينطلق من قاعدة تقول : إن النصر للأتقى ، فإذا لم يكن هناك أتقى ، كان النصر للأقوى ، وهي هزة الكسة ما كنا أتقياء ، ولا أقوياء بل كان الظلم يخيم على كل بيت ، وفي ما وقع من العدوان الثلاثي ، الذي صفح لإسرائيل ممرور في خليج العقبة ، والذي أدى بعد ذلك إلى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ عندما أردنا أن نسترد حقنا ، ونمنع إسرائيل من المرور في خليج ، فليتنا نعي دروس التاريخ فالتاريخ أستاذ بارع سنة الدهر ، يعمل في هذه المدرسة بواسطة الأيام والليالي ولكننا « نتعلم » ولم نعتبر بل عدت الأمور أسوأ مما كانت ، منذ انسحاب وتعتقلات في ١٩٦٥ ، وبعد دمج تصبت المشاق في تاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٩ كان رأس الشهيد « سيد قطب » معلقا في حبال مشنقة ليقدم هدية خاصة إلى موسكو فكانت الكسة في عام ١٩٦٧ عقب هزيمة منكرة وقعت على جبال ليس صاع من الأموال أربعة مليارات من الدولارات!!! هذا هو المال ، والمليار ألف مليون وفي مصر أربعة آلاف قرية لو أن كل قرية نُحتت لنبيل لأصلح الله حالها أم عن نفس واحرحى فحدث ولا حرج وأنشد معروف . ورقص ورقصوا وتم سحق الحرب الشعوب وحمة نصر حبه

أبعد هذا الضلال ضلال ؟ ولكن إذا عُرف السبب بطل العجب !

إن القيادة السياسية تملك من الزيوف الخفائق ما تستطيع به أن تحول الهزائم المنكرة إلى نصر مبين .

لقد كانت الكسة أمرا مستغربا بعدما حدث في اليمن ، إن العدو حاقد ولئيم إنها لقوى غيبية تخطط ولا تنام وهي في عصابة معرضون وعن الله يعبدون وهو سبحانه يخاطبنا قائلا « فأين تذهبون ؟ » نسيا عما هي فيه من الضلال سائرون إن ذهبتم إلى موسكو فإنهم أعداء الله ، وإن توجهتم إلى واشنطن فإنهم أعداء الله فالضلالة لا تصح إلى هناك ، ولا إلى هناك ، إنما تصح بالتوجه إلى بيت الله .

لقد جربهم الشرق فلم نفلحوا وجربهم الغرب فلم نفلح فحسبنا الله ونعم الوكيل ما ذكر الله مرة إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم إن الظلم لا يدوم وإن دام فلن يدوم ولقد علمنا رسولنا الكريم هذا الدرس كان إذا أراد أن يغزو غزوة قال لأصحابه : لعلون في ضعفائكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم »

كان هناك سجون ومعتقلات في ١٩٥٤ فكانت هناك هزيمة في ١٩٥٦ وكان هناك سجون ومعتقلات في ١٩٦٥ فكانت هناك هزيمة سموها نكسة وهي وكسة ونكسة وعار وشنار في سنة ١٩٦٧ وما زالت دعوة هذا الأخ الكريم ترن في أذني عندما بلغه نبأ وفاة ابنه فأخذ يدعو الله قائلا : (اللهم خبطهم) .

لقد صعدت هذه الدعوة من قلب مكلوم جريح ، ونفس ملتاعة مظلومة .

فرفعت فوق الغمام وفتحت لها أبواب السماء ، وقال لها رفع السماء بلا عمد لأنصرن صاحبك .

فكانت الواقعة وما أدراك ما الواقعة كانت في يونيو سنة ١٩٦٧ خافضة غير رافعة سبت جبال بسا فكانت هباء منبثا ورجت الأرض رجا فضربت الطائرات في حظائرها وقذفت أطنان القنابل ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد ﴾

مع البهائيين في أبي زعبل

في أثناء الحرب التي سموها كما يزعمون حرب الأيام الستة وهي في الحقيقة حرب التسع عشرة دقيقة التي تم فيها ضرب الطيران فانتهت بذلك الحرب الخاطفة أثناء تلك الأيام تم اعتقال ما يقرب من ثلاثين شخصا يدينون بالبهائية .

ولقد كانت فرصة سانحة أن نلتقي بهم ونحاورهم ونبين زيفهم وضلالهم فكون فريقا من الإسلاميين كنت واحداً من أعضائه وكان معنا لفيف من الشخصيات الممتازة أمثال الدكتور « عبد الله رشوان » عامي والأستاذ « محمود شاكر » الباحث الإسلامي والأستاذ « محمد رشاد المنيسي » وغيرهم كما قام البهائيون بتكوين فريق منهم فكنا نلتقي بعد صلاة العشاء من كل يوم ، فيستمر الحوار بيننا إلى قبيل الفجر . وكنا نرى في ذلك متعة عقلية ورياضة فكرية ، والبهائية تضم أشكالا من المعتقدات والمثل ففيها من ينتمي إلى الإسلام اسماً ، ومنها من ينتمي إلى النصرانية واليهودية ، ولعل اعتقالهم في أثناء الحرب مع إسرائيل يعطي إشارة قوية لصلتهم بإسرائيل ولقد دار الحوار في العقيدة والشريعة والشعرة وسألنا السؤال الأول الذين ينتمون إلى الإسلام اسماً : هل أنتم مسلمون ؟

قالوا : نعم .

قلنا : فما الدين الذي جاء به البهاء ؟

قالوا : الإسلام .

قلنا : إن كان هو الإسلام فكيف يأتي بدين بعدما قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ فكيف يأتي بإسلام بعدما أكمل الله الدين وأتم النعمة ؟!

وإذا لم يكن قد جاء بالإسلام فلا شيء بعد الإسلام إلا الكفر ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

ثم سألنا عما تقولون في البهاء أنبي هو ؟ قالوا : نعم ؟ قلنا : لا نبوة بلا وحي فهل نزل عليه وحي وكيف نزل عليه ؟ وما حقيقة الوحي ؟ فكان جوابهم السكوت .

قلنا : وكيف يكون نبيا ولله تعالى قد ختم الرسالة بسيد المرسلين محمد قال تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .

قالوا : إن محمداً ختم النبيين ولم يختم الرسل وجوزوا رأيهم في البهاء فقالوا إنه رسول لا نبي ، فإذا كان محمد ختم النبيين فلم يختم المرسلين .

قلنا لهم : أيهما أعم ؟ وأيهما أخص ؟ النبوة أم الرسالة ؟ وعرفوا النبوة والرسالة فكان الجواب بالمثل وعندئذ ذكرنا لهم القاعدة الأصيلة في العقائد : بأنه لا نبوة بلا وحي ، ولا رسالة بلا نبوة وحيث ثبت أنه لم يوح إليه ، فإنه ليس نبيا وحيث انتفت نبوته فقد انتفت رسالته ، إذ لا رسالة بلا نبوة ، والنبوة أعم من الرسالة ، فيكون من هذه الأمور أن من ختم الله به الأنبياء ثلاثة وعشرون ألفا ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا فمن ختم الأكثر ختم الأقل لاندراجه فيه .

وبقي لنا من النقاش بعد ذلك أنهم لا يكتفون بأنه رسول ، بل يدعون له نهاية في الوهية ، ولكي نأتي بالصورة واضحة حية فإننا نذكر تفصيلا جليا هذا الدين الذي دعوه بالاستعمار وحين اجتهد مصلا وجعل الصلاة مفصلا ليكمل القارئ ما فاته ذكره من هذا فقد بعثت الشبهات حتى أحبرها عليه فكروا ومع ذلك فإن أهل الحق قد يقصرون عنها وعقله ولكنهم يكابرون ظاهرا ويستكبرون عن قبول الحق ومهما يكن من أمر فقد ظهر الحق وسطع ضياؤه وأقيمت الحجة في ساحة الحساب يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .

وتقدم كتاب القرآن الكريم يستشف الغيوب وهو يحدثنا عن هؤلاء الذين ادعوا النبوة أو الرسالة بعد رسول الله ﷺ فيقول :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » .

حقيقـــة البهائيـــة

س ١ : ما هو إيمان البهائية ؟

ج ١ : يؤمنون بالله وكتبه ورسله والقيامة والباب والبهاء ، الإيمان بالله هو رأس الإيمان عندهم ولكنه غير إيمان المسلمين .

المسلمون يقولون : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . اتصف بصفات لا يمكن لمخلوق أن يتصف بها ، لأنه ليس كمثله شيء . وإن كل ما في الوجود قائم به ومفتقر إليه .

أما البهائية فيقولون : إن الله حي قادر قيوم ، ليس كمثله شيء إلا أنه ليس له وجود مستقل بأعيانه وصفاته التي وصف بها نفسه على ألسنة أنبيائه ولا سيما في القرآن . وإنما وجوده مفتقر إلى مظاهر أمره . وهم الأنبياء والرسل يظهر فيهم ويتجلى لعباده فيهم كما تتجلى الشمس في المرآة الصافية وحينئذ يكون هذا النبي أو الرسول قد تجلى وجوده لمن تجلى فيه كما تجلى تلك المرآة الصافية ويكون هو عندئذ خاطبنا الله ، وإذا كلمنا كان المتكلم هو الله . ويقولون أيضاً إن الله مفتقر إلى خلقه كافتقار الملك إلى رعيته لكما أنه لا ملك بلا رعية كذلك لا خالق بلا مخلوق ، ولا رازق بلا مرزوق لهذا فاعتقادهم أن الكون أزلي أبدي كأزلية الله وأبديته

ويزعمون أن كل الأنبياء والرسل الذين جاءوا إنما جاءوا ليبشروا بالمظهر الأتي الذي هو نفسه فيما بعد « بهاء الله » والذي هو على زعمهم موعود كل الأزمنة ، وكل الأديان التي جاء بها الأنبياء إنما جاءت تمهيداً لدينه وكلها ناقصة لا يكملها إلا هذا الدين الذي هو دين البهاء .

س ٢ : هل تؤمن البهائية بالبعث ؟

ج ٢ : تؤمن البهائية بالقيامة لكن إيمانها ليس كإيماننا إذ أن عقيدتهم فيها تخالف كل الأديان السماوية فهم يقولون : إن الإنسان إذا مات قامت قيامته ، فهو بعد الموت إما نعيم مقيم أو إلى عذاب أليم وإن الأحياء بعده تعود إلى الأرض كما بدأت منها ، وتفنى فيها وما العذاب والنعيم إلا على الأرواح ، أما الشجرة هذه الأجساد ويستدلون على ذلك بآيات وأحاديث إسلامية يؤولونها كما يشاءون من ذلك قوله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

ويقولون : إن الله خلق هذه الأرواح أجساداً لائقة بنعيم أو بعذاب وأن العذاب ينتهي ويسمون هذه النهاية (الموت فما بعده) القيامة الصغرى .

وهناك قيامة كبرى وهي البعث أو الساعة أو الحشر ، وهي التي أمر رسول وأمته ، وبعث رسول جديد وكل قيامة أتياً بها الأنبياء هي عندهم تعني بعث أتباع كذلك يؤمنون بما يسمونه الباب وما يسمونه البهاء ، وإليكم بيانا عنهم :

من هو الباب ؟

ولد في شيراز في ١ محرم سنة ١٢٣٥ هـ الموافق ٢٠ أكتوبر سنة ١٨١٩ م ، ولود للسيد محمد رضا تزاز في شيراز أسماه بعد ولادته علي محمد ويلقبونه : بما يتصل نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وهذا ما نعتقد كتبه

وفي غيرهم مات أبوه وهو طفل لم يتجاوز ، فكفله خاله وكان تاجرا صعب الخلق اسمه ميرزا سيد علي وفي السنة الخامسة أدخله خاله الكتاب فتعلم ما يتعلمه أمثاله في القراءة في كتاتيب إيران ولكنه برز في الخط حتى كان يدرب زملاءه جوده ويمرنهم في الكتابة وتحسينها وقبل أن يبلغ الحلم ترك المدرسة لاحتياج خاله إليه ولما بلغ السابعة عشر من عمره استقل بعمله عن خاله ، وأقام في أي شهر تاجرا الخمس سنين ، ثم رجع إلى شيراز وانقطع للعبادة ، على الطريقة الصوفية ثم رجع إلى أي شهر ، وزعم أنه يستطيع تسخير روحانيات الكواكب ، وكان يقضي معظم نهاره فوق سطح منزله ، حاسر الرأس تاليا الأوراد منهمكا في تلاوة الأذكار تحت الشمس في أي شهر المحرقة فاعتراه سبب دائم : هول حصب فواه ، فأرسله خاله إلى كربلاء مستشفيا بزيارة المقامات الشريفة هناك وفيها اجتمع بالسيد كاظم الرشتي خليفة الشيخ أحمد الأحسائي زعيم الشيخية الذي مزج التصوف بعقيدة بشرية ، ولدى قال : « إن القائم المنتظر المسمى بالمهدي هو الآن من سكان هذه الديار وعن قريب يظهر أمره » وأن جسمه كأجسام الملائكة نوراني ، وقد قال ذلك بقوة تبعه فيه ثم انقطع فجأة عن مجلس الشيخ وعكف على العبادة ولازم الرياضة بمسجد هناك ، ثم صار للناس يظهر جديد قال فيه : إنه علي المسمى بالحديث أن مسيئة العصر وعلى يديه وأن موعود الله لا يمكن إلا عن طريق بي ، وأنه لا يمكن الدخول في هذا الطريق إلا عن الباب وأنه هو الباب .

ثم ادعى أنه هو الباب للمهدي المنتظر وبعد مدة قليلة قال : إنه هو المهدي نفسه الذي بشر به الأنبياء ، وبشر به محمد ﷺ وفي ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ الموافق مايو

١٨٤٤ قال : إن الله اختاره لمقام البابية ، ومعناه (كما زعم البهائيون) أنه جاء رسولا من عند الله مبشراً بظهور شخص محتجب خلف ستار الغيب الإلهي وهذا سيكون رسولا من الله إلى البشرية لينقذهم من الفتن والحروب ويدخلهم في السلم كافة وهكذا قال البهائيون في كتبهم عند ترجمة الباب .

أما البابيون أنفسهم فينكرون ذلك ويقولون : لم يأت الباب مبشرا برسول ، وإنما منع الرسالة بعده لمدة ألفي سنة عدد حروف (المستغاث) بالأبجدية .

قال في البيان : « كل من ادعى أمرا قبل سنتي المستغاث فهو مفتر كذاب اقتلوه حيث ثقفتموه » .

وفي أخريات أيام الباب ادعى الألوهية وسمى نفسه : الأعلى وبعضهم يقول عنه الرب الأعلى وسمى نفسه النقطة ويعني بها النقطة التي تحت باء « باسم الله » لأن الباء : للاستعانة بالله ، ولا يمكن الاستعانة باسم الله إلا بواسطته . أما البهائية ففسروها على حسب هواهم وجعلوه النقطة الفاصلة بين نهاية أمر محمد عليه الصلاة والسلام وظهور غيره وهو (البهاء) .

بعد أن أعلن الباب دعوته وقنع بها اجتمع حوله ممن استجابوا له ثمانية عشر سماهم حروف أل « حي » لأن الحاء بالأبجدية : ثمانية والياء : عشرة ووزعهم على البلاد ومن هؤلاء الملا حسين البشروئي الذي سماه باب الباب وهو أشدهم إخلاصاً في الدعوة وقيل إنه المحرك لها وأنها من فعاله ومنهم الملا علي البارفروشي الذي سموه القدوس ومنهم : الملا علي البسطامي ثم تابعتهم بعد ذلك : زرين تاج بنت ملا صالح القزويني البرقاني التي كانت تسمى هند وتكنى بأم سلمى خالة ، ولجمالها سميت زرين تاج يعني التاج الذهبي وسماها الباب (قرة العين) وسماها بعد ذلك : الطاهرة وكان لها مواقف عظيمة في نصرة البابية حتى نفتها الحكومة الإيرانية إلى العراق وحبستها الحكومة التركية في بيت الشهاب الألوسي فأقامت نحو شهرين ثم رجعت إلى إيران .

وهناك اشتدت دعوتها وقويت عصبيتها وصار لها جيش لجب يخشى بأسه ويرهب جانبه ، وأصبحت تعيث في الأرض إلى أن قبضت عليها الحكومة بعد عدة مقاومات فقتلت ، ثم أحرقت وكان ذلك في سنة ١٢٦٤ هـ وبقي الباب في دعوته هذه سبع سنين اجتهد بها وأتباعه في نشر مبدئهم وقاتلوا دونه ، وتمكنت السلطة منه ومن بعض أتباعه وتفنن أولياء الأمور في حبسهم وضربهم وتعذيبهم وتقتيلهم ، ولاقى هو من الحجر والحبس ما لاقى إلى أن نفي إلى أذربيجان وفي اليوم الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٢٦٦ هـ نفذ حكم الإعدام في الباب فقتل رميا بالرصاص في مدينة تبريز هو وأحد أتباعه وطرحت جثتاهما على حافة الخندق

وفى اليوم الثانى فقدت الجثتان فلم يرهما أحد قيل إن الكلاب أكلتهما وزعم البهائيون أن أتباع الباب سرقوا الجثة واخفوها زمنا طويلا داخل صندوق فى مصنع رجل ميلانى إلى أن آمنوا فنقلوها إلى حيفا بفلسطين ودفنوها فى سفح جبل الكرمل فى مدفن فخم هناك وقيل : إن الجثة المدفونة هى جثة مزعومة والله أعلم بالحقيقة .

ماذا قال البـــاب فى دعوتـــه ؟

قال الباب : « لعمرى أول من سجد لى محمد ثم على ثم الذين هم شهداء من بعده ثم أبواب الهدى أولئك الذين سبقوا إلى أمر ربهم وأولئك هم الفائزون وأن أول ذلك الأمر أو يوم القيامة – يعنى قيامه دعوه – كل على الله يعرضون – يعنى يعرضون عليه – إن الذين عرضوا على وهم كانوا بالله وآياته مؤمنين فأولئك هم أصحاب الرضوان قد جزيناهم فى الكتاب بأحسن مما اكتسبت أيديهم وكذلك نجزى المحسنين ثم يقول فيه وإنا قد نزلنا من قبل أنه لا إله إلا أنا إياى فاتقون لتوقنن إن لم يكن أولا قبلى ولا آخر بعدى ولا ظاهر غيرى ولا باطنا دونى ولا آية من عندى كذلك يمحص الله الناس كلهم أجمعين ولعمرى إن أمر الله فى حقى أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكرون ، قل إنه ربى فى الغرب ثم من بعد أربعين سنة قد نزل الله عليه الآيات وجعله رسوله إلى العالمين ، قل إنى وليت فى الأعجمين ونزل على من بعد ما قد قضى من عمرى خمس بعد عشرين سنة آياتى التى كل عنها يعجزون وقد جمعته الحكومة الإيرانية بعلماء الشيعة ويجتهديها فناقشوه ، وناظروه فلم يقلع واشتد عنادا ، وطغى ، ولما عابوا عليه عدم فصاحته قال : إن القرآن خالف فصاحة العرب وقال أيضا : إن الحروب والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة فى الزمن الأول وعوقبت على خطيئتها بأن قيدت فى سلاسل الإعراب وبما أن بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فاطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن .

وقرر الباب وأنصاره فى مؤتمرهم الذى عقدوه فى صحراء بورشت سنة ١٢٦٤ هـ نسخ الديانة الإسلامية لأن للباب الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها لذا كان عليه أن يأتى بصلاة وصيام وحج وكان لقرة العين فى هذا المؤتمر صوت الأعلى واللسان الأطول .

انتهى بحمد الله المجلد الرابع من كتابنا (قصة أمى) ويليه المجلد الخامس بإذن الله تعالى .

عبد الحميد كشك

مخالفـــات البـــاب

وقد خالف الباب المسلمين في الأذان ، وفي الصيام ، وفي الأعياد ، وفي المواريث ، وأباح خمسة أيام من كل سنة جعلها أيام حرية يفعل الباني فيها ما يشاء بلا قيد ولا شرط !!

وبعد الحديث عن الباب نتحدث عن البهاء فما اسمه ؟

اسمه ميرزا حسين علي المازندراني النوري وأبوه الميرزا عباس . ويسميه البهائيون مبرزا بورزك ، ومعناه الميرزا الكبير ومعنى كلمة ميرزا أمير زاده بالتركية و ابن الأمير بالعربية ، وهي كلمة تركية الأصل يمنحها السلاطين الأتراك والفرس لمن يشرفونه .

وقد ولد البهاء بطهران يوم الثلاثاء ٢٠ محرم سنة ١٢٣٣ هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٨١٧م أي انه ولد قبل الباب بسنتين .

يقول البهائيون :

« إن الباب لما علم بقرب أجله وأنه سيعدم جمع مخطوطاته وخاتمه ومقلمته ومصحفه في جعبة وأرسلها في صحبه ملا باقر ليسلمها إلى الملا عبدالكريم بقزوين في مدينة قم ، ولما وصلت الأمانة إلى الملا عبدالكريم قال : انه مأمور بايصالها إلى الميرزا حسين علي المازندراني ، وبسبب ذلك انتزع الميرزا حسين علي من كبار البابيين مقام الرئاسة عليهم وسمي نفسه بهاء الله » انتهى كلام البهائيين .

كيف يفسر البهائيون القرآن ؟

يعتمد البهائيون في تفسير القرآن الكريم على التضليل واتباع المتشابه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله كما يعتمدون على تحريف الكلم عن مواضعه ، ومن يستمع إلى تفسيرهم يعلم علم اليقين أنهم أجهل الناس بلغة القرآن ؟ لأنهم لا يميزون بين الحقيقة والمجاز ، اذ أن من القواعد اللغوية الثابتة أن اللفظ يظل بحقيقة لا يتحول عن ذلك إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة مع وجود قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي فمثلا إذا قال الله تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾

فهل يراد بالظلمات هنا ظلمات الليل ؟

وهل يراد بالنور نور النهار ؟

إن الحقيقة هنا متعذرة ؛ إذ ما الفائدة من إخراج الناس من ظلمة الليل إلى نور النهار وهذه سنة الله في كونه ليست في حاجة إلى إرسال رسول ، ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ ثم ما وظيفة الكتاب الذي أنزله الله على رسوله بالنسبة إلى ظلمة الليل ونور النهار ؟ إن هذا المعنى متعذر ، وغير مراد لله إذن فنلجأ إلى المجاز ؛ حيث تعذر المعنى الأصلي .

وعندئذ يراد بالظلمة ظلمة الشرك والضلال والشبهات ، ويراد بالنور نور التوحيد الحق والصدق ، والمجاز كأن تقول أيضا : سمعت أسدا يخطب الناس فليس المراد بالأسد هنا الحيوان المفترس فذلك معنى متعذر عندئذ يصار إلى المجاز فيراد بالأسد الذي يخطب الرجل الشجاع لوجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي وهكذا

أما النهائيون فقد استعملوا الحقيقة في المجاز بغير قرينة مانعة ، فمثلا نجدهم يفسرون البعث بعد الموت بإحياء القلوب عن طريق الهداية .

ويفسرون قبور الموتى بأنها قبور الغفلة ومن ثم فقد أنكروا البعث بعد الموت وإليك بعض النماذج من تفسيرهم للقرآن الكريم :

﴿ فقد ضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، فإن الله قد أنزل القرآن عربيا مبينا فلا يفسر بغير العربية وقواعدها المقررة .

نماذج من تفسيرهم

قوله تعالى :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾

يفسرها القوم :

بأنه متى انتهى دور رسولكم ببعث رسول غيره تنقسمون إلى فريقين – كما انقسمتم أمام رسولكم لما دعاكم – فريق استمع له وآمن بدعوته ؛ فاهتدى ، وفريق أعرض فحقت عليه الضلالة ، فشقي .

فهم يفسرون قول الله تعالى .

﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ ، ويتركون ما قبلها للسياقة ، فهم والحال هذه يؤمنون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض .

قوله تعالى :

﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون ، ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

فسرها القوم :

بأن ذلك إنذار بنهاية أجل أمة محمد وأنه لما سئل عن ذلك قال : « إنما أنا بشر لا أعلم ولا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا وإنما لكل أمة أجل ونهاية » .

وهذا تناقض فى قول الجماعة فإذا كان محمد هو الله كما يقولون – تعالى الله عن ذلك – فى زعمه فكيف لا يعلم متى النهاية ؟

وكيف يقول :

﴿ لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾

ولما قال كفار قريش : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ .

قال له ربه : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ .

وإليك نموذج ظهر فيه ضلالهم جليا فى تحريف الحقائق والصيرورة إلى المجازات دون أن تكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ودون أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز فلا قرينة ولا علاقة .

قوله تعالى :

﴿ إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت ﴾

فسروها :

كورت الشمس : أى ذهبت شمس أحكام دين محمد . ويفسرون دائما السماء والشمس بالدين أو العلم وأبدلت بأحكام وضعية . وانتصر الحكم الوضعى على السماوى الشرعى .

وانكدرت النجوم : والنجوم هم العلماء أى ضعف أمر علماء أمة محمد وسيرت الجبال ذلت ، وعبدت فركبتها السيارة ، وحرقها القطار ، ولم يبق طريق صعب بها .

وعطلت العشار وهى : الإبل واستبدلت بالمراكب النارية والكهربائية .

وحشرت الوحوش : بحدائق حيوان وعرف الإنسان ما كان يجهل منها

وزوجت النفوس : الحيوانية والنباتية ، وظهر منها حيوانات ونباتات ذات مميزات وصفات لم تعرف من قبل .

وسجرت البحار : بما سار فيها من مراكب نارية ، أو بما يفجر فيها من قنابل وطرائد ، ونشرت الصحف ، ويعنون بها الجرائد والمجلات .

وكشطت السماء : وعرف أن ليس هناك جرم صلب ، وإنما هو لا نهاية أو أن سماء العلم المحمدى كشطت ، وهكذا حرفوا الكلم عن مواضعه وأولوها بغير ما أنزلت لأجله

فأنت ترى أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه بل حرفوه من بعد مواضعه واستعملوا المجاز فى الحقيقة دون أى علاقة بينهما ودون قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى وهذا هو أسلوب الذين قال الله فيهم :

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ .

والآيات التى فسروها من الشمس والنجوم وغير ذلك لا تمت إلى ما قالوه بأدنى سبب ؛ لأنها وردت فى شأن القيامة . وإلا فماذا يقولون فى الآيات التى ختم الله بها هذا المشهد ﴿ وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت ﴾ .

سبحانك ربى هذا بهتان عظيم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا

نمـــودج آخـــر

ســـورة الجاثيـــة :

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .

ومما هو معلوم لديهم ان لفظ الساعة في القرآن الكريم يراد به البهاء عندهم فاعجب معي ، ما الصلة بين الساعة التي يراد بها القيامة ، والتي قال الله فيها :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

وقال الله فيها : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾

فأي علاقة بين تلك الساعات وبين بهائهم ؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم!!! قالوا في تفسير هذه الآيات (أي) البهائيون : إذا قام البهاء حسر المبطلون الذين أعرضوا عنه ، وحكم بين البهاء وكل أمة كتابها المرسل به رسولها ، وقيل لهم هذا كتابنا الذي جاءنا مع رسولكم ينطق عليكم بصدق دعوى البهاء .

فماذا يقول البهائي في قوله تعالى : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .

اعرض عنها لأنها لا تفيده ولا يستطيع لها تأويلا ، ولأنهم درجوا على الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ، فما وافق تأويله هواهم جاءوا به ، وما كان صريحًا تركوه .

قال أحدهم لأحد علماء المسلمين :

نحن نعظم محمدًا أكثر منكم . قلت كيف ؟ قال : لو أن محمدًا قال لي يا فلان ، لقلت لبيك اللهم لبيك قلت : أستغفر الله من ذلك .

قال : لأنه ينطق بلسان الله ولا ينطق عن الهوى ، فيده يد الله ولسانه لسان الله ، وأمره أمر الله ، ووجهه وجه الله ، فقمت وأنا أستغفر الله من ذلك وأقول اللهم ثبت قلبي على دينك ... وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ وصدق رسوله الكريم إذ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبدالله ورسوله ، فقولوا عبدالله ورسوله »

ومن تأويلاتهم الباطلة ما ذكروه في هذه الآيات الكريمة : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ .

قالوا : إن الرحمن علم القرآن محمدًا وخلق الإنسان أي الباب وعلمه البيان بقصدون بالبيان الكتاب الذي نسبه الباب إلى نفسه وأنه قد نزل عليه ، وعجبا لقولهم هذا !! انهم يعتقدون أن الباب إله فمن الذي أنزل عليه الكتاب أأنزله على نفسه ؟! .

فانظر إلى أي مدى يتمادون في ضلالهم وبهتانهم ، إن عقيدتهم مجموعة من المتناقضات والمتشابهات والضلالات وهم يغلفونها بغلاف إنساني ليكون كالشراك والمصايد والشباك والمكايد .

إنها الفخاخ التي يقع فيها الصيد ويُقضى فيها على الضحايا .

فإذا سألت ذلك الذي اسمه « عباس » عبد البهاء عن البهائية أجابك قائلا : لأن تكون بهائيا يجب أن تحب العالم ، وتحب الإنسانية وتجتهد في خدمتها ، وتعمل بسلام العام والأخوة العامة .

ولقد أخذ الجاهلون بالإسلام هذا القول أحسن مأخذ ، ووضعوه في الدرجة العليا لأنهم ظنوا أن البهائية جاءت بشيء جديد ، بما رأوا من اضطراب العالم وارتباك جوه بعواصف الحروب ونيران الطمع ، والحقيقة أن البهاء ما جاء بشيء جديد ، وأن ما جاء به سرقه من الإسلام ، والإسلام منبع الفضائل ومصدر المحاسن فقد جاء القرآن قبل ألف وأربعمائة عام بما هو خير مما جاء به البهاء وعبده عباس فقد قال الله لنا في القرآن :

﴿ ادخلوا في السلم كافة ﴾

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾

ويبدأ المسلم دخوله المسجد بالسلام ويختم صلاته أينما كان بالسلام ويقول نبي الإسلام عليه السلام « لن تؤمنوا حتى تحابوا » ويقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولكن المسلمين جهلوا دينهم وأخذ الدعاة هذا الجهل ذريعة لنشر ضلالهم وبث فسادهم من تشريعات البهائية .

لم يحرم البهاء في « كتابه المسمى الأقدس » ، لم يحرم ما حرم القرآن من نكاح الأخوات أو البنات أو العمات أو الخالات وإنما حرم زوجات الآباء فقط فقال لهم حرمت عليكم أزواج آبائكم .

أما عن الميراث

فبعد تجهيز الميت تجهيزًا كاملا يأخذ من التركة من كل مائة تسعة عشر لبيت العدل والباقي يوزع على اثنين وأربعين سهما يعطى للأولاد منها ثمانية عشر يسوى فيه بين الذكر والأنثى وللزوج أو الزوجة ستة سهام ونصف وللأب خمسة سهام ونصف وللأم أربعة سهام ونصف وللإخوة ثلاثة سهام ونصف وللأخوات سهمان ونصف وللمعارف سهم ونصف .

أما عن دفن الموتى :

فإن الميت يكفن بدون غسل في أنقى ملابسه البيضاء ويجعل في أصبعه خاتم من العقيق ، ويوضع في صندوق من خشب أو حديد أو نحاس أو بلور ، وأبركها عندهم ما اتخذ من البلور ثم يدفن في أبعد عمق ممكن من الأرض وإن شق له في الصخر كان أبرك .

أما صلاة الجنازة عندهم : فقد شرعها الباب وأثبتها البهاء في كتابه الأقدس .

يقول البهاء :

قد نزلت في صلاة الميت ستة تكبيرات من الله منزل الآيات والذي عنده علم القراءة له أن يقرأ ما نزل فيها يشير بذلك إلى ما كتبه الباب في بيانه أن يكرر بعد كل تكبيرة تسع عشرة مرة .

إنا كل لله عابدون بعد الأولى

إنا كل لله ساجدون بعد الثانية

إنا كل لله قانتون بعد الثالثة

إنا كل لله ذاكرون بعد الرابعة

إنا كل لله شاكرون بعد الخامسة

إنا كل لله صابرون بعد السادسة

أما الصلاة التي يصلونها :

فقد قال البهاء : قد كتب عليكم الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال وفي البكور والآصال وعفونا عن عدة أخرى في كتاب إنه لهو الأمر المقتدر المختار .

ويسمى هذه الصلاة الصلاة الكبرى وهي مشروحة في كتبهم لها تلاوات خاصة وركوع بلا سجود ، يصليها الإنسان مرة واحدة في اليوم ، بشرط أن يكون فارغ القلب من جميع الشواغل ، وهناك صلاة وسطى وهي ركعة واحدة وخمسة واحدة يصليها الإنسان

مع عصر ، وفى الظهر وبعد غروب الشمس ، يتوجه فيها شطر عكا وتشتمل هذه الصلاة على قيام وركوع وقنوت وتعفير ، وكلمات يقولها فى تعظيم البهاء ، واتباع البهاء وكل صلواته لا سجود فيها .

وهناك صلاة صغرى سهل وأشاهم من تكفر شوعنهم وهى كلمات يقولها القائل مقبلا القبلة التى هى قبر البهاء وتكون هذه الصلاة وقت الزوال فقط .

فانظر معى أهناك وحى بين على هذا البلاء بهذا تشريع ؟!! سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ؟!

فأنت ترى فيما قاله البهاء ما يدل دلالة قاطعة على أن البهائية تخالف العبادات الإسلامية بعد مخالفتها للعقيدة التى بعث بها خاتم الأنبياء ﷺ فحق فيه قول الله تعالى :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

﴿ كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ .

أما عن عدد الشهور التى قال الله فيها : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ﴾ .

فإن البهاء يقول فى كتابه « الأقدس » : إن عدة شهور السنة تسعة عشر شهرا فى كتاب الله قد زين أولها بهذا الاسم المهيمن على العالمين — يعنى اسم نفسه .

وأسماء الشهور هى :

« بهاء ، جلال ، جمال ، عظمة ، نور ، رحمة ، كلمات ، كمال ، أسماء ، عزة ، مشية ، علم ، قدرة ، قول ، مسائل ، شرف ، سلطان ، ملك ، علاء » .

وكل شهر من هذه الشهور تسعة عشر يوما والخمسة الأيام الباقية يسميها أيام الهاء : وهى أيام راحة وحرية وزيارة وأنس .

وكى غير حساب السنة وبدل أسماء الشهور جعل لكل يوم من أيام الأسبوع اسما جديدا فسمى الأحد و (جلال) والاثنين بـ (جمال) والثلاثاء بـ (كمال) والأربعاء

بـ (فضال) والخميس بـ (عدال) والجمعة بـ (استجلال) والسبت بـ (استقلال) .

أما عن الحج فإنهم لا يحجون إلى « مكة » وإنما يحجون إلى « مدفن البهاء » وقد كتب عن الحج فقال : « قد حكم الله لمن استطاع منكم حج البيت - ويقصد به مدفنه في عكا - دون النساء عفا الله عمن رجع من عنده إنه لهو المعطى الوهاب »

وثم مزاران مقدسان الأول في « شيراز » وهو مولد الباب ، والثاني في « بغداد » وهو المكان الذي أذن فيه البهاء بضلاله .

أما عن عبادة الصيام فإنه تسعة عشر يوماً كل عام تبدأ من الثاني من شهر مارس وتنتهي في العشرين . واليوم الحادي والعشرون من مارس هو يوم العيد ويكون موافقا ليوم « النوروز » .

ويقول في كيفية الصيام :

كفوا أنفسكم عن الأكل والشرب من الطلوع إلى الأفول ، وإياكم أن يمنعكم الهوى عن هذا الفضل الذي قدر في الكتاب . » .

فأين هذا الصيام من الصيام الذي شرعه الله تعالى وأمر به في قوله :

﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ .

من أي تشريع سماوي جاء البهاء بهذا الصيام ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ .

بعدما علمنا ما شرعه البهاء لأتباعه في العبادات ننتقل إلى ما شرعه في الحدود فقد حد الله تعالى لعباده حدودا حسب الجرائم فللزنا حده إما جلدا أو رجما وللسرقة حدها وهو القطع وللقذف حده وهو ثمانون جلدة وكذلك حد الخمر .

وللحرابة حدها المبين في قوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ .

وللبغي حده المبين في قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ .

وللردة حدها المبين في قوله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » .

أما البهاء فله تشريع في الحدود اتبع فيها هواه ، أغفل الله قلبه عن ذكره ، وكان أمره فرطا .

يقول في الزاني والزانية :

قد حكم الله لكل زان أو زانية دية مسلمة إلى بيت العدل . وهي تسعة مثاقيل من الذهب . وإن عاد مرة أخرى عودوا بضعف الجزاء هذا ما حكم به مالك الأسماء في الأولى وفي الأخرى قدر لها عذاب مهين .

ومن هذه العبارة نفهم أن الرجل إذا عاد يضاعف عليه الجزاء في الغرامة أو الضريبة والمرأة إن عادت يقدر لها العذاب المهين .

حكمه في السارق « قد كتبت على السارق النفي والحبس وفي الثالث فاجعلوا في جبينه علامة يعرف بها لئلا تقبله مدن الله وديارها وإياكم أن تأخذكم الرأفة في دين الله اعملوا ما أمرتم به » .

حكمه في أن لا نجاسة أبدا . قال في أقدسه وكذلك رفع الله حكمه دون الطهارة عن كل شيء وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم، قد انغمست الأشياء في بحر الطهارة في أول الرضوان إذ تجلى على من في الإمكان بأسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا ، هذا من فضل الذي أحاط العالمين .

أما عن الأسرة البهائية والزواج وأحكامه فإن البهاء يحتم الزواج على من استطاع الزواج فيقول في كتابه المسمى الأقدس :

« قد كتب الله عليكم النكاح إياكم أن تجاوزوا حد الاثنين والذي اقتنع بواحدة من الإماء استراحت نفسه ونفسها »

ويشترط لصحة الزواج عند البهائيين رضاء ستة أفراد : الزوجين وأبوي الزوج وأبوي الزوجة إن كانوا على قيد الحياة أو من كان منهم حيا ويحدد المهور فيجعلها للقروي والبدوي تسعة عشر مثقالا من الفضة إلى خمسة أضعافها ، ويجعلها للمدني تسعة عشر مثقالا من الذهب إلى خمسة أضعافها .

ويقول في كتابه « والذي قنع بالدرجة الأولى خير له في الكتاب » .

ومن كره صحبتها أو كرهت صحبته يفترقان ستة كاملة – يسمونها مرة الاصطبار – لعلهما أن يسلما فإن لم يتفقا فلا بأس من إيقاع الطلاق ولا يوقع الطلاق غير « المحلل المحلى »

وعدة الطلاق مدة الاستبراء وإن لم يتزوجا بعد الطلاق فللزوج حق استرجاع زوجته مهما طال الأجل ولكن بعد مراجعة المحفل .

أما عدة الوفاة فقد أوقفت مدتها إلى بيت العدل وإذا اختلفا في السفر من بلدهما فعليه أن يعيدها إلى أهلها أو إلى بلدها ويعطيها نفقة سنة كاملة وإذا سافر الزوج من بلده عليه أن يحدد أجل سفره وإذا تأخر عن الأجل عليه أن يخبرها بتأخره وإلا كان لها الحق أن تشكوه إلى المحفل .

لا جهاد في البهائية

ترتكز البهائية على ركيزة تدور حولها دائما وتدعو لها وتحشد في سبيل دعوتها كل ما لديها من إمكانات وتلك الركيزة هي أنه لا جهاد ولا قتال وبهذا فإنها تدعو إلى الذل والهوان والاستكانة ، وبهذا تنفي ركنا ركينا من أركان الإسلام ، وتلغي فريضة محكمة من فرائضه انتشرت في طول القرآن الكريم وعرضه ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

لقد شرع الله تعالى الجهاد لنشر دعوة الإسلام والدفاع عن بيضته والذود عن حياضه فما غزى قوم في عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة ومن مات ولم يغز أو لم يحدث نفسه بغزو مات ميتة الجاهلية والشهيد يوم يقتل يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ويرى مكانه في الجنة ويقيه الله فتنة القبر ويشفع لسبعين من أهله ويزوج باثنتين وسبعين حورية ويلبسه الله تاج الوقار أقل يا فوتة فيه خير من الدنيا وما فيها ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم
قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
بقتل نفس ولا جادوا بسفك دم

جهل وتضليل أفهام وسفسطه
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

ثم ماذا يكون موقف المسلمين إذا اعتدى عليهم العدو كما هو واقع الآن فى شتى بقاع الأرض على أرض « أفغانستان » و « لبنان » والدول العربية المجاورة لإسرائيل ، وكما هو حادث فى « أريتريا » و « الصومال » وعلى أرض « السودان » ماذا يقول البهائيون الذين محكومون بالإعدام على الجهاد مع تنفيذ الحكم .

أيضرب المسلمون بالطيران والصواريخ والقنابل ، ويجرا وجوا ثم يقولون للمعتدى وعليكم السلام اضرب ماشئت ، واقتل من شئت فإنا سنرد عليك بالسلام .

أهذا عقل أو ذاك منطق ؟

وماذا يقول السفهاء من الناس أمام هذه البديهيات العقلية ؟

أمن العدل أنهم يعتدون الـ ـماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الـ ـأسد منهم وأن تقيد أسدى
نظر الله لى فأرشد أبنا ـ ى فشبوا إلى العلا أى شد

إن القوة الغاشمة لا علاج لها إلا قوة تماثلها فلكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار مضاد له فى الاتجاه وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة إن عاقبة المعتدين ولا عدوان إلا على الظالمين وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهو فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾

وما أعظم قوله جل شأنه :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

هذا هو المنطق الذى تنادى به الفطر السليمة والألباب الحكيمة .

عقـائد البهائيين

تختلف عقائدهم عن العقيدة الإسلامية الصحيحة كل الاختلاف ؛ ذلك لأن الإيمان عندهم غير ما عند أهل الملة التي بعث بها خاتم الأنبياء والمرسلين ونزل بها روح الأمين وجاء بها القرآن الكريم .

فمما اختلفت العبادات بيننا وبينهم من صلاة وزكاة وصيام وحج اختلفت العقائد كذلك بحيث أصبح الإسلام والبهائية نقيضين لا يجتمعان وضدين لا يلتقيان. إن الأمين جبريل لما سأل الرسول ﷺ عن الإيمان قال له الصادق المصدوم: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره. فما هو تصور البهائيين في الإيمان بهذه العقائد ؟ وماذا يقولون فيها ؟

١ – يزعم البهائيون : أن البهاء رب الأرباب وسيد المظاهر ، وعالم الحقيقة محيط علمه بكل شيء وهو هو الله .

قال عبدالبهاء عن أبيه « تجلى رب الأرباب واجترعوا حسرون وهو الذي أنشأ لكم النشأة الأخرى وأقام القيامة الكبرى وحشر النفوس المقدسة في الملكوت الأعلى »

وكتب البهاء عن نفسه :

يا أهل الفرقان قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء .

وقال أيضا عن نفسه « لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله ، ولا في جمالي إلا جماله ولا في كينونتي إلا كينونته ولا في ذاتي إلا ذاته قل لم يكن في نفسي إلا الحق ولا يرى في ذاته إلا الله .

٢ – توجيه العبادة إلى مظهر الأمر الذي هو النبي أو الرسول وأن الله يتجلى فيه ، كما تتجلى الشمس في المرآة ، ويخاطب بما يخاطب به الله .

٣ – لا معجزات للأنبياء وما داموا يؤمنون بأن الأنبياء هم آلهة وأنهم مظاهر أمر الله فلا حاجة للمعجزات .

يقولون في معجزات موسى « العصا – هي عصا الأمر – » .

والحية « هي ثعبان القدرة » واليد البيضاء هي بيضاء المعرفة »

ويقولون في معجزات عيسى إنه أبرأ الأكمه والأبرص ويعنون بالأكمه الجاهل وإبرائه بالعلم والأبرص يعني « الضال » وإبرائه بالهداية .

وأولو إحياء الموتى لسيدنا عيسى بتعليم الجهال .

٤ – لا انقطاع للوحي وقد كتب البهاء في رسالته [illegible] هؤلاء العباد لا يقولون باستحالة ظهور مظاهر الأحدية ولو أن قائلا قال بهذا فأي فرق بينه وبين قوم يقولون بذلك معلولة ؟!

ويقولون : إن [illegible] الوحي [illegible] واقع

٥ – لا تبعث هذه الأجساد وإنما هي الأرواح فقط فكل من مات دخلت قيامته وهو إلى نعيم أو إلى عذاب والعذاب ينتهي والنعيم دائم أبدي

٦ – القيامة الكبرى قيامة [illegible] وهلاك [illegible]

٧ – الملائكة وهم قوم عاشوا [illegible] وصدهم [illegible] وشيطان [illegible] حيوانات خبيثة لا تدرك الأبصار ، ولعلهم يقصدون بذلك الجراثيم

٨ – ليس هناك رسل من الملائكة تنزل على الأنبياء [illegible] أن جبريل نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقولون : [illegible] ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ أو ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ .

وهو الله تجلى في محمد فنطق محمد بالقرآن وكذلك في البهاء ، يعني ذلك

إن هذا النبي ينطق بلسان الله أو أن الوحي هو الله !! أستغفر الله من إفكهم وضلالهم ونعوذ بالله من عقائدهم .

٩ – ويعتقدون أن لله في الأرض بيتين :

الأول في شيراز ، وهو الذي أعلن فيه الباب دعوته ، والثاني في بغداد ، وهو الذي أعلن فيه البهاء دعوته ، وكلاهما يجب أن يبقى ، ويقول البهاء في كتابه

ويرفعن بيتين في المقامين ، والمقامات التي [illegible] – يعني البيوت التي نزل فيها أو سجن فيها .

كذلك يأمركم مولى العارفين [illegible] أمرهما من لدن قوي أمين . وقد [illegible] البهائيون السجن الذي سجن فيه [illegible] ويحاولون أن يمتلكوا بيت بغداد وغيره .

١٠- ويعتقدون في أن البهاء واحد أحد وليس له شريك في العصمة ولا في عظم الشأن يقول البهاء في أقدسه : ليس لمطلع الأمر شريك في العصمة الكبرى إنه يظهر ، يفعل ما يشاء في ملكوت الإنسان قد خص الله هذا المقام لنفسه وما قدر لأحد نصيب من هذا الشأن العظيم المنيع

١١- إن البهاء إله وقد صرح هو نفسه في كتابه بقوله : يا ملأ الإنشاء اسمعوا ندا مالك الأسماء إنه يناديكم من شطر سجنه الأعظم

إنه لا إله إلا أنا المقتدر المتكبر المتسخر المتعالي العظيم الحكيم » .

وكتب لي أحد المقربين من ولي الأمر هذه العبارة لما رأى مصعب لأقواله وخز عبلائه ومسجلا بعض كلماته

قال : « وفي الحال عرضت إلى ساحة قدس مولانا محبوب حضرة ولي أمر الله كل ما شاهدته فيكم لإخلاص والانجذاب في سبيل خدمة ربنا الأبهى .

وتمنيت من ساحته القدسية لكم بكل تضرع وابتهال تأييداته الإلهية ولا شك في أن حضرتكم بعناية حضرة جمال القوم - يعني البهاء - جل جلاله سوف تنالون بفتوحاته الباهرة والانتصارات العظيمة في سبيل خدمة أمر محبوب الأبهى وذلك بفضله ومنه وعنايته ... الخ

أيام يقدسها البهائيون

للبهائيون تسعة أيام يقدسونها ويحرمون العمل فيها وهذه الأيام هي :

اليوم الأول ، واليوم الثاني ، من شهر الله المحرم (ميلاد الباب والبهاء) .

اليوم الخامس من جمادى الأولى (بعثة الباب) وأعوذ بالله من قولهم . وأقول بل يوم افترائه اليوم الحادي والعشرون : من شهر مارس (عيد الفطر أو يوم النيروز ومما يندى له جبين الحياء خجلا . ويتقاطر له الوجه عرقا من شدة ما فيه من أسى أن اتخذت بعض الشعوب الإسلامية هذا اليوم عيدا سموه عيد الأم وأصبح الاحتفال به أكثر من الاحتفال بعيد الفطر ، وعيد الأضحى وهل للأم عيد ؟ وهل لإكرامها وقت محدود ؟ إن مما يدعو للأسى والأسف أن نرى المسلمين يقدمون الهدايا لأمهاتهم مستجيبين في تلك الدعوة نادى بها أحد الصحفيين وجعل هذا اليوم بالذات يوما يحتفل فيه بالأم وهو في الحقيقة ليس احتفالا إنما هو يوم الأحزان يوم أحزان الذين فقدوا أمهاتهم

سبحانه ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾؟

وعجبا لهؤلاء القوم يختلقون ما أنزل الله ، ويفترون ويفصلون رحمهم الله أيام حجه ؟

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه

وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه

يقولون اتركوا سبيل المصلحين ، ولا تتبعوا سبيل المفسدين ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل

ومن أدلة شرعه التي يقدسونه بها حتى في محظوراته ، من شهر إبريل ، (دعوة الناس أن يحجوا) افتراء على الله

وكانت يوم التاسع والعشرون من يونيو ، تابع يا سعادة المفتاح

٢٠ يونيو ، بلاغ الدعوة وحجة الوداع يوم الجمعة

٢٢ يونيو ، يوم التروية

ويوم الخامس والعشرون من شهر شعبان ، يوم الثالث

سبحانك هذا بهتان عظيم !! ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

لقد تجرأ ما افتراه البهائيون على الله ورسله بما يدعونه من كتب واختلاق فصلوا من دين الله البهائي وأسسوا البهجا ما لا يمت بأحد بالله وأولياء الله بسبب تأويلا باطلا خرج بها مضلين عن مراد الله .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾

أوحي وحي وتقدس الله إذ يقول ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾

وأشهد الله وكفى بالله شهيدا وأشهد ملائكته وحملة عرشه وجميع خلقه أنك أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .

[illegible]

وبعد فهذه كلمة في حقائق تاريخية عن الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب وبخاصة عودته على فارس وروما فدانت بروما جزيرة العرب وبقي فيها اليهود وقد فتحوا بلادهم وروحي من أجلين ودولت دولة الفرس وخمدت نيران المجوس ، وانمحت ظلمة الوثنية .

لتحقق هذا الوعد وكتب الله على يد رسوله العربي وقامت فيه الدولة العربية الإسلامية ، وقامت حضارات تليدة ، وتقدمت علوم ، واخترعت أشياء أخرى .

وفي هذه الحضارة نشأ في قصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم نشأ في بيت [illegible] في قصر الخلافة في بغداد ، ورضعت مع لبن الأمهات ثقافة العرب ، ثم شب على [illegible]

وكان من أثر هذه النشأة أن ظهر فيه وانتفى فيها آخر ، وتحدد فيه الجبن والخوف والتردد ، وانتفى الشجاعة والإقدام ، وتأصل فيه حب الراحة والدعة ، وكراهة [illegible] وبغض الحرب والقتال ، وحب الموت وبذل كل شيء في سبيل الله والدين ، لأن [illegible] وأصبح [illegible] كانت فارس وفارس على [illegible] في كل عصر من عصور التاريخ لأن فارس بعيدة عن مركز الخلافة ومجالها واسع والقلوب كثيرة والعقول نشاط في ناشئ .

وأخيرا وجد ناشئ يفكر من جديد ويخال نفسه [illegible] على محمد ﷺ يدعي النبوة في الإسلام فيا لها من كارثة وما أكثر المدعين يستغلون الدين في كل عصر وفي كل قطر !!

فلقب هذا الناشئ نفسه بالمهدي وأنه [illegible] باب مدينة العلم ثم ادعى المهدية مستولا حديث [illegible] من خراسان ، ثم ادعى النبوة أو الرسالة ثم الألوهية . فهل صدق في واحدة منها ؟ الحقيقة أن من كذب في واحدة فهو في جميع كاذب ثم يقتل محكوم بكفره !!

وقد سجل في كتبه أن مدعي الرسالة قبل مرور ألفي عام فهو كاذب فاقطعوا رؤوسهم ، ثم جاء بعد مرور ستين عشر قرنا يدعي الرسالة بعد أن ادعى خلافة محمد ويدعي أنه محمد جديد [illegible] ، ثم بعد قليل يدعي الألوهية لكن هي وعيسى [illegible] إنهما عند الله [illegible] وعيسى في [illegible]

﴿ اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ وقال لربه : ﴿ سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾

أما الباب وأما البهاء فقد امرا الناس بعبادتهما والبهاء خاصة أمر الناس أن يتوجهوا له بالدعاء وأن يخصوه بالعبادة ، ووصف نفسه بأوصاف الله الكريمة وسماها بأسماء الله الحسنى وأمر أتباعه أن يولوا وجوههم شطره فى صلاتهم وقال : إنه على كل شىء قدير .

ولكن العجب لأولئك الطغام الذين اتبعوه وأقروا بربوبيته مع أنهم يرون عجزه عن خلاصهم وخلاص نفسه من التعذيب والتشريد والإهانة والضرب والسجن وإلا فما قيمة إله لا يدفع عن نفسه أذى عباده ولا يملك القدرة على حماية نفسه ؟

أرب يسول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالب ؟!
فلو كان ربا كان يمنع نفسه
فلا خير فى رب يأتنه المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها
ومنك بالله الذى هو غالب

ولقد بالغ البهاء وعبده فى تزويق بنائيتهما وطلياها بالدهان الخادع ونوعا الأردية فهى مع المسلم برداء ومع اليهودى برداء بينما مع المسيحى والبوذى والمجوسى أردية أخرى متباينة .

وهكذا فيها مع كل نحلة وجه ومع كل دين مقابلة ، إنها مبدأ تشكيك تستغل جهل الجاهل بدينه ، فتفتح له باب التأويل . وللتأويل عند البهائية مكانة ، لأنهم أخطأوا الفهم بأن القرآن نزل عربيا غير ذى عوج وفسروا قول الله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ فوصلوا الآية وقطعوها عند قوله تعالى ، والراسخون فى العلم ، وجعلوا الراسخين فى العلم : شركاء مع الله فى علمه .

أما أولئك الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب فقالوا على الله الكذب واتبعوا ما تشابه من التنزيل وأوهموا ابتغاء الفتنة فقلبوا الحقائق وخدعوا الجاهلين وضلوا وأضلوا .

وبعد : فقد قدمنا للقارىء الكريم معالم طريق عن البهائية وقد تبين لها مذهب خطير على الإسلام والمسلمين يهدد قوته ويمزق جمعهم ، فليحذر المسلمون عاقبة اتباع هؤلاء

المفسدين ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال ﷺ ستكون فتن. قال علي رضي الله عنه : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله » .

لقد كان لنا مع البهائيين في سجن أبي زعبل صولات وجولات قضينا فيها الليالي ذوات العدد من بعد العشاء إلى أن ينشق عمود الفجر ، وكان النصر دائما للمسلمين ، لأن الإسلام حق .

وكان الذين يتصدون للدفاع عن البهائية من أقواهم فكرا وأرجحهم عقلا ، ولكن الحق أقوى وأقوم قيلا ، وأهدى سبيلا والباطل لجلج كالزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، لقد جادلناهم بالحكمة والموعظة الحسنة لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكرا ، ولكنهم دخلوا الحلبة بأفكار مسبقة كان من الصعب عليهم أن يتزحزحوا عنها ، والباطل هو الباطل يظل يعربد في عرصات الدنيا إلى أن يتصدى له الحق فيدفعه فإذا هو زاهق !!

الافراج عن البهائيين .

استيقظت ذات صباح في سجن أبي زعبل فسمعت من يطرق باب الزنزانة فإذا هو رئيس البهائيين ونادى عليّ في شماتة ظاهرة وحقد دفين وقال يا شيخ كشك لقد أفرج عنا اليوم ، ثم قال بلهجته العامية « وحبل القرآن ينفعكم » وكان هذه الكلمة ألم تبع على النفس لأن الشماتة تورث النفس لوعة ولكن سرعان ما عادت النفس إلى أصولها الأصيلة ومنابعها الصافية في قوله تعالى : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

وناديت عليه قبل أن ينصرف وقلت له : إني ناصحك بنصيحة قبل أن تغادر السجن فقد لا تلتقي . قال : فيم تنصحنا؟ قلت له: أسلم تسلم ، والرجوع للحق فضيلة ، فقد أقمنا عليكم الحجة ، وقطعنا عليكم المعاذير بتلك الجلسات التي دار بيننا الحوار العلمي فيها ، ولكنه لم يحر جوابا ، وانصرف وأبى واستكبر وكان من الكافرين ، وعشش الشيطان في رأسه وباض فيها الإلحاد ، وأفرخ الزندقة ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى فرحا بالإفراج من سجن صغير إلى سجن كبير ، وقد يعقبه سجن أليم وشديد في زنازين القبور ، وبعد يومين من الإفراج عنهم إذا بضابط السجن يأتيني بجريدة الأهرام ويقول لي : أتذكر فلانا البهائي الذي أفرج عنه منذ قليل ؟ قلت : نعم . قال : لقد مات أمس وهذا نعيه .

السجون هي الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي .. ومازلت أذكر أن والدي رحمه الله تعالى كان يزورني في المنام وهو في العالم الآخر كل ليلة وأنا نزيل سجن القلعة ، وكان يظل معي إلى أن يؤذن الفجر فيذهب هو إلى مستقر الأرواح وأستعد أنا للوقوف بين يدي الله تعالى في الصلاة . وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

ولما طالت الفرقة بيننا وبين ذوينا أصيب بعض الناس بضغوط عصبية شديدة : كان يجوري في سجن طرة شخص كان يشغل منصبا رفيعا ، فكنت أستيقظ من النوم على صوته وهو جالس يتحدث مع نفسه ويخاطب أهله كأن في يده سماعة الهاتف فيسألهم عن أحوالهم . وهل تناول الأولاد طعام الإفطار ؟ وهل ذهبوا إلى المدارس ؟ وهل هم في حاجة إلى نقود ؟ وفجأة تذهب السكرة ، وتحل الفكرة فيفيق بعدما تعود له حقائق الدنيا إلى واقعه الملموس ، فيعود إلى النوم . ففي النوم تسليم وتفويض لخالق الأكوان ، والنوم نعمة كبرى . وآية من آيات الله . قال تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . فسبحان ربي كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف من تكلم سمع صوته ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .. لقد كانت الرؤى في السجون فيها العزاء والسلوان لنفوسنا ، وهذا أمر قد ذكره القرآن الكريم في قصة يوسف . قال تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا . وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾

فتح باب الزيارة

صرحت إدارة السجن للمعتقلين بالزيارة ، وعلى المعتقل أن يستعد ليزوره بعض أهله الأقربين . وفوجئت ذات يوم بأنني مطلوب للزيارة . فبعدما يقرب من عامين رأيتني وجها لوجه أمام إخوتي ومعهم ابني الذي وُلد دون أن أراه . والذي تركته جنينا في قرار مكين إلى قدر معلوم . ولقد رأيته في المنام قبل الزيارة يفصل بيني وبينه الباب الحديدي للسجن ، ومد يده من بين القضبان فصافحته وسألته عن اسمه فقال لي : « أنا ابنك سند » . وعلمت أن هناك من الله سندا وعونا لكل مغلوب ومظلوم .

كن عن همومك معرضا ... وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة ... تنسيك عما قد مضى
فربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا

قلت : سبحانه الله !! ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾

لقد أفضى إلى ما قدم والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا وإلى الله مرجعنا فيحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

« كشف به دفعة كبيرة قد أفرج عنها »

نودى ذات ليلة على أكثر من ثلاثمائة من المعتقلين الإسلاميين وذلك للإفراج عنهم ثم توالت بعد ذلك كشوف الإفراج عن مستوى السجون ولم أكن من بين هؤلاء الذين أفرج عنهم فى تلك الآونة . وبقيت أعداد قليلة ، والتقى بى قائد السجن ذات يوم وقال لى : هل بينك وبين وزير الداخلية شىء من سوء التفاهم ؟ وكان يومها (شعراوى جمعة) فقلت له : إننى لم ألتق به ولم يجمعنى به مكان ، فقال : إننى كلما رشحت اسمك للإفراج أشار بقلمه الأحمر إلى اسمك . فقلت له : إذا أذن الله بالإفراج فإنه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتحرك الفلك ومضت الأيام ونودى على أسماء كثيرة فى المعتقل كنت واحداً منهم وظننته إفراجاً ، ولكنه كان ترحيلا من سجن إلى سجن طرة . وجىء بعربات الترحيل ليشحن الناس فيها كالسائمة .. وبينما نحن فى ساحة السجن استعداداً للرحيل إذا بى أفاجأ بمن يهمس فى أذنى ويقول : « أنا ضابط الترحيل وإننى أذاكر وعندى امتحان فى الشريعة وسأجلسك بجانبى فى السيارة لتشرح لى أصول علم الميراث » . وأظهرت استعدادى وأجلستنى بينه وبين سائق السيارة ، وفى المسافة بين السجنين كنت قد أعطيته فكرة واضحة عن ميراث أصحاب الفرائض والعصبات . واخترقت السيارة أبواب السجن العتيق ، ثم ألقت برحالها ودلفنا من السيارة وعدنا إلى طرة مرة أخرى . ورأى ذلك الضابط أن يرد إلىّ شيئاً من المعروف ، فحمل عنى المتاع حتى دخلنا إلى مكان لا يعرف الخليل فيه خليله ، ذلك هو مكان التفتيش حيث تجلس القرفصاء ويقوم بعض القائمين على شئون السجن بتفتيشنا تفتيشاً دقيقاً خشية أن يكون مع أحدنا شىء من الممنوعات كالقلم والورق والسكين والنقود فكل هذه تعتبر فى سجون مصر مخالفات كبيرة لا يسمح بدخولها فى العنابر والزنازين . وكانت إسرائيل فى تلك الأيام قد رسخت أقدامها على ضفة القناة عندما أحكمت سيطرتها على شبه جزيرة سيناء . وقلت سبحان الله سمحوا لإسرائيل بدخول مصر ولم يسمحوا لنا بدخول قلم من الرصاص أو ورقة بيضاء . فبينما إسرائيل تطالب بحقها فى المرور فى قناة السويس إذ أعيدت الملاحة فيها ، إذا بحكام مصر المغاوير يمنعوننا حقنا فى إرسال ورقة إلى أهلنا الذين لم نعلم عنا شيئاً ، ولم يعلموا عنا شيئاً . فهم لا يعلمون أين نحن ؟ وكيف نقضى تلك السنين ؟ لقد طال بنا أمد الفراق وأصبحنا لا نراهم إلا فى المنام والرؤى فى

وانتهى وقت الزيارة الذى استمر دقائق معدودات فكانوا يحسبون عليها الزمن حسابا دقيقا . ونادى السجان معلنا انتهاء الزيارة ، واختطف ابنى من بين ذراعى ، ولم أحد بين ذراعى سواى ، وودعنى الحول بعد أن أوصانى شفيقى بالصبر والاحتمال والتسليم والتفويض لله تعالى وتلا على مسمعى قوله جل شأنه : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

شىء عجيب !!

جاءوا لنا ببعض المتحذلقين يُفتوا علينا دروسا بقصد التوجيه ولا يرى هذا الشرف إلا الذين نالوا الرضا السامى من السادة الأكابر . وكان على رأس هؤلاء المفسرين شخص كان سجينا فى سنة ١٩٥٤ لكنه عرف الطريق المؤدى إلى الجلوس على كرسى المناصب فسلك حتى ارتقى فى سلم المجد ثم ألف . وقد وقعت بكتة واحتل جيوش أعظم دولة فى أرض مصر ، لم يعد ذلك الشخص فى أبواب تحدث عن بكرة السابعة سيدة جيوش أو المنهزم إلا أن يشبه الكتة بغزوة أحد . وفى الإشارة ما يغنى عن العبرة فإذا كانت الكتة التى على رأسها بطل الفرار وضاعية العصر شبيهة بيوم أحد التى كان على رأسها خير البرية الذى اصطفاه الله تعالى ورأسه رحمة للعالمين ، فإن نتيجة حتمية تقتضى أن صاحب الكتة أصبح شبيها بجموع الصابة بإهمة وشمس الهداية الربانية . وقد استحق بذلك أن يصل إلى كرسى الوزارة ، وأصبح سيادة الدكتور وزير وصاحب كلمات فى أجهزة الإعلام مسموعة ومقروءة ومرئية . ولو أنه أنصف لعلم تمام العلم أن الفرق شاسع والبون بعيد بين الكتة ويوم أحد ، فالكتة كانت هزيمة منكرة ، ويوم أحد كان مدرسة لرجال الله فيها التفويض قال تعالى فى سورة آل عمران وقد تحدثت فيها سورة عن غزوة أحد من أولها قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ . قال الله فى هذه الآيات يخاطب الجماعة المؤمنة ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ فكيف يحكم الله تعالى لهم بأنهم هم الأعلون . ويأتى سيادة الدكتور الوزير إلا أن يعقد شبها بينهم وبين الظالمين الذين أحدثوه فى أحد عزيز مقتدر شتت بين القرى والربا وجبهات هيهات ما بين التراب والسحاب . وشتان شاسع بين مسبح الأصفياء ومدارج الأعلياء .

لم تكن غزوة أحد هزيمة ، بل كانت تربية وتمحيصا . قال الله جل شأنه : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ويمحص الله الذين آمنوا ويمحق**

الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ . لم تكن غزوة أحد عرضة للدوس وتطهيرا للصف الإسلامي من شوائب النفاق . قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ وكيف تكون غزوة أحد عرضة ، وقد هم المسلمون الصف عندما أشيع بأن الكفار لن يرجعوا إلى مكة ، إنما سيعودون مهجوم على المدينة ، فاستعد المسلمون لقتالهم ، وهو ما عرف في كتب السيرة بيوم « حمراء الأسد » . وفي هذا يقول تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فهل يُشبه هؤلاء الذين هموا حتى ردوا المشركين مهزومين مدحورين ؟ هل يُشبهون بأصحاب الكهف ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم !! إن كل ما يقال هو أحد لا يعدو أن يكون مثلا في نفوس القائلين . قال تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ .

إن هزيمة تتحقق بأحد أمور ثلاثة : أولها تغير عقيدة فهل ارتدت أجسادهم مؤمنة بعد أن كانت كافرة ؟

ثانيا : تتحقق هزيمة بانقضاء على الجيش . فهل انقطع المشركون يوم أحد أن يعسكروا على جبل ؟ كلا لقد استشهد من المسلمين سبعون وكان عددهم سبعمائة كان من بينهم أسد الله حمزة ، فهل يُطلق بعض الكاتبين على غزوة أحد « يوم حمزة » فهل يعتبر هذا فضاء على جيش في الوقت الذي قتل فيه من المشركين اثنان وعشرون كان على رأسهم أبي ابن خلف الذي أصر على قتل رسول الله ﷺ . فقال الرسول لأصحابه : خلوا سبيله فلقتله ، وشر الناس من قتل نبيا أو قتله نبي .

ثالث هذه الأمور التي تتحقق بها الهزيمة ضياع الأرض . فهل ضاع من أرض المسلمين شبر واحد يوم أحد لقد ظلت المدينة هي القاعدة الأمنية ورجع المشركون إلى مكة لم يحالفهم النصر . فكيف يُقال عن يوم أحد إنه كان يوم هزيمة ؟ كيف كلمة تخرج من أفواههم إلا كبرت

لقد أعلنت ساحة المعركة الكبرى لإلقاء دروس نوعية وحاسمة على الأرض لهذه الجيوش الدكتور ، وعندما وقف يتحدث ، أمطرت السماء نصرا عزيزا ولم يكن المكان مستعدا فلقد

مسرعين إلى العنابر ، كما أنه ولّى مدبرا إلى مكاتب الإدارة يقي نفسه ماء المطر . وبعد قليل طلعت الشمس وصفا الجو ، وعدنا إلى الاستماع وعاد يقف على المنصة وقبل أن يتحدث انفتحت أبواب السماء بماء منهمر وانفض الجمع وهرول الدكتور مسرعا إلى مبنى المكاتب وبعد قليل طلعت الشمس وعدنا للمرة الثالثة وما أن وقف سيد الدكتور حتى غضبت السماء هذه المرة غضبة لم تسمح له بالعودة إلى الحديث فقد ظلت تمطر كأنها ترثي لحال المسلمين وما وصلوا إليه . لقد كان هذا الدكتور من قوم موسى فبغى عليهم . لقد أمروه أن يحاضر فعز على نفسه ألا يحاضر عندما غضبت السماء ، ولو أنه كان يملك شيئا من خشية الله لعلم أن خير محاضرة تُلقى علينا أن يقول للذين أرسلوه الصم مرتعه وخيم ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمّر ولقرأ عليهم قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ ولذكرهم بالحديث القدسي : « يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا » ويقول رسول الله ﷺ : « اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب » .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

موقف حرج

وأرادوا أن يضعوني في موقف حرج فطلبوا مني أن أقوم بإلقاء كلمة على الإخوة المعتقلين ، والحقيقة أنني قضيت تلك الليلة التي وصلني فيها هذا الأمر ، قضيتها مؤرقا مسهدا وتذكرت قول الإمام ابن الجوزي رضي الله عنه : « إني لأقضي الليل أتقلب في فراشي بحثا عن كلمة أرضي بها السلطان ولا أغضب بها الله فلا أجد » وتذكرت للإمام ابن الجوزي موقفا من المواقف التي بلغت من الحرج أقصاه فقد خطب الجمعة في مسجد به سنة وشيعة ، فسأله أحد الحاضرين على الملأ يريد إحراجه فقال له : أيها الإمام أيهما أفضل عند رسول الله (ص) : أبو بكر أم علي ؟ وعلم الإمام أن صاحب هذا السؤال ما أراد بسؤاله هذا إلا ابتغاء الفتنة ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ، فألهمه الله إجابة أدق من ميزان الذهب فقال : أفضلهما عند رسول الله ﷺ من كانت بنته تحته ، كلمة من نور فبنت أبي بكر تحت رسول الله ، وبنت رسول الله تحت علي ولقد سألت الله أن ينجيني من تلك الشدة التي يراد بها الفتنة . وما ابتلي المؤمنون بقدر ما ابتلوا بالسجون ، وأعطى الله تعالى من فضله أن أتحدث عن الداء والدواء ، فأشخص الداء وأصف الدواء ، فتحدثت عن عوامل البناء ، ومعاول الهدم ، وأردت بذلك بناء الأمم وهدمها ، فلخصت عوامل البناء في عقيدة راسخة ، ومعنويات إنسانية نابعة من ثقة صادقة ، وقدوة صالحة ، وأسلوب علمي صحيح ، ولخصت عوامل الهدم في ضعف الوازع الديني ، وتفسخ الأخلاق ، والإخلال الاجتماعي ، وحمدت الله

على أن تجاني من شباكهم التي نصبوها وعلى أن ألهمني أن أقول حق دون أن أسمح للآخرين أن يتسلقوا على كتفي .

يوم الإفراج

الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ولله تعالى في كل نفس مائة ألف فرج ، ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً . ولن يغلب عسر يسرين .

استيقظت صبيحة يوم السبت الثلاثين من شهر مارس ١٩٦٨ وقد طالعتنا صحف الصباح أن الزعيم الأوحد سيلقي بيانا مساء هذا اليوم . وبينما أنا أجلس مع بعض الإخوة نطالع الصحف . وقد أرسلت الشمس أشعة هادئة إذا بي أسمع اسمي في مكبر الصوت فذهبت إلى مكاتب الإدارة . فقالوا لي : أحضر أمتعتك ، ولم أسأل : لماذا ؟ فقد سئمنا السؤال ، وأخذني أحد المسئولين في الأمن ، حيث ركبنا سيارة خاصة وكنا ثلاثة : السائق والحارس وأنا ، وساد الصمت العميق فلم يتكلم أحد منا بكلمة ، وأخذت الأفكار تداعب عقلي ، إلى أين ؟ أهذا إفراج ؟ لو كان ذلك كذلك لسمعت كلمة تهنئة إذن فماذا يكون ؟ أهو ذهاب إلى سجن القلعة للتحقيق في قضية اكتشفوها جديدا ؟ أهو ذهاب إلى سجن أبي زعبل مرة أخرى حيث تخزين إلى أجل غير مسمى ؟ كل هذه الأفكار والسيارة تطوي الأرض تحت عجلاتها طيا إلى أن وقفت بنا في مكان لا أعرفه ورأيت بعض أفراد يفتحون باب السيارة ويحملون على الأمتعة وقد وضع أحدهم ذراعه في ذراعي واقتادني إلى داخل المبنى وقد اعتدت أنني إذا دخلت في مكان مجهول أعلم أن الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود . اعتدت أن أردد هذا الدعاء .. يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، وهمس بعضهم في أذني قائلا : أبشر فإنه إفراج ولكنك ستنتظر في هذا المبنى قليلا لمقابلة تتم بينك وبين مدير المباحث . وبعد برهة تم اللقاء ، وإذا به يلقي علي محاضرة في بطولة الزعيم المنهزم ، وأن العرب لم يكن لهم أي وزن في العالم لولا جمال عبدالناصر هو الذي رفع سمعة العالم العربي وجعل من العرب أمة يحسب لها العالم ألف حساب » .

ويعلم الله ويشهد رسوله أن قائل هذا الكلام قد لا يؤمن به فما جاء جمال عبدالناصر إلا ليحقق ثلاثة أهداف : أولها القضاء على الإسلام ، وثانيها تمزيق الصف العربي ، والثالثة تثبيت مكانة إسرائيل في المنطقة .. ولما نفذ هذا المخطط المرسوم به قال له أسياده : لقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فمت . فأخرجوا له شهادة الوفاة في الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ وشيعوا جنازته الرسمية في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ حيث أدرج في أكفان القدر . وما أن انتهى حسن طلعت من إلقاء محاضرته حتى شعرت كأنني وضعت عن كاهلي جبلا ثقيلا . وما أذن

لى بالانصراف ، ظننت أنني سأنصرف إلى بيتي ، ولكن قيل لى : إنك ستنتظر حتى الساعة السادسة مساء لمقابلة تتم بينك وبين السيد الوزير ، ومرت الدقائق كأنها شهر والساعات كأنها دهر ، واقترب الموعد المضروب بيننا ، والتقيت به فى مكتبه وأنا أسأل الله العافية . ولقد مدّ الرجل يده وبها عشرون جنيها وقال لى : خذ هذه النقود البسيطة واستعن بها فى نفقة أولادك فسألته : وبأى وجه أستحقها ؟ إن كانت على سبيل الصدقة فلست فقيرا ، فأرجو أن تعافينى من هذا الحرج . وألح فى الأخذ وألححت فى الرد وعافانى الله منها ، فتزوج بحرين بطربالين وحفر بئرين بإيرتين وغسل عبدين أسودين حتى صيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب غير باب الله يضيع فيه ماء عينى .

وانتهت الزيارة وانصرفت حيث كان بصحبتى أحد الضباط وتوجهنا إلى المنزل بعد غيبة استمرت حولين كاملين ، وطرقت باب المنزل وكانت الزيارة مفاجئة للأهل ، أما الأم فقد انعقد لسانها من الفرحة فلم تستطع الكلام وأما الإخوة فقد فاضت من أعينهم دموع الفرحة ، وصليت لله ركعتين ، وقلت : « الحمد لله على جزيل نعمه فقد أحسن فى إذ أخرجنى من سجن يا فاطر السموات والأرض ، أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

وفود الناس تأتى للتهنئة

مكثت شهورا أستقبل وفودا من الناس يأتون مهنئين جمعت بيننا محبة الله فى الوجوه الطاهرة والقلوب المقدسة ، فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .

إن هؤلاء الذين جاءوا مهنئين قد خلت قلوبهم من الرياء والسمعة والنفاق ، فنحن لم نتعارف على مغنم أو منصب أو منفعة . فلو كان ما يجمعنا شيئا من هذه الأعراض الزائلة لكانت صداقتنا وحبنا ومعرفتنا زائلة . لكن الذى كان يربط بيننا أوثق من ذلك وأوسع . إنها المحبة فى الله التى قال الله تعالى فيها : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ .

إن علاقة السياسيين الذين تربطهم الوصولية علاقة لا أساس لها ولا جذور ، بل إنها سرعان ما تنقلب إلى عداء سافر ولا تنسى ما كان بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد أو ما كان بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر .. لكن أصحاب العقائد تقوى صداقتهم على

مر الأيام لأنهم كلما ازدادوا من الله قربا ازدادت قلوبهم مودة وحبا . إنهم على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . إنهم تحابوا فى الله لغير منفعة أو دنيا . فوالله إنهم لنور ، وإن وجوههم لنور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يفزعون إذا فزع الناس ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فى حقهم فى حديثه القدسى : « وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، المتباذلين فىّ ، المتجالسين فىّ » . إنهم الذين قال فيهم الصادق المعصوم ﷺ : « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله » وذكر منهم « ... رجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وافترقا عليه » وذكر منهم : « ورجل قلبه معلق بالمساجد » فما بالك بهؤلاء رهم أوتاد المساجد يجلسؤهم الملائكة إن غابوا افتقدوهم وإن كانوا مرضى عادوهم وإن كانوا فى شدة دعو الله فم ..

ليس من العسير أن نقيم المصانع ومشيد ناطحات السحاب ، وبنى البوارج ، وغشى الجوارى فى البحر كالأعلام ، ونصنع أساطيل الطائرات ، ولكن من الصعب أن نبنى النفوس على العقيدة الراسخة والمعنويات العالية والقدوة الصالحة ، وقوة الوازع الدينى ، لهذا قال « رينتارد ليكسون » عندما تولى حكم الولايات المتحدة : « إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحية . لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع لكننا فقراء فى الروح ، نصل فى قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض » .

إن المجتمع الإيمانى قد حدد الله معالمه فى قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

واقعة عجيبة !!

قديما قالوا : « إن من شر المصائب ما يضحك » فقد زارنى أخ كريم هو عندى ثقة صدوق وسألنى أثناء زيارته : فى أى سجن كنت فى اليوم الثانى والعشرين من فبراير عام ١٩٦٨ ؟ قلت له : كنت فى سجن طرة . ثم سألته : لماذا تسأل هذا السؤال ؟ فقال : أظننت قد علمت أنه فى هذا اليوم قامت مظاهرات صاخبة وعنيفة من طلبة الجامعات ؟ قلت له : علمت ذلك من الصحف . فقال : لقد كنت أحضر مؤتمرا انعقد فى هذا اليوم وقام فيه أحد كبار المسئولين خطيب ، وكان ذلك المؤتمر فى أحد مقار الاتحاد الاشتراكى وكان المتحدث يعمل وزير لمعلومات ، قال فى خطابه : إن الشيخ كشك كان وراء المظاهرات التى قامت

في جماعة من الناس . فسألته : من أين لك هذا ؟ قال : رأيته بعيني يقود سيارة من طراز مرسيدس . فقلت له : أنت لا تعرفه إذ كيف يقود سيارة وهو كفيف البصر . فهبت ، ولكن على الباطل لا يستحون ، إنهم يجرؤون بما لا يعرفون . ومن الخطأ أن يقول الإنسان ما لا يعلم وأن يعلم قبل أن يتعلم ولا يخاف أن يأثم ، وإذا أثم لا يندم .

وهكذا قامت دولة التقريرات على الأكاذيب والشائعات فصاغ ضحية ذلك الأمراء المظلومون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

فرس الغنى وبقرة الفقير

ذكرني هذه الواقعة العجيبة التي قصها علي ذلك الصديق بقصة فيها من العلم ما يتعجب جانبه كل طالم . فقد ذكروا أن غنيا كان له فرس وكان لجاره الفقير بقرة فولدت بقرة الفقير عجلا ، فقيل له الغني : إن هذا العجل من فرس ولابد أن تضمه إلى فرسك فرفض الفقير أن يفعله ، وأخبر بذلك إلى القضاء . وكان القاضي رجلا صالحا ، فسمع كلا من الخصم وسمع لكل منهما ، فقال القاضي : لا أستطيع الفصل في هذه القضية هذا اليوم دعني أشعر في هذه الحيص قد نزل عني ، فقال له الغني ، وقد سكن عليه الغضب وذهبت الدهشة : وهل يحيض الرجال يا سيدي ؟ فقال له القاضي وهل تلد الفرس عجلا يا سيدي ؟

هم إنه الظلم ، وإن الظالمين لفة يحيدونها ويعاسون لصعاها بها :

بن الغنى وإن تكلم باخطا	قالوا أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم	أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المجالس كلها	تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا

هذه لغة أهل الجاهلية الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم أليم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون

العودة إلى المسجد

طلب إلي أن أعود إلى المسجد الذي كنت فيه في دخول السجن وأن أعود إلى الجمعة القادمة بعد الإفراج ، فقد أفرج عني في اليوم الثلاثين من مارس ، وكان يوم

السبت ، وطُلب مني أن أعود يوم الجمعة الخامس من إبريل دون أن أنال قسطا من الراحة بعد عناء السجن ، وانتشر خبر العودة ، واغتص المسجد بالروّاد من كل حدب وصوب . ومازلت أذكر هذا اليوم ، فقد كان يوما مشهود من أيام الإسلام ، فقد اخترقت صفوف المصلين إلى المنبر بصعوبة بالغة شعرت كأن القلوب قد قفزت إلى الحناجر فرحاً ، واستضاءت بنور الله بشراً وكرماً ومازلت أذكر موضوع هذه الخطبة التي بدأتها بقولي : « لقد عدت إليكم بمشيئة الله بعد مائة أسبوع » .

قد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وقد ألهمني الله تعالى أن يكون موضوع هذه الخطبة في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

وقد نزلت هذه الآيات في واقعة خطيرة وفي يوم من أيام الإسلام الخالدة . لقد نزلت بعد أن استشهد أسد الله حمزة وحفّ الرسول إلى مكان الحادث ، وألقى نظرة على الجسد الطهور وقال في كلمات تفيض حزنا : « والله يا عم ما أصبت في أحد كما أصبت اليوم فيك ، وما وقفت موقفا مثل موقفي هذا عليك ولئن أمكنني الله منهم لأمثلنّ بسبعين أو مائة » .

فماذا كان رد العليّ القدير على ناشر الهدى وواسع الندى صلوات ربي وسلامه عليه ؟ كان الرد برقية عزاء عاطرة : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

وأذكر يومها أنني عرفت الصبر بتعريفات كثيرة ذكرت منها : أنه مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد للقبائح ، وبأنه ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات ، وبأنه احتمال الكد .

وقسمته إلى بدني ونفسي ، وقد يكون النفسيّ قناعة وحلما وشجاعة وعفة باعتبار ما ينسب إليه الصبر .

وكان يوما حافلا ، ولقاء مشهودا ، فلقد ظللت بعد الصلاة أصافح المصلين وأتلقى التهاني بالعودة حتى أدّينا صلاة العصر وما استطعت الانصراف إلا بشق الأنفس ، إنها دولة القلوب إذا عرفت الله أصبحت نورانية تحلق في آفاق الطهر وساحات الرضا ، إنها الممالك التي أقامها الله تعالى في صدور عباده المؤمنين ، سعادتها في رضا الله عنها ، وليس في الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما ترى السعادة في تزكية النفس بالإيمان

وإشراق العقل بالمعرفة وانتصار بالاستشراف إلى العالم العلوى والملأ الملائكى ، إنها تردد هذه الدرة النبوية: « إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى » إنها تهتف هذا النشيد :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

إنها تشدو بهذه المعانى الرفيعة :

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

وسارت سفينة الدعوة باسم الله مجريها ومرساها ، وأخذت تجرى فى موج كالجبال فمن ركب تلك السفينة فقد نجا ، ومن قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء كان من المغرقين ، وازداد إقبال الناس على المسجد ، وجدوا فيه للنفوس روحا وريحانا وجنة نعيم ، وحرصوا على حضور دروس المساء التى كانت تُلقى ما بين المغرب والعشاء .

وهكذا عرفنا الإسلام تصهره الشدائد وتزيده قوة وتكسب عوده صلابة .

فكم زالت رياض من رباها ... وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو ... على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باق ... بقاء الشمس والسبع الشداد

قاهر الجبابرة

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، هو القوى العظيم وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، سبحانه أوجب الوجود لذاته ، وكتب الفناء على غيره .

فى اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ جاء من يخبرنى بأن عبد الناصر قد مات وعلىّ أن أعد حقيبة المعتقل فقد تكون هناك حركة اعتقالات واسعة لتدين ثم اعتقالهم من قبل تأمينا لظهر الثورة . وقلت : سبحان الله أشقى به حيًّا وميتًا ؟! إن هذا الرجل الذى ملأ طباق الأرض ظلما وجورا أصحيح قد مات ؟ نعم إنه قد مات ، فليس هناك من يستعصى على الموت مهما كان جبروته وصولجانه . إنه كان فى مؤتمر القمة الذى

عقد بالقاهرة بين الملوك والرؤساء العرب ، كان بينهم مختالا كالطاووس مزهوا بنفسه ، مغرورا كعادته ، ولكنه في الواقع كان كما قال القائل :

كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وكما قال آخر :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة

لقد انفض مؤتمر القمة وكان هو في وداع أمير الكويت ، وعاد إلى بيته حيث كان على موعد مع ملك الموت ، وعند حاول الأطباء فقد أحاطوا به حيث قال لهم أحد المقربين : لابد أن تفعلوا شيئا وكأنهم يستطيعون أن يمنعوا الروح من الخروج ، وسبحان من يقول : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .. لقد بذل الأطباء قصارى الجهد فهذا يقيس ضغطا وذاك يقوم بتدليك القلب وذلك يقف على حقيقة النبض ، ولكن :

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضاء ضاق الفضاء

ماذا يفعل الأطباء إذا انقضى الأجل ؟

إن الطبيب له علم يدل به إن كان للمرء في الأيام تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقير

ويرحم الله هارون الرشيد لما شعر بدنو الأجل ، أمرهم أن يحفروا قبره ليراه قبل أن يموت ثم أمرهم أن يحملوه إليه فجلس على شفير القبر وفاضت عيناه من الدمع ، ودعا رب العزة قائلا : « يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه » .

لقد مات جمال عبد الناصر وأدرج في أكفان القدر ، وطويت صفحة عمره ، وتنفسنا الصعداء ، وتذكرت قول الصادق المعصوم ﷺ : « إن العبد المؤمن إذا مات استراح بالموت من عناء الدنيا والفاجر إذا مات استراح منه البلاد والعباد والشجر والدواب »

الله أكبر لا شمات بميت لكن زوال القحط بشرى للورى

فسبحان قاهر الجبابرة ومحطم القياصرة ومدمر الأكاسرة ، ومبيد الأباطرة :

ولي في فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان في بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضي فتفنى جميعا والمهيمن باق

إن الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله متى شاء .

موقف حرج

مات الزعيم يوم الاثنين وطفح النفق كما تطفح الأرض بماء المجارى وأرسلوا فى المدائن حاشرين ، وجمعوا الناس لميقات يوم معلوم لتشييع الجنازة يوم الخميس ، وفى هذا مخالفة لشرع الله ، فإكرام الميت فى الإسلام دفنه .

ومرت هذه الأيام ثقيلة متباطئة ، وجاءت ساعة الدفن وأنا أجلس بجانب المذياع أترقب مصير هذا الذى كاد يقول أنا ربكم الأعلى وأوشك أن يصيح بأعلى صوته : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ وجىء به على شفير القبر وكأن القبر يناديه بلسان حاله : أيها الجبار العنيد : أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك ؟ لقد خرجت من التراب وعدت إلى التراب . خرجت من التراب بغير ذنب ، وعدت إلى التراب بكل ذنب ...

لقد ووري الجثمان الثرى وأفضى صاحبه إلى ما قدّم ، وصار رهينا بعمله وكأنى أسمع النداء من رب العزة يقول له : عبدى رجعوا وتركوك ، وفى التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ، ولم يبق إلا أنا وأنا الحى الذى لا أموت .

وهكذا سحب الدهر عليه أذيال النسيان والفناء .

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدوا بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا ... أمالك فيما مضى معتبر؟

ووري الجثمان يوم الخميس ، وجاء يوم الجمعة ، وأقبلت أفواج المصلين على المسجد كعادتها عندما يقع حدث أو تنزل نازلة تضاعف الأعداد بحيث لا يصبح هناك شبر من الأرض إلا وفيه قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد . وفى مثل هذه المواقف تنتشر كتبة التقارير فى أرجاء المسجد ، ويصبح الموقف بذلك عصيبا . فإذا كان سيدهم قد مات فإنه ما يزال يحكم من داخل قبره حتى أن علية القوم إذا مروا بقبره جيئة أو ذهابا كانوا ينزلون من السيارة ليؤدوا له التحية العسكرية أمام قبره .. ما هذه الوثنية وما تلك الجاهلية يا قوم ؟

اجعل بربك كل عز ... يستقر ويثبت
فإذا اغتررت بمن يمـ ... ـوت فإن عزك ميت

إذن فالموقف يحتاج إلى حكمة ، والحكمة تقول : ليست الشجاعة هي الثورة ، بل أن تقول الحق دون أن تسمح للآخرين أن يسلقوا على كتفيك ، إن العيون مبثوثة هنا وهناك ، والظلمة هم الظلمة ، والسجون هي السجون ولابد للمسلم أن يقول كلمة الحق لذلك كان الموضوع الذي تحدثت فيه يوم الجمعة قد استوحيته من الأحداث : فالعاقل من يأخذ من أحداث الأيام عبرة ، والدهر مدرسة أساتذتها الأيام والليالي .

يا نائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحارا

لقد كان موضوع الخطبة جوابا عن سؤال طرحته وقلت فيه : لماذا كانت صلاة الجنازة أربع تكبيرات تؤدى قياما لا ركوع فيها ولا سجود ؟ واستلهمت الحكمة وعلمت أن الجنازة توضع أمام المصلين ، فهو ركعنا أو سجدنا توهم أن هذا الركوع والسجود لذلك العظم الذي وضعت جثته أمامنا ، وجاء التكبير فيها إشارة إلى أن الله أكبر من هذا الجبار وأبقى سبحانه هو القائل : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون ﴾ .

وسبحان القائل : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ لقد جاءت هذه الآية في سورة العنكبوت بعد سلسلة من تاريخ الأنبياء مع الجبابرة ، فقد ذكر الله تعالى في هذه السورة قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط كما ذكر مدين وعادا وثمود وقارون وفرعون وهامان ، ثم حكم عليهم بالفناء ، كما شبه الذين اتخذوهم أولياء بتشبيه رائع يأخذ بالألباب فقال : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

وانقضى يوم الجمعة ، وانصرفت وفي ذهني هذه الأبيات :

نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

مصارع الظالمين

﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ وحاشا لله أن يكون غافلا ، وكيف يكون غافلا وهو الذي قال : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ . وحاشا لله أن يكون غائبا ، وكيف يكون ذلك كذلك وهو الذي يقول :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

فقد تنزه سبحانه عن الغفلة والغيبة ، ولذا قال : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ فإذا كان سبحانه وتعالى يمهل ، فإنه لا يهمل ، إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

وجميل أن يقول أمير الشعراء :

إذا ما ملكت النفوس فأبـ ـخ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ـر فكيف الخلائق العقلاء ؟
يحسب الظالمون أن سيسو دون وأن لن يؤيد الضعفاء

ولى السادات حكم مصر بعد أن هلك سلفه ، وقد كان امتداداً لمن كان قبله فى اضطهاد كل عمل إسلامى ، لقد كان عبدالناصر يجاهر بالظلم وتعشى زبانيته فى الأرض فسادا ، فإن السادات جاء فقنن هذا الظلم ، فسنّ القوانين الظالمة التى سموها فيما بعد ، سيئة السمعة ، وهى قوانين تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً . أسمعت بهذه الديمقراطية التى كان يقول عنها : « إن لها أنيابا ومخالب » إنه قول ينطبق عليه قول علماء المنطق : « سلب الشىء عن نفسه » كأن تقول : الإنسان لا إنسان ، وهو ضرب من ضروب السفسطة .

وإذا كانت الديمقراطية التى كان ينغنى بها ، كما كان يتغنى سلفه بالعزة والكرامة – إذا كان لها أنياب ومخالب ، فماذا تكون الديكتاتورية ؟ وما الفرق بينهما ؟ إنها الديكتاتورية فى أسوأ معانيها ، وشر مخازيها ومثالبها . لقد جاء يوم على هذا الحاكم قال فيه : « ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلّام للعباد » . هكذا قرأ الآية . وهى فى كتاب الله : ﴿ وما أنا بظلّام للعبيد ﴾ والذى لا يُبدل القول لديه هو الله وحده ، فهذا الوصف خاص بمن يقول للشىء : « كن فيكون » . ولكن ماذا أقول ؟ ومن بين علماء الأزهر من قال عنه : والذى نفسى بيده لو أنّ لى شيئا من الأمر لرفعت هذا الرجل (يقصد به السادات) إلى قمة لا يُسأل عما يفعل . وقد ردّ عليه الشيخ عاشور فيما سموه بمجلس الشعب وقال له : هذا كفر يا مولانا ! فقال له الشيخ الوزير : أنا أعرف بالله منك .

وذكرنى هذا الموقف بذلك الشاعر الذى دخل على الحاكم ذات يوم فقال له :

ماشئت لا ماشاءت الأقـدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقد قيل لعبدالناصر ذات يوم على لسان أحد المنافقين :

بشراى إن صلاح الدين قد عاد ... وأصبحت هذه الأيام أعياد
أجمل مالك من بين الأنام أخ ... فى الشرق والغرب ممن ينطق الضادا
لو كان يعبد من بين الأنام فتى ... كنا لشخصك دون الناس عبادا

ويوم وقعت النكسة وهى فى الحقيقة هزيمة ووكسة ، قام أحد أعضاء مجلس الأمة يرقص فرحا وابتهاجا بسلامة الرئيس ، كما غصّت شوارع القاهرة بالمصفقين والمغنين والراقصين المطالبين ببقاء الزعيم بطل المغارم وقائد ثورة الغصب والنهب والسلب ، كانوا يرقصون وهم المهزومون ، وكان الناس فى إسرائيل يحلون الحداد ويصلون على قتلاهم ، فاعجب معى لشعب منهزم يرقص ، وشعب منتصر يندب قتلاه .. إنه الفرق بين الإحساس بالمسئولية والبلاهة بالبلاهة . كانت إسرائيل تنادى بالسلام وهى تستعد للحرب ، وكنا ننادى بالحرب دون أن نستعد لها فوقعت الواقعة ، وكانت خافضة رافعة . لقد طفح النفاق ، وكثر المنافقون ، وحملة القمائم . حتى وقف أحد المدرسين الذين كان السادات تلميذا عندهم يقول فى أحد المحافل أمام سيده السادات « إن فى خلق السماوات والسادات لآيات لأولى الألباب » ثم أضاف قائلا : لقد منح الله سيدة مصر الأولى نصف الجمال ، ونعم النصف الآخر على نساء العالمين .

إن المنافقين فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع وقت السراء وسوس ينخر فى عظام الأمة أوقات الضراء ، يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ .

وجاء اليوم الذى قدّم فيه أحد أعضاء مجلس الشعب اقتراحا بأن يُطلق على السادات لقب « سادس الخلفاء الراشدين » وقال له أحد كبار المسئولين فى الولايات المتحدة فى خطاب ألقاه فى أحد المؤتمرات : إن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام اختص منها يوما خلق فيه المسيح بن مريم وأنور السادات .. والعجب فى هذا الكلام أن هذا المغرور يصدق هذا الهراء . لقد قالوا قديما فى الأمثال : إذا كان المتكلم مجنونا فليكن المستمع عاقلا . ولكن صاحبنا هذا كان أشد جنونا من المتحدث فقد قال للوفد الذى كان يرافقه فى تلك السفرة : « انشروا هذا الكلام فى الصحف المصرية عندما نعود » . ولكن شاء الله ألا ينشر هذا الكلام فى مصر حتى لا يصاب الناس بصدمة تتعلق بالعقيدة وهى أغلى ما يملكه المسلم . ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون** ﴾ .

وأعجب معى لهذا الذى كان يتشدق بالديمقراطية ويهدد بأن لديه مفرمة ، وأن من خالف أمره واتبع غير سبيله فسوف يفرمه . والمعروف أن المفرمة إنما عُدّت للحوم الحيوانات ، ولكن الرجل لما كان مطموس البصيرة قاسى القلب ، أصبح لا يميز بين لحم ولحم . وشاء ربك أن يجعل بين هذا الحاكم وبين أقطاب الظلم يوما سموه « ثورة التصحيح » ولم يكن فى حقيقته كذلك ، إنما كان فى الحقيقة « يوم الصراع على السلطة » ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ . وكان هذا اليوم يوافق الخامس عشر من شهر مايو ١٩٧١ ، تآمر كل من الفريقين على الآخر فكان الصدام العنيف : فريق مراكز القوى (كما أطلقوا عليه) وعلى رأسه شعراوى جمعة ، وفريق على رأسه السادات . وشاء ربك أن يذوق هؤلاء الزبانية مرارة الكأس وسوء المصير وأن يدخلوا السجون التى دخلها أصحاب الدعوات فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان « ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

« نائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحارا

لقد سيق الظالمون إلى السجون ، فذاقوا وبال أمرهم : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذّابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ .

لا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولو قرب منك .

سزالت الأيام شيمتها الغدر وبعد صفو الليالى يحدث الكدر

فاسألوا التاريخ عن جبابرة العالم . اسألوا التاريخ عن هتلر وموسولينى ، ولينين ، وستالين ، وجانكيز خان وهولاكو ، وعبدالناصر وشاه بيرن ، وكمال أتاتورك . وعن فراعنة مصر أين هم ؟ ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ .

الأحقاد تتحرك

قد يختلف بعض الظالمين مع بعض ، ولكن تزول الخلافات ويتحد الجهد إذا كان العدو هو الإسلام . لقد سارت مواكب الدعوة الإسلامية فى المسجد سيرا أحمد الله عليه ، فأصبح الناس يملئون كل فراغ يحيط بالمسجد ، وأقبل المسلمون بمسجلاتهم يسمعون

ويسجلون ، يأتون رجالا وراكبين وقلوبهم تطير من الفرح ، فقد صارت صلاة الجمعة عندهم عيداً إسلاميا حقيقيا ، يلتقي فيه الأحباء والأخلاء الأتقياء يتعارفون على محبة الله ويلتقون على طاعته جلّ في علاه .

وذات يوم من أيام عام ١٩٧١ فوجئت بعد صلاة العصر بثلاثة من المسئولين عن الدعوة في وزارة الأوقاف ، يدخلون في غرفة الإدارة ويقولون لي : لقد جئنا من قبل السيد الدكتور الوزير (وكان من شيوخ الأزهر بعدما ترك وزارة الأوقاف) قلت : خيرا إن شاء الله . قالوا والشماتة بادية في كلامهم وتكاد الفرحة تعقد ألسنتهم ، قالوا : إن السيد الوزير أصدر تعليماته إليك بأن تؤدي خطبة الجمعة القادمة في مسجد الظاهر بيبرس وسوف يصلي الجمعة هناك . وسألت : لماذا لا يصلي معنا هنا ؟ قالوا : لأن المسجد هناك أوسع وأرحب . قلت : وهنا أيضا أرض الله واسعة . وقلت : إنني إذا تركت المسجد يوم الجمعة ، وفوجيء رواد المسجد بهذا فسوف تكون هناك فتنة وشائعات ، وقد يُخطَأ الحساب ، فتأتي أوخم العواقب والفتنة نائمة ، ونسأل الله العافية . قالوا : لا شأن لنا ، فنحن مأمورون بكتابة هذه الاشارة في دفتر الأحوال ، ومن حقك أن تذهب إلى الوزير وتناقشه في هذا الأمر .. وكتبوا الإشارة وكان نصها : « على إمام المسجد أن يؤدي خطبة الجمعة بمسجد الظاهر حسب تعليمات السيد الدكتور الوزير » . ثم طلبوا مني أن أختم بالموافقة ، ولكني أبيت ، فقد كنت موقنا بأن الله سيجعل بعد عسر يُسرا ، وقد استقر في يقيني أن الأمر أشد من أن يكون خطبة في أحد المساجد الأخرى ، وألحوا عليّ أن أختم ، فقلت لهم : من حقكم أن تكتبوا ماتشاءون ، ومن حقي ألا أوافق على ما تكتبون . فانصرفوا ، وكان هذا يوم الأحد وكنت قد تهيأت لإلقاء درس المساء بين المغرب والعشاء ، وأحطت المصلين علما بما حدث ، وقد تعمدت ذلك لأنني أعلم أن هؤلاء الذين أصدروا هذا الأمر كانوا يودون أن تُقضى الأمور في طي الكتمان ، ويقلقهم أن يُحاط المصلون علما بمثل هذه المؤامرات ، والله لا يهدي كيد الخائنين .

وبعد أن صلينا العشاء صافحني أحد المصلين وقال هامسا في أذني : اطمئن فلن تُنقل من هذا المسجد ، وسوف يعتذر الوزير عما فعل ، وسألته : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : عبد من عباد الله . قلت : سبحان الله ، وما يعلم جنود ربك إلا هو . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ فقد وقف العضوان الممثلان للمنطقة في مجلس الشعب يندّدان بهذا العمل ، ويحملان الوزير مسئولية ما سيحدث من فتن إذا أصرّ على أمره ، وطارت البرقيات إلى المسئولين . وفي يوم الأربعاء من نفس الأسبوع جاء الذين كتبوا الإشارة ليكتبوا إشارة أخرى تنسخها ، وخطبت الجمعة في مسجدي الذي كان يعتبر قلعة شامخة في منطقة « دير الملاك » .

لكنى أردت أن أعرف ماذا وراء هذه الإشارة التى أراد بها الوزير أن يقلنى من مسجد زرعت فيه زرعا فأخرج شطأه فآزره وأراد أن يقتلعنى قبل أن يستغلظ هذا الزرع ويستوى على سوقه ؟ ما هو الدافع إلى هذا ؟ والناس يأتون من أقصى محافظات القطر زرافات ووحدانا . يأتون وهم يعلمون أن لهم بكل خطوة يخطونها إلى بيوت الله رفع درجة ومحو خطيئة وكتابة حسنة .. وطلبت من أحد رواد المسجد وكان صديقا للوزير أن يسأله : ما هو الدافع وراء تلك الإشارة ؟ وسمعته بنفسى وهو يحدثه فى أسرة فقال له الوزير : وهل يعجبك يا أحمد بيه جلوس الناس فى الشوارع ؟ فرد عليه قائلا : كل المساجد هكذا يوم الجمعة . ثم سأله قائلا : يا فضيلة الوزير هل كان المقصود بتلك الإشارة أن يخطب هذه الجمعة فى مسجد الظاهر ثم يعود إلى مسجده ؟ فأجابه الوزير : لا . لقد أردت أن يثقل فى المساجد وأن يذهب فى كل جمعة إلى مسجد .. واتضحت المكالمة ، وعلمت أن المقصود من هذا تمزيق الصف وتشتيت هذا الجمع الذى يأتى كل أسبوع ليستمع إلى منهج المتكامل الذى أصبح دعوة منهجية لابد فيها من التسلسل والشمولية ، فقد ألفت هذا المنهج على أسس أهمها : التلاوة والقصة وتحديد الموعظة والضرب على الأحداث والحديد ساخن .. ولكى يكون هناك منهج لابد أن يكون هناك اتصال فى الحديث ، وهكذا أرادوا تمزيق هذا الجمع ، ولكن يد الله تعمل فى الخفاء والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عقارب البغضاء

لم يكن هذا الموقف الذى هُزم فيه الوزير هو مَرَّ السحاب ، بل لقد ترك فى نفسه جرحا غائرا فأراد أن ينتقم لنفسه ، والنفوس إذا حقدت أظلمت وعميت عن الحق ، وصار صاحبها لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أملته من هواه ، لا يسمع إلا نفسه الأمارة ، وإن لنعم الله أعداءً وهم الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

ألا قل لمن بات لى حاسدا ... أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه ... وأنك لم ترض لى ما وهب
فكان جزاؤك أن حصّنى ... وسد عنك طريق الطلب

إن الحسد إذا غزا القلوب ، أشعل فيها نار العداء ، وهيج جحافل الحاسد كفيلقات فى بحر حتى يشتد موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا ، فما له من نور .

صبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

توالت الاستدعاءات ، فكلما خطبت خطبة يوم الجمعة ، جاء الاستدعاء يوم السبت ، وكان التحقيق يوم الاثنين .. هكذا من كل أسبوع واختلفت أنواع التحقيق وتعددت أساليبه ، فمرة تكون التهمة الموجهة إليَّ أنني أثير الفتنة الطائفية لأن المسجد يقع في منطقة دير الملاك وهي إحدى قلاع الصليب ، وسألت : ما هو الكلام الذي أثار الفتنة في الخطبة ؟ وقال المحقق وكان يعمل وكيلا لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة : إنك تتعمد ذكر الآيات التي تتحدث عن النصارى . قلت : أليست قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة ؟ وذكرني هذا الموقف بموقف أهل العناد من صاحب الرسالة وقد طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن ، يحزن الرسول لذلك ، فأنزل الله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ .

وقال الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾

وأخبرني السيد المحقق بمقررته الفذة وفهمه العميق وبصيرته النافذة : عليك أن تصعد المنبر ، ولكن تربعنا وترجلك اجعل موضوع خطبتك : قل هو الله أحد ، ثم انزل وصل بالمصلين .. وقلت له : لو كان ذلك كذلك ، لوجهتم إليَّ نفس التهمة وهي إثارة الفتنة الطائفية ، ولتعمقتم في مذكرة الاتهام : إنه يقرأ سورة الإخلاص ويقصد بها التعريض بالنصارى المثلثين .. وبدت لا جدوى من هذا التوجيه ، فاللغة بيننا هي لغة الذئب الذي قال للحمل : عكرت عليَّ الماء ، وماذا يصنع أهل الحق بقوم لبسوا جلد النمر ، وقلبوا ظهر المجن ، ولكني لا بد أن أتسور الغصة وللذئاب تعوي . وهل يضر السحاب نبح الكلاب . إن كلمة الحق أقوى من كيد الكائدين وهي أشد بأسا وأشد تنكيلا .

عمر بن الخطاب

لم أكن يوما أتوقع أن يصل بهم الإسفاف إلى هذا الحضيض في سلسلة الاستدعاءات وصلت إلى حتفي نفسه ، وإذا التهمة الموجهة هذه المرة يُقال فيها : إنك تتحدث كثيرا عن عمر بن الخطاب ، وأي شيء في هذا ؟ وقد قال عبدالله بن عباس : أكثروا من ذكر عمر ، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل ، وإذا ذكرتم العدل فقد ذكرتم الله ، فإنه هو المقسط الحكم

العدل . ألم يقل فيه رسول الله ﷺ : « لو كان فيكم محدثون لكان عمر ؟ » فالمقصود بالمحدثين أهل الإلهام . ألم يقل عنه رسول الله ﷺ : « لو كان نبي بعدي لكان عمر » ألم يقل له : « أنت سراج أهل الجنة يا عمر وليكن الإسلام على مونك ؟ » ثم ألم يقل عنه : « إن عمر وجل ضرب الله الحق على قلبه ولسانه ؟ » . فأي شيء في الإكثار من ذكر عمر ؟ . قال المحقق الخصيف الأريب : إنك تقصد بذلك التعريض بالحكام . قلت: إذن فلا داعي إلى أن أذكر شيئا عن عدالة الإسلام ، ولنضرب صفحا عن ذكر حياة رسول الله وأصحابه فإن في ذكرهم تعريضا بالحكام كما تزعمون . ولماذا تفهمون هذا الفهم ولو كان فيه تعريض أو تصريح أليس الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر من مبادىء الإسلام ؟ وما وظيفة العالم إذا لم يكن ناصحا ومرشدا ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؟ » ألم يقل : اثنان إذا صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء ؟ . إن العالم يجب أن يكون كما قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكما قال جل شأنه : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا ﴾ .

وتاريخ الإسلام ملىء بمواقف العلماء من الأمراء . قال عمر بن عبدالعزيز ذات يوم للحسن البصري : عظنا يا تقي الدين وأوجز فقال له الحسن : « يا أمير المؤمنين : صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة » .

وهكذا وقف أهل الدعوة موقف الناصحين الأمناء يوجهون وينصحون لاينتظرون من وراء ذلك كرسيا زائلا أو منصبا فانيا ، إنما كانوا كما قال الله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ .. هؤلاء هم أصحاب الرسالات ، لم يبيعوا آخرتهم بدنياهم ، ولم يبيعوها بدنيا غيرهم ، لم يسعوا ولم يلهثوا وراء الشهرة والكراسي المزورة ، إنما باتوا على الطوى وقالوا : « نحن في سعادة ، لو علمت بها الملوك ، لجالدتنا عليها بالسيوف » .. ويوم يتردد العالم على باب الأمير ، فإنه متهم في دينه ، ويوم يصير هواه تبعا لهوى الحكام يحل ويحرم إرضاء لأهوائهم ، فإنه قد وقع فريسة للشيطان بل صار أستاذا له . قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل ، الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ .

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سوّاك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعدّ به ... وكن عفيفا وعظّم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وعيد وإنذار

فى يوم من أيام شهر رمضان ، والحر لاهب ، والصيف قائظ ، والأنفاس لاهثة ، والظمأ شديد ، ذهبت إلى الوزارة للتحقيق معى ، وكان هذه المرة أمام رجل يشغل منصبا سموه : « مدير مكتب الأمن » وكان يعمل من قبل فى سلاح الطيران ، وخرج منه برتبة اللواء ، ولم يكن خفيفا بمعنى الكلمة ، إنما كان وعيدا وإنذارا وتهديدا . استعرض الرجل فيه عضلاته أكثر من عقله وتصوره أمامى سرابا بقيعة لايثبت أمام الحقيقة ولا يصمد للأحداث . وبعدما أفرغ كل ما فى جعبته من فحيح وسموم ، قلت له : إننى سأتركك وبين أصابعك قلم وأمامك أوراق ، فاقض ما أنت قاض ، واكتب ما تشاء فإنك لن تغير من المقادير شيئا ، لقد هددنى بالاعتقال والسجون وخيّل نفسه قادرا على كل شىء ، وخلع على نفسه ثوب الأسد المغصور وهو فى الحقيقة فأر صغير ، وكان مثله كمثل البعوض التى قالت للنخلة : أيها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك قالت النخلة : والله ماشعرت بك إذ وقعت علىّ ، فكيف أشعر بك وأنت راحلة عنى .

لقد كنت أستمع إلى تهديداته فأستحضر قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ ولما همست بالانصراف إذا به ينتفض ويربت بيده على كتفى ويقول : هل ستذكر هذا الكلام للمصلين ؟ فلت له : إذا وفقنى الله فسوف أعرضه كما حدث ، وإذا به ينقلب من مهدد إلى متوسل ويقول : أرجوك ألا تذكر شيئا من هذا واعتبر كأن شيئا لم يكن . ثم أراد أن يلقننى الكذب فقال : فإذا سألك سائل : لماذا جئت إلى هنا ؟ فقل : جئت لأتسلم جدول الخطب والدروس فى رمضان .. وهكذا كما جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . فمتى كنت أذهب لأتسلم الجدول ؟ ومتى كنت أذهب لأتلقى التوجيهات الخاصة بالخطب ؟ إن الخطبة يجب أن تكون موجهة (بكسر الجيم المشددة) فإذا صارت موجّهة (بفتح الجيم) أضحت لا تسمن من شبع ولا تغنى من جوع .

وعـــد وإغـــراء

لما لم يجد الوعيد ولم ينفع التهديد لجئوا إلى أسلوب الإغراء ، ولكن أى إغراء ؟! لقد فوجئت بالسيد وكيل الوزارة يجلس بجانبي وقد تغيرت فجأته من محقق حازم إلى أخ ملأت قلبه الشفقة والرحمة بي فقال لى عبارة معسولة شممت منها رائحة الخديعة التي تزكم العقول قبل الأنوف . قال لى هامسا : إنك مطلوب بالاسم للسفر إلى ليبيا ثم أضاف مازحا : (وبيني وبينك فيها قرشين كوبسين) فإذا كان الحكم معك فاحكم بالموافقة وسوف نقوم بتجهيزات السفر وتيسير إجراءاته وأنت مستريح . ورددت على الفور : لست فى حاجة إلى مال يأتى من وراء المتاجرة بالعلم ، ولو كان معي الحكم ما وافقت فقال مستنكرا : أترفض السفر إلى ليبيا ؟ ولى أحد أقربائى قد بذلت فى سبيل سفره قصارى جهدى ومع ذلك لم أستطع أن أيسر له السفر ، وهذه فرصة إن لم تغتنمها ندمت على فواتها ، فقلت : إننى مستعد أن أتنازل لقريبك هذا عن سفرى ، إن أمكن ذلك ، وأنا بهذا غير متألم ، بل أكون قرير العين مطمئن النفس ، فقال : عجبا لك ، أليس معك أولاد ؟ قد يكونون فى حاجة إلى هذا السفر ، فقلت له : إن الله تعالى قد كتب لنا الأرزاق ، ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا . وتذكرت قول رسول الله ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

إن الروح والرزق لا يملكهما إلا الله ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .. وأخ الرجل فى الغرض ، وصممت على الرفض ، والظاهر – والله أعلم – أنه كان مضغوطا عليه ليقنعنى بالسفر حتى يستريحوا من وجودى فى مصر داعيا إلى الله ولم يقتنع الرجل بالرفض ، فقال : لن أرسل بريدك إلى المسئولين لأننى سأعطيك فرصة أخرى ، وانصرفت وانتهت المقابلة .

عـــود على بـــدء

وفى لقاء آخر أعاد الرجل علىّ العرض ، وذكر لى أن الراتب الذى سأتقاضاه فى ليبيا يعادل راتبى هنا عشرين مرة ، فقلت له : اسمع هذه القصة : سألوا الحسن البصرى – رضى الله عنه – عن سر زهده فى الدنيا فقال : أربعة أشياء : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأنّ قلبى ، وعلمت أن عملى لا يقوم به سواى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحيت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت يتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله .

لا تعجلنّ فليس الرزق بالعجل　　الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا　　لكنه خلق الإنسان من عجل

إن شر ما يُبتلى به الإنسان أن يصاب بعقدة الخوف من المستقبل فيعيش في قلق ، وبخيا في فزع ، فيصير كما يقول القائل :

ليس من مات فاستراح بميت　　إنما الميت ميت الأحيـــــاء
إنما الميت من يعيش كئيبـــا　　كاسفا باله قليل الرجاء

إن الرسول ﷺ أقام مملكة السعادة في النفس عندما قال : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

نعـم :

النفس تجزع أن تكون فقيرة　　والفقر خير من غنى يطغيا
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيا

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرءون القرآن بتدبر ، فيقفون عند عجائبه ، ويحركون به القلوب ، أصبحوا وهمهم الآخرة ، فجمع الله عليهم شملهم ، وجعل غناهم في قلوبهم ، وأتتهم الدنيا وهي راغمة . كانوا إذا قرءوا قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ كانوا إذا قرأوها ظلوا يبكون ، ويسأل كل منهم نفسه : من أي الفريقين أنا ؟ أمن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أم من الذين اجترحوا السيئات ؟ لذا حيت هذه الآية : بكاءة المؤمنين . لقد علموا أن من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس . ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . لقد عرفوا حقيقة الدنيا فعاشوا في قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، فإذا مرّ بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

لقـاء غاضـب

ما أشد غضب هؤلاء الذين هاجت عقارب البغضاء في صدورهم فصدوا عن سبيل الله بعدما باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ما أشد غضبهم على أهل الحق وما أكثر أذاهم للذين

يؤدون الدعوة إلى الله على أنها رسالة يبتغون بها وجه الله مصداقا لقوله جل شأنه :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

ومصداقا لقوله تبارك وتعالى : **﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ .**

لم يجد الوعد والإغراء بالمال عادوا إلى عادتهم وسيرتهم الأولى فكشروا عن أنياب الغضب وأوعدوا وهددوا ، وذات يوم صائف شديد القيظ كأن شمسه أشرقت من بين الرمال لا من بين السحب ذهبت إلى ديوان الوزارة للتحقيق بناء على استدعاء وصلني وكان على رأس الدعوة شيخ فصيح اللسان ولكن قلبه لم يكن كفصاحة لسانه بل كان يخشى على كرسيه ومررت عليه في الوزارة قبل أن أدخل على السيد المحقق وهو وكيل الوزارة مررت على الشيخ بصفته ممثلا للدعوة وعرضت عليه أن يحضر هذا التحقيق ليكون حكما بيني وبين هذا الإنسان الذي لا يعرف للعلم كرامة ولا للعلماء احترامًا ولكن الشيخ اعتذر عن حضور بلباقة وذلك حتى يجامل الوكيل حرصًا على كرسيه وهو الذي كثيرا ما سمعناه يصرخ على المنابر ويصيح كالأسد الهصور مناديا بأعلى صوته قائلا « إن الفضيلة تذبح .. إن الإسلام يحارب .. إن الباطل يعربد في عرصات الدنيا » الكلام سهل والبلاغة مواتية والبيان والبديع .. والفصاحة والمعاني .. كلها بين يديه .. ولكن إذ نزل أحدهم ميدان التجربة اصفر وجهه وجلًا ، وفر من الميدان فراره من الأسد ، وهذا ما حذر منه صاحب الرسالة العصماء صلوات ربي وسلامه عليه في قوله : **« أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن »** .

مهما يكن من شيء فقد دخلت على المحقق وقد أحضر معه شيخين من شيوخ الأوقاف لهما مكانة في إدارة الدعوة وكان السؤال هذه المرة .

- لماذا تهاجم الإعلام ؟

وقلت إن الإسلام لا يعرف الهجوم لأن الهجوم من صفة الباطل لكن الإسلام يعرف الدعوة إلى الحق وتصحيح المفاهيم المنحرفة ، ولقد انحرف الإعلام عن سبيل الهدى ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، فبدلا من أن يكون عامل بناء صار معول هدم ، وهو سلاح له خطره ، حتى قال أحدهم أعطني شاشة أعبر بها شعبا ، وكان كارل ماركس يقول : لأنسين الناس الله بالمسرح ولو كان في عصره الإعلام المرئي لكان أشد خطرا وأبعد أثرًا في الفساد والإفساد .

فأى شىء فى الدفاع عن الحق أو عندما يرفع أهل الباطل أصواتهم تستمع وتنصت فإذا ما انبرى لهم أهل الحق يؤذون ويستجوبون ؟!

أمن العدل أنهم يردون الـ ماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الـ أسد منهم وأن تقيد أسدى؟!

وما أن فرغت من الإجابة حتى رأيت السيد المحقق يثور ويفور ويتوهج ويتأجج كأنه لديغ نهشته الثعابين أو لدغته العقارب فقلت له : أرجو أن تغير أسلوبك فى التفاهم فلست عبدًا لك ، ولا لغيرك إنما عبوديتى لله وحده ، لا شريك له ولا أسمح لك أن تضرب على المكتب بيديك ، لأننى لست متهما وأنت البرىء ، ولست منحرفا وأنت المستقيم ، فأنا على حق ، لذلك فإننى لا أخشاك ، وسوف أتركك عما قليل ، فاقض ما أنت قاض فالحكم لله العلى الكبير !

ونزلت هذه الكلمات عليه كأنها الصواعق خاصة وأن المكان كان به عدد غير قليل من العاملين بالوزارة فرجع إلى صوابه ، بعدما علم أنه سيقابل بكل ما يقول برد حاسم ، وكعادة الباطل يرجع فى الشدة إلى الاستشارة كما حدث من فرعون عندما قال لمن حوله : فماذا تأمرون ؟ ومتى كان يستشير أو يأتمر ؟! وهو الذى قال : ما أريكم إلا ما أرى وقال : أنا ربكم الأعلى وقال : ما علمت لكم من إله غيرى ، ولكنه لما رأى العصا أمامه شعر بهزة عنيفة فى عنفوانه وبتحطيم وخزى داخل نفسه المستكبرة فرجع يستشير ،

هكذا نظر السيد المحقق إلى الشيخين اللذين استدعاهما لحضور هذا اللقاء الغاضب وقال لأحدهما : ما رأى فضيلتكم فى هذا الكلام الذى سمعته ؟ وكان يظن أن الرجل سيجامله ويؤيده ويصفه بالحكمة والحزم لكن الرجل بحق كان على مستوى المسئولية أمام الله فقال له : ما كان ينبغى أن يأخذ التحقيق دور الخصومة بينك وبين هذا الإمام الذى يدعو إلى الله على بصيرة !!

فبهت وخفت صوته وخبأ جبروته فتوجه بالسؤال إلى الشيخ الثانى يستشيره الرأى فقال له الشيخ : ومن الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لم يكن الدعاة إلى الله هكذا ؟!

ثم قال له إن الرجل لم يتجاوز حدود الرسالة ثم ساق له الحديث النبوى الشريف :

« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

واستطرد قائلا : لو وضعنا الأمور فى نصابها وسميتا الأشياء بأسمائها لقدمنا لهذا الإمام الشكر جزاء ما حمل عنا هذا العبء فى الدعوة ؛ فإن الخير يجب أن يقابل بالخير ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان !!

ثم قام الشيخان وعانقانى ودعوا الله لى بالتوفيق والسداد وشعر ذلك الخفق بانطفاء فى قلبه وكأنه يجلس على الأشواك واخصى ، نظله سحابة دكناء ونجم يحترق !!

لقاء عاصف .

فى يوم من أيام شهر أغسطس والشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، وقد سال منها لعاب كالهلهل يشوى الوجوه ، توجهت لمنحقيق بدعوة من وزير الأوقاف وكان شيخا معمما ولما ذهبت إليه قيل لى : إنه قد سافر إلى مدينة الاسكندرية فلت سبحان الله فوم تهب عليهم نسمات البحر تحمل فى ثناياها قطرات الندى معطرة بأعراف الزهر وقوم يلفحهم قيظ الهواجر من فيح جهنم لكن وكيل الوزارة أرسل إلى من يقول لى : إن السيد الوزير قد كلفه بأن يحقق معى ودخلت للتحقيق وقد أحضر حوله بطانة تؤيده فيما يقول وتؤمن على كلامه .

وكانت التهمة الموجهة هذه المرة : إننى رددت على الذين أرادوا أن يعدلوا قوانين الله فى أحكام الأسرة والمتعلقة بالزواج والطلاق ولما بدأت أتحدث وأرد دخل فى الحديث شخص غريب على التحقيق وسألنى ما شأنك ؟ فقال وكيل الوزارة ألا تدرى من هذا ؟! إنه المسئول عن الأمن فى الوزارة فقلت : إن المسألة علمية لا تتعلق بالأمن إنما تتعلق بأحكام الله ولا شأن له بذلك وكانت العاصفة كرماد اشتدت به الريح وأوعد وهدد كعادته ، وانصرفت من عنده وأنا أعلم انه قد بيت شرا مستطيرا ولكن الله غالب على أمره .

عبدالحميد كشك

المجلد السادس

من كتاب

قصة أيامى

عبدالحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

استدعاء بسبب القذافى

كان الخلاف محتدما بين حكومتى مصر وليبيا ، وكان بالطبع خلافا سياسيا وقد حدث أن حاكم ليبيا تعرض للإسلام فى أمور كان لابد من الرد عليها ودفع به ذلك الجموح أو الجنوح إلى أن ينكر الاستدلال بالسنة النبوية الشريفة . ولقد سمعته بأذنى رأسى عن طريق الإذاعة يقول هذا الكلام الذى فيه استهانة بسنة خير الأنام ، بل لقد قال كلاما لا يليق بصاحب الرسالة العصماء .. وكان لابد أن يقول المنبر كلمته ؛ ليرد الحق إلى نصابه ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

وألقيت خطبة بيّنت فيها مكانة السنة من القرآن الكريم ، وأنها بمثابة المذكرة التفسيرية لآيات الكتاب ، كما أنها تأتى مؤكدة لما فيه من معان ، كما تأتى مفصلة لما فيه من مصطلح ... وكان ذلك كله بتوفيق من الله وفضله لكن الأمر الذى لم أكن أتوقعه أن يصلنى استدعاء كالعادة ، وذهبت لأقف على حقيقة هذا الموضوع فكان الاستجواب خاصا بمهاجمة القذافى ... لماذا تهاجم العقيد ؟ فقلت : وأى شىء فى هذا ؟ إنه ليس هجوما كما تدعون وإنما هو دفاع عن الحق . لقد كان الأولى بهذا السؤال أن يوجه إلى إعلامكم بمختلف قنواته

مقروءاً أو مرئياً أو مسموعاً أو معروضاً .. قالوا : ولكن تلك قنوات شرعية . قلت : بل هي قنوات قانونية ، أما القنوات الشرعية فهي المنبر الذي ينطق بلسان الإسلام .

وعجبت : أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس ؟

أو كما يقول القائل :

إذا قلت يا ليل استظلتم سيوفكم وإن قلتم يا هند استجبتم مقالي

أ إذا قال غيري ترددون قوله بشتى اللغات ، فإذا نطق الإسلام ونطقه الحق وقوله الصدق يوضع في قفص الاتهام ويكبل بالقيود والأغلال : ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين .

لكنني علمت أنها سياسة الذئب مع الحمل ، ورددت قول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

أمن العدل أنهم يردون الـ ـماء صفواً وأن يكدر وردي ؟!

أمن الحق أنهم يصفون الـ ـأسد منها وأن تقيد أسدي ؟!

عالم يخشى الله

ذلكم هو الشهيد الشيخ محمد حسين الذهبي ، تولى وزارة الأوقاف وفوجئت بعد توليته الوزارة بأنه يطلبني للالتقاء به في الوزارة وذهبت إلى هناك وفي نفسي أفكار وأفكار : إن الرجل لم يمض على توليته إلا وقت قليل ، فهل استطاع المغرضون أن يعكروا ليصطادوا وأن يسعوا بالوقيعة بيني وبينه ؟ لكنني لما التقيت به رأيت فيه الشهامة والرجولة وكرم الأخلاق ، فما أن علم الرجل بقدومي عليه حتى قام إلى باب غرفة المكتب واستقبلني بحفاوة تدل على أن العلم رحم بين أهله ، وأن الإيمان هو خير مؤلف للقلوب . قال تعالى : ﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ .

وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث فيما بيننا ، وأقسم بالله على أنه ما جاء في إليه إلا لأنه ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ليلقاني هناك لكن لشدة الزحام وضيق المكان لم يجد مكانا يصلي فيه ، فصلى على درج السلم . وكان اللقاء طيبا مثمرا ، فقد كان يدور حول منهج الدعوة إلى الله ، وبين الخطوط الأساسية لهذا المنهج ، وأهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعية .

والأمر الذي جعلني أشهد لهذا الرجل بالشهامة أنه حرس الهاتف دق في مكتبه وكان المتحدث من مجلس الوزراء ، وفهمت من الحديث أنه يقول : إن مجلس الوزراء قد اجتمع

نعليك بالحضور ، ورد الرجل بصرامة لا تنقصها الصراحة وقال : إنني في مقابلة مع « الشيخ كشك » ولا أستطيع أن أحضر حتى تتم تلك المقابلة ، ورأيت من الواجب أن أستأذن .. ولما هممت بالانصراف وقف الرجل مودعا واستغرق في الوداع وقتا وصلنا فيه من الحديث ما كان قد انقطع ، وكأنه لا يريد لهذا اللقاء أن ينقضي لولا الضرورة . وسألني الرجل الدعاء فدعوت الله له أن يكثر من أمثاله ، فأمثاله قليل ، فالرجولة عملة نادرة والرجال قليل .

جامعة المبا

فوجئت بالسادات يهاجمني في أجهزة الإعلام ويقول في كلماته وباللغة العامية « والأحمر من كدة إنهم استدعوا الشيخ كشك وبالم حضر قاموا بالمظاهرات » ثم ختم هذا الكلام بكلمة لم أحضر مثلها وحتى كتب صحيح الأقاصي . قال : « وانتم عارفين الشيخ كشك بيعمل إيه ، وبيته بين هنا أعمل .. إن عملي - ولله الحمد والمنة - كان تمام ، ومع الله ، وبالله ، ﷺ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت ﷺ . ليته وضح بدة أعمل ، لكنه ترك العبارة هكذا مبهمة ، لتذهب فيها النفس كل مذهب ، ولكن خمنت ، كنت أؤدي عملي بإخلاص طالعة ، وعلى مرأى ومسمع من الناس فعلام كنت أعمل ؟! إن الذين يحاولون أن يثيروا التراب على السماء سوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هي السماء ضاحكة السن بسامة المحيا ، لقد أثارت تلك الكلمة التي قالها محاربو الناس عني ، وظنوا أنني لا محالة سأغتال عما قريب ، وأردت أن أبعد تمام الوسوسين عن صدور الناس ، فكان ذلك يوم الجمعة فقد خصصت الخطبة يومها على الكتف على سيدنا وعشت فيها بين بيتين كريمين ، عشت فيها مع خليل الرحمن إبراهيم عندما ألقوه في النار ، وانطلقت ألسنتها بتلك حجاب الخليل ، وحاءه الأمين جبريل وقال له : ألك حاجة إلي يا خليل الرحمن ؟ فقال : وكيف أحتاج إليك وأنت الذي أرسلك ؟ أما لي حاجة إلى الله وحده ، قال له جبريل : إذن فاسأله . قال الخليل : حسبي بسؤال علمه بحالي . حسبي الله ونعم الوكيل . وكان الخليل يردد هذه الكلمة عندما ألقي في النار . فهي أمان حقاً .. لقد ظل يستشهد بموقف رسول الله ﷺ عندما طلب منه عمه أبو طالب أن يدع هؤلاء القوم وشأنهم فاغرورقت عيناه بالدمع ، وقال كلمته التي سارت بها الركبان من تعب الحوان و حتقب حديثان . قال : يا عمي . والله لو وضعوا الشمس في

يميني والقسر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك دونه .
فقال له عمه أبوطالب : يا بن أخي لقد ما شفت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا ثم أنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

استدعاء من وزارة الداخلية

استدعاني النبوي إسماعيل وزير الداخلية ، ودهشت إلى مبنى الوزارة وأخذ يذكر لي ما حدث في جامعة المنيا ، وهو الموضوع الذي ذكره السادات في خطابه وأخبرني بأن الجامعة أرادت أن تقيم حفلا ساهرا يقوم فيه بعض المغربين بالغناء ، ولكن الطلبة المتدينين رفضوا إقامة هذا الحفل وقاموا بتوزيع إعلانات كتبوا فيها أن الشيخ كشك سيحضر إلى الجامعة لإلقاء محاضرة دينية . ثم أضاف الوزير قائلا : ونظرا لذلك من رصيد في قلوب الناس فقد اجتمعت حشود غفيرة وتوافدت الكتل البشرية من جميع محافظات الصعيد على مبنى الجامعة ، فقام بعض الطلبة وأعلن أن الشيخ كشك كان في طريقه إليها لإلقاء محاضرته ، ولكن رجال الأمن منعوه فانفجر الموقف وطافت مظاهرات بشوارع المدينة ، ورفعت التقريرات إلى رئيس الجمهورية بما حدث ، فقلت له : ولكني لم أعلم شيء من هذا ؟ فلم توجه إليّ دعوة ، ولم أسافر ، ولم أمنع ، فكيف تُكتب عني هذه التقريرات دون أي علم مني بما حدث ؟ والله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ . فقال لي النبوي إسماعيل : « إنني من جهتي سأقوم بتصحيح ما حدث لدى رئيس الجمهورية » .. وعلمت أنه كلام لا مضمون له إلا أنه يقصد به تهدئة الخواطر ، وانصرفت وأنا أردد هذه الكلمات : « حسبي الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » فقد استقر في يقيني أن هناك شراً يُبيّت إذ كيف يحدث هذا الذي كُتبت عنه التقريرات دون أن يعلم صاحب الشأن شيئا عنه ؟ إن هذا لشيء يُراد . لقد بلغ من المأساة أن يقول السادات عني ما ليس له به علم ، أليس من الخطأ الجسيم أن يقول الإنسان ما لا يعلم ؟ وأن يُعلّم قبل أن يتعلم ، ولا يخاف أن يأثم وإذا أثم لا يندم ، سبحانك هذا بهتان عظيم!! وكم في السجن من مصومين وكم في هذه الأرض من ظالمين وسيحاسب من سيقول للمظلوم يوم القيامة : أيها المظلوم تقدم ، ويقول للظالم : أيها الظالم لا تتكلم ، « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » . سبحانك ربي يا صاحب العزة القائمة ، والملكة الدائمة ، يا من تقول للطاغية يوم حساب : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون » .

فيا بن آدم :

لا تظلمنْ إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر :

غدا توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

دعوة من وزير الإعلام

في يوم من أيام شهر رمضان حمل البريد إليَّ خطابا كُتب عليه « عاجل وهام » فوضعته في مكتبي بالمسجد وذلك لاشتغالي بشئون المسلمين الذين جاءوا يستفتون في مسائل تتعلق بالأحكام الشرعية ، وأنساني الله أن أفتح هذا الخطاب لأعرف ما فيه ، وكان لله تعالى في ذلك حكمة بالغة ، إذ بعد أيام من استلام الخطاب تذكرته ولما قرأته علمت أن فيه دعوة موجهة من وزير الإعلام إلى الدعاة الإسلاميين لحضور اجتماع مع رئيس الجمهورية في استراحته بمدينة الإسماعيلية وأراد الله أن أفتح الخطاب بعد فوات الموعد ، وكأن الحق جلَّ جلاله أراد أن يكفيني مؤنة التفكير في قبول الذهاب أو الرفض فهو سبحانه وتعالى يعلم أنني لا أحب التردد على هؤلاء ، ولا مجالستهم « إذا رأيتم العالم يغشى بيوت الأمراء فاتهموه في دينه » . وكان عبدالله بن عمر يقول : « لا تجعلوا ظهورنا جسورا إلى جهنم » . وكان الإمام ابن الجوزي رضي الله عنه يقول : « إني لأظل طول الليل أتقلب في فراشي أبحث عن كلمة أرضي بها السلطان ولا أغضب بها الله فلا أجد » .

لقد أراد الله خيرا عندما أنساني أن أفتح ذلك الخطاب وشغلني بأمر المسلمين ، فقد عُقد الاجتماع بين بعض الدعاة وأنور السادات وكان ذلك ليلة القدر عام ١٢٩٩ من الهجرة - ١٩٧٩ ميلادية - وقد حدث صدام بين السادات وبين الأستاذ عمر التلمساني قال فيه الأستاذ عمر للسادات : « لو كان بيني وبين أحد الناس خصومة لرفعتها إليك . أو الخصومة بيني وبينك فإني أشكوك إلى الله فقال له السادات : اسحب شكواك يا عمر ، فقال له : لا أسحبها لأنني أشكوك إلى عادل لا يُظلم عنده أحد .

وكان لهذه الكلمة وقع عظيم في قلوب أهل الحق لأنها كلمة حق عند سلطان جائر ، فإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه نقد يُوشِك منهم .. قال ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، وإلا ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم

كما حضر رؤساء الجمعيات الدينية وأدار شيخ الأزهر الندوة بعد أن ألقى كلمة الافتتاح ، وأدلى كل صاحب رأى برأيه ، وجاء دورى فى الحديث فقررت تلك الخطوط العريضة التى لابد من مراعاتها فى منهج الدعوة :

• ذكرت أولا أنه لابد من صدق النية فى إصلاح مسار الدعوة ، فإن النية إذا صدقت أتت ثمرة صية فأصبحت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إما إن تعددت المقاصد وكثرت الدعوات ، ولا نية ولا هدف ، فلن يكون هناك ثمرة لتلك المقاصد وتصير كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

• وذكرت ثانيا أنه لابد من توحيد الكلمة وبذل الخلافات ، والعمل بتلك القاعدة الذهبية التى تقول : نعمل فيما اتفقنا عليه ، وهو كثير جدا ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه وهو قليل جدا . فكيف نترك العمل فيما اتفقنا عليه وهو كثير من أجل ما اختلفنا فيه وهو قليل .. لابد من توحيد الكلمة على كلمة التوحيد ونتخذ من منهج الأنبياء فى الدعوة سبيلا ، فقد كان سابقهم يمهد للاحقهم والاحقهم يكمل لسابقهم . فكانوا كما ذكر أمير الأنبياء وإمام المرسلين : كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة . فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين ! . لقد عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله ، . فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ونحوت الظلمة ، وكشفت الغمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا خير ما جازى به نبيا عن أمته ورسولا عن قومه .

• وذكرت ثالثا أنه لابد أن يتكرر كل منا دائما فى سبيل الدعوة إلى الله وأن يتجرد هدفا هدف السعى لتكون هجرته إلى الله ورسوله لا يبتغى من وراء ذلك مغنما ولا منصبا مصداقا لقوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾ .

• وذكرت رابعا أنه لابد من تنسيق تام بين المؤسسات الدعوية حتى لا يقع بينها التضارب فتكمل فيها بعضها ما تنبه الأخرى كما قال القائل :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟!

فلا يستجاب لهم ، وقال : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة . العلماء والأمراء » .

فعلى العالم أن يكون ناصحا أمينا . فالدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . وعلى العالم أن يكون قدوة طيبة زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة شجاعا في الحق ، مخلصا لله قلبه ، منجردا عن الهوى ، عالما بشئون العصر ، بصيرا بزمانه ، وعلى الأمير أن يستجيب لأهل الحق ، فإن نصحهم خير له في الدنيا والآخرة ، فليس عنده ما يصنعون به ، وليس لديه ما يدفعونه عنه ، التقى هشام بن عبد الملك وهو خليفة المسلمين بعالم من علمائهم في بيت الله الحرام فقال خليفة يا عبد الله ، قل لي ما شئت . فقال له عالم : أستحي أن أتكلم عن الله في بيته . فلما خرجا من المسجد الحرام ، قال الخليفة لعالم : الآن قد خرجنا من المسجد فتكلم ما شئت . قال العالم الزاهد : أسألك عن شئون نفسك أم من شئون الآخرة ؟ قال : أما شئون الآخرة فلا أملك منها شيئا . فتكلم عن أمور نفسك . قال العالم الزاهد : إذا كنت لم أستطع أن أتكلم عن شئون الآخرة فكيف أستطيع أن أتكلم عن شئون نفسك التي لا يملكها غيرك ؟ لم أتكلم .

ولقد كان لعمر بن عبد العزيز مستشار خاص هو عمر بن مهاجر قال له أمير المؤمنين إني قد ضيعت الطريق ، فما تنصح لي وترى لي ؟ قال : اتق الله يا عمر فإنك ستموت .. هكذا تكون علاقة العالم بالأمير . علاقة نصح وإرشاد ، وتواص بالحق ، وتواص بالصبر . فإذا ما حاول الطغاة من حين لآخر أن يكمموا أفواه العلماء فإن الله سبحانه وتعالى يكثر على هذا الجميع أربع تكبيرات لوجه الله . قال ﷺ : « إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها » .

في أعراف هارون الرشيد يتصرف بالبيت فقال لأعرابي : يا هارون اتق الله . فقال هارون : أيها الأعرابي أتنادي باسمي وأنا خليفة المسلمين . فقال الأعرابي : إذا كنت أنادي الله جل جلاله باسمه فأقول : يا الله . فكيف لمخلوق بمثلك ناداني باسمك وأنت عبد من عبيد الله ؟

دعوة من شيخ الأزهر

وجه شيخ الأزهر دعوة إلى جميع الدعوة الإسلامية للبحث في طرق الدعوة ، ووضع منهج للدعوة . وكنت واحدا من الذين وُجهت إليهم الدعوة . وكان مكان اللقاء في إدارة الأزهر . وبعد الاجتماع بعد صلاة الظهر ، وحضر كثير من الشخصيات التي تعمل بالأزهر والأزاهر .

وعنيت بتلك المؤسسات الأسرة والمسجد والمدرسة والإعلام بأجهزته مقروءاً ومسموعاً ومرئياً ومعروضاً . فإن هذه المؤسسات إذا تم التنسيق بينها آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وذلك إذا قامت على بناء النفوس بناءً أساسه القيم الأخلاقية والمثل العليا .. واسألوا التاريخ عن مسجد رسول الله الذى تخرج به أساتذة الأخلاق وأساطين الفكر وجهابذة الإصلاح .. اسألوا التاريخ عن المصلح العظيم أبى بكر ، والزعيم الملهم عمر ، والحيىّ الكريم عثمان ، والعبقرى الفذ على ، والفقيه الحبر ابن عمر والمحدث العظيم أبى هريرة والقائد الجبار خالد ، والزاهد الورع أبى ذر ، والفيلسوف البارع سلمان الفارسى .

ماذا قال لى شيخ الأزهر ؟

بعد أن انتهى الاجتماع وهممت بالانصراف ، أخذ شيخ الأزهر بيدى إلى مكتبه وقال لى : لماذا أغضبت الرئيس منك ؟ قلت له : لا أدرى وأريد أن توضح الأمر لى ، فقال : لماذا لم تذهب إلى الاجتماع الذى دعاك إليه فى الإسماعيلية فى رمضان ؟ فقلت له : لأنى الله أراد ألا أحضر . وشرحت له : كيف سبت أن أفتح الخطاب حتى سبت الموعد المضروب واستشهدت بذلك الحديث القدسى الجليل : « عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد . فإن سلّمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد » .

ثم سألت الشيخ : وما الذى أعلم تضايقكم أنه غاضب منى ؟ قال : لقد كنت أجلس عن يمينه وقد سأل وزير الإعلام وقال له : ألم يحضر ؟ فقال له الوزير : نعم لم يحضر . فهزّ الرئيس رأسه غضبا . قلت له : يا فضيلة الشيخ ولماذا لم تحاول أن تقول كلمة تطفىء بها غضب المغلوب ؟ فقال : إنك تستطيع أن تقدم الآن اعتذار عما حدث . فقلت له : وهل أخطأت حتى أعتذر ؟ فقال : ألا تعلم أننا نعيش فى ظل الرئيس ورعايته ؟ فقلت له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : إن وليّى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وألقيت السلام وانصرفت وأنا أردد آية الكرسى التى اشتملت على الجلال والكمال والجمال ووصف الله تعالى بالحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ووصفه بالعلىّ العظيم . فهذا هو الذى نعيش فى رعايته وعنايته وحبه ورزقه . يرحم الله شيخ الأزهر فقد حمل بالدر الآخرة وعلم أن ما عند الله خير وأبقى . ولكن أذل الحرص أعناق الرجال .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
مطلذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا تزه الهموم بباله

ما كان هذا كله في أن يفي بميت أول ليلة في قبره

قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لتقي الدين الحسن البصري : يا حسن عظني وأوجز . قال : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة . وقد قيل للحسن رضي الله عنه : يا تقي الدين ما سر زهدك في الدنيا ؟ فقال : زهدت في الدنيا لأربعة أسباب : علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأنّ قلبي . وعلمت أن عملي لا يقوم به سواي فاشتغلت به . وعلمت أن الله مطلع عليّ فاستحييت أن يراني على معصية . وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله تعالى .

يا ابن آدم :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذي سوّاك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعزبه وكن عفيفا وعظّم حرمة الدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

استمع أخي إلى تلك النصائح النبوية :

عفيت بالإياس مما في أيدي الناس وأدّ صلاتك وأنت مودع وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وإياك وما يُعتذر منه واعلم يا أخي أنه من أصبح حزينا على الدنيا فقد أصبح ساخطا على ربه ، ومن شكا مصيبة نزلت به فكأنما يشكو الله عزّ وجلّ ومن قعد إلى غنى لينال من ماله فقد ذهب ثلثا دينه .

دنياك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشترى دنيا المنى والضلال

الدنيا ساعة فاجعلها طاعة . النفس طماعة عودها القناعة

فتن ومحن

في سنة ١٩٨١ تلبدت السماء بالغيوم وغابت الشمس واكفهرّ الأفق وذلك عندما وقع صدام بين المسلمين والنصارى على أرض مسجد النذير في حي الزاوية الحمراء في ١٧ يونيو ١٩٨١ . وسالت دماء وتحركت عواصف الفتن وأنذر الجو بأوخم العواقب

كنت فى تلك الأيام فى إجازة سنوية ، ولما تراءت إلى سمعى تلك الأنباء قلت إن هذا لشىء يُراد ، وسألت ربى اللطف فيما جرت به المقادير فقد كانت كل الأحداث تشير إلى أن هناك أمورا خطيرة ستقع ، واستأنفت الخطابة يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١٩٨١ ، وكنا على مشارف شهر رمضان ، ودعوت المسلمين إلى اليقظة التامة ، وأن يكونوا على مستوى المسئولية ، وألا يُستدرجوا إلى معارك جانبية يكون وراءها شر مستطير ، فإن معظم النار من مستصغر الشرر ، وذكرت أن هناك قوما يمكرون ليصطادوا ، وذكّرتهم بأحداث حصلت فى التاريخ ، استطاع اليهود أن يثيروها وينفخوا فى نارها .

وتحركت الأحداث .. وبعد أن انقضى رمضان فوجئت بتحقيقات موجهة إلىّ لم يسبق لها مثيل . فقد كان التحقيق يدور حول خطبة واحدة ، ولكنه هذه المرة ، دار حول عشر خطب مرة واحدة وقضيت الساعات الطوال بين سؤال وجواب . وكان من أغرب الأسئلة : لماذا لم تذهب إلى مكان الفتنة لتلقى كلمة بين المتصارعين ولقد كنت ساعتها فى إجازة قضيتها فى بلدى ، فماذا كنت أصنع ولم تصلنى أخبار المعركة إلا بعد أن هدأت ؟ ولما استأنفت الخطابة ، وجّهت المسلمين إلى ما يرضى الله ورسوله بعيدا عن كل غرض دنيوى دنىء .. ولكنى شممت رائحة الشر تفسد الهواء النقى وتعكر ماء النهر .

وبعد انتهاء هذا التحقيق بأيام قلائل جاءنى استدعاء من وزارة الداخلية سألت فيه عن أمر لم يخطر لى على بال : قال لى المحقق : هل ذهبت منذ أيام إلى أسوان ، وألقيت محاضرة دينية بها ؟ قلت : إن كان ذلك قد حدث فقد علمته ، إننى لم أذهب إلى هناك وبالتالى لم أحاضر . ثم سألت : ما هو المنهج الذى تسير عليه فى دعوتك ؟ وأجبت : إننى أستمد منهجى من كتاب الله وسنة رسوله ، ففيهما المنهج الكامل الذى ينظم أصول العقائد وشعائر العبادات ، وشرائع المعاملات ، ومناهج السلوك ، ومبادىء الأحكام ، وقواعد النظام . قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ . وقال ﷺ : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ﴾ وقال صلوات ربى وسلامه عليه : لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى » .

وانتهى التحقيق ثم انصرفت .. وبعد أيام استدعانى السيد جاءنى ليقرأ علىّ شكوى قُدّمت ضدى ، وبعد أن انتهى من قراءتها على مسامعى سألته : هل وقّع عليها كاتبها ؟ قال : نعم .. قلت : فما اسم صاحبها ؟ فذكر لى اسم أحد كبار الشيوخ . قلت : إن كان ذلك كذلك ، فليس فيما كتبه عجمة لوجه إلىّ إلا كما يقول القائل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ثم قلت : إن ما احتوته تلك الشكوى إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن صاحبها قد هاجت عقارب البغضاء فى صدره ، وتحركت ثعابين الحقد فى قلبه ، وأسأل الله له الشفاء من الحسد فهو الداء العضال ...

وانتهى التحقيق وانصرفت ، ولكنى كنت أتوقع أن الأمر ليس أمر شكوى تُقدَّم من حاقد أو تهمة يختلقها حاقد . لقد كنت : أرى تحت الرماد وميض نار ويرشك أن يكون له أوار فقد بدأت الصحف الموالية للحكومة تُصعِّد من لهجة التهديد بالاعتقال والوعيد للمستمسكين بالدين ، وسلَّمت الأمر لصاحب الأمر مرددا قوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .. فنحن عبيده ، والوجود ملكه ، والقضاء حكمه ، وكل الكائنات طوع إرادته .. لقد تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة . كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له . عز كل ذليل ، وغنى كل فقير وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، واحد بلا عدد وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد ، عالا قهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر لا يشغله سائل ، ولا يقصه نائل ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه . ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه . وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

دع الأقدار تفعل ما تشاء ... وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالى ... فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا ... وشيمتك السماحة والوفاء
يُغطى بالسماحة كل عيب ... وكم عيب يغطيه الوفاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن ... إذا نزل القضا ضاق الفضاء

سبحانك ربى أدعوك إذا ما احتدمت المحن ، فأجد فى رحابك السكينة والطمأنينة :

يا رب حبك فى دمى وكيانى ... نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى ... أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق .. اللهم لك خاصمت ، وبك حاكمت وعليك توكلت وإليك أنبت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي ولا إله إلا أنت .

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما عملوا ... فمن يجود على العاصين بالكرم

أدعوك بما دعاك به نبيك محمد ﷺ يوم الطائف ، وقد تكالبت عليه قوى الشر من كل ناحية ، فما وهن وما استكان وما ضعف فقد سالت منه الدماء الزاكية عند ما رماه الصبية والسفهاء بالحجارة ، أخذ يردد تلك الكلمات التي تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض لهولها وتخر الجبال هدا لجلالها : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ .

ربنا ما أعظمك :

ما مسني قدر بكره أو رضا ... إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضي القضاء على الرضا مني به ... إني عرفتك في البلاء رفيقا

الخطبة رقم ٤٢٥

في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر أغسطس ١٩٨١ صعدت المنبر وكنت أشعر وأنا أصعد درجه بسخونة الأحداث وارتفاع درجة حرارتها ، فقد كان كل شيء ينذر بوقوع أشياء جسيمة وخطيرة ورأيتني في مقدمة الخطبة أصرخ بأعلى صوتي قائلا : « اتق الله أيها الظالم ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر . إذا غرتك قوتك فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك . اتق الله فالبر لا يبلى . اتق الله فالسبب لا يُنسى . اتق الله فالديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تُدان .

يا نائم الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وظلت أردد كلمات فيها الوعيد للظالمين ، وكأني كنت ألقي خطبة الوداع : ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم . لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب . فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾ .

لقد تحدثت في هذه الخطبة عن العدالة الاجتماعية في الإسلام . واستشهدت على ذلك بعصر الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز الرجل الذي كان يخاف الله مخافة من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده ، وكان يقول : لو أن مناديا نادى يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدا خشيت أن أكون أنا ذلك الواحد ، ولقد ذكرت أن الزكاة جمعت في عصر عمر بن عبدالعزيز فلم يجد فقيرا أو مسكينا يأخذها ، وكأن أرحام الدولة عقمت أن تلد مسكينا واحدا فأصدر قرارا إسلاميا يفيض رحمة وأمنا وطمأنينة وسكينة ويشع نورا وبهاء وسنا

وضياء قال فيه : « أيما شاب أراد الزواج فزواجه فى بيت مال المسلمين » فزوج الشباب وبقى من المال شىء كثير وأصدر قراره الثانى الذى يقضى بأداء الدين عن المدينين فأدىّ الديون من بيت مال المسلمين ، وبقى من المال شىء كثير .. فأصدر قراره الثالث : « إيما عبد كاتبه سيده فأداء ذلك فى بيت مال المسلمين » فأعتق العبيد ، وبقى من المال شىء كثير .. ذلكم هو عمر بن عبدالعزيز الذى سأل عامله على مصر : كيف تركت الناس ؟ قال : يا أمير المؤمنين تركت الناس وغنيهم موفور وفقيرهم مجبور وظالمهم مقهور ومظلومهم منصور .. لقد وسع عدلك جميع الناس ذلكم هو عمر الذى كان فى عصره يرعى الذئب الغنم ، وسئل فى ذلك ، فقال : أخلصت ما بينى وبين ربى ، فأخلص الله ما بين الذئب والغنم .. وما علم الرعاة بموته إلا عندما رأوا الذئب يأكل الغنم .

حُمّلت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فيه بأمر الله يا عمر

إن الإسلام بعدالته قد وسع الناس أجمعين ، وبرحمته ألّف بين قلوب المؤمنين ، ولو عدل إلى ينابيعه الصافية ونهلنا من منهله العذب المورود ، ما كان بيننا جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت برحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح مداد الظلام ، إنه الإسلام الذى يقول بلسان حاله ومقاله : « أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

والله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو طبقنا أحكامه لرفرفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، ولو اتبعنا هدى الله ما رأيت فى الطريق سائلا ولا فى البيوت عاطلا ولا فى السجون قاتلا . ألم يقل نبى الرحمة : « **من كان لنا عاملا وليس له مسكن . فليتخذ له مسكنا . ومن كان لنا عاملا وليس له دابة فليتخذ له دابة . ومن كان لنا عاملا وليس له زوجة فليتخذ له زوجة** » .. أهناك عدالة أرحب أفقا وأشمل رحمة من تلك العدالة . لسنا فى حاجة إلى أن نجرب الشرق أو الغرب والله ينادى علينا ويقول : ﴿ **فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ ألم يقل نبى الإسلام : « **من كان أخوه يعمل تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم** » .

وختمت الخطبة وصليت الجمعة ، وألقيت الدرس بعد الصلاة وانصرفت .. ولم أكن أدرى أن هذه آخر خطبة وأن هناك نيات بيّنها الحاكم ، وأن الرياح قد تأتى بما لا تشتهى السفن ولكن الإيمان يهون دونه كل شىء ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا** ﴾ . ولن يصح إلا الصحيح ﴿ **فأما الزبد**

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ﴾ . « إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ .

صدقت ربنا وبلغ رسولك ، فالحرام لايدوم وإذا دام لا ينفع والظلم لا يدوم ، وإذا دام ضر .

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال

والناس لو تحولوا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة الضيا .

إن الجواهر فى التراب جواهر والأسد فى قفص الحديد أسود

فلا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولو قرب منك ، ولا حيلة فى الرزق ولا شفاعة فى الموت ، ولا راد لقضاء الله ، ولا معقب لحكمه ، ولا راحة إلا بعد لقاء الله .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين وكل شيء جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

ليلة القبض

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبه قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ .

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

صدق الله وبلغ رسوله ونحن على ذلك من الشاهدين أشدكم بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل .

يمثل المرء على قدر دينه

ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها ومصر عليها إلا كفر الله بها من خطاياه .

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾

﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾

﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾

﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ .

ما أعدل حكم الله وما أسرع حسابه وما أحكم قضاءه وهل أهلك مؤلاء إلا ما قالت لهم رسلهم ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

صليت العشاء يوم الأربعاء الثانى من شهر سبتمبر ١٩٨١ واستمعت إلى استغاثة المصلين وكنت كعادتى آخر من ينصرف من المسجد ودخلت بيتى وأخذت أدرس العلم وأمل بعض الموضوعات فى كتاب قمت بتأليفه وقد جعلت يوم الأربعاء موعداً للإملاء وبعد أن انصرف أخى وصديقى عبدالرحمن توفى الذى كان يقوم بالكتابة دخلت لأنام وكان بجانبى طفل (مصطفى) الذى بلغ الثالثة من عمره وأحد كعادته يطرق بوابل من الأسئلة حتى

قلت له يا (مصطفى) لقد حان الوقت لننام فقد أوشكت دقات الساعة أن تعلن الثانية . قبل الفجر وما أن قرأت أذكار النوم . اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت .. ما أن فرغت من قراءة هذا الدعاء وقرأت قوله تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ .

ما أن فرغت من قراءة هذه الآثار الكريمة والآيات المباركة حتى سمعنا صوت أقدام تكاد تدك سلم البيت دكا حتى كأن أصواتها أصوات جند يقتحمون موقعا حصينا وعلمت منذ الوهلة الأولى أنه بلاء قد وقع سألت الله أن يلهمني الصبر عليه وسرعان ما سمعت بالباب طرقات عنيفة تكاد تصخ الآذان صخاً وفتحت الباب وإذا هجوم عنيف بعدد كبير من الجند وقد دخلوا البيت وأخذ كل موقعه في أرض المعركة دخلوا على سبعة أطفال فأفزعوهم وأقلقوهم وكانت ساعات رهيبة كأنها الشدائد التي تذهل فيها كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .

كأن الشمس قد كورت والنجوم قد انكدرت والجبال قد سيرت وكأن السماء قد انفطرت والكواكب قد انتثرت ، والبحار قد فجرت والقبور قد بعثرت !!

وكأنه قد نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض لذلك علمنا الرسول أن نستعيذ بالله من كل طارق يطرق بليل إلا طارقا يطرق بخير وهذا دعاء يعرف قيمته من ابتلي بأحداث الليالي ورأيتني أتشبث بلطف الله ممن وجد الله فماذا فقد ؟ ومن كان الله معه فمن عليه ؟

وإذا بليت من الزمان بشدة ... وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى ... لمن يدعوه من حبل الوريد أو قرب

ولقد أمرت بأن أرتدي ثيابي للذهاب معهم فعجلت بذلك حتى لا أترك لأهلي لحظة للبكاء والحزن العميق ، وأخذوني بينهم ، وذكرت ساعتها ساعة رحيل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة وقد ترك كل شيء وراء ظهره ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ ذكرت ساعة ترفرف الروح على نعش الميت وتنادي يا أهلي يا أبنائي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بنا ويرحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو يقول للدنيا : « يا دنيا غري غيري إلي تعرضت أم إلي تشوقت هيهات هيهات !! لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لها فعمرك قصير وخطرك حقير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة

الطريق !! ويرحمه الله عندما وقف بين سكان المقابر يقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لا حقون أنتم فرطنا إلى الجنة ، ونحن لكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية يأهل المقابر إن بيوتكم قد سكنت وأموالكم قد قسمت ونساءكم قد تزوجت بغيركم هذا خبر ماعندنا فما خبر ما عندكم ثم انصت قليلا وقال لي حوله : لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا إن خير الزاد التقوى !

ما أشبه هذه الساعة التي خطفت فيها من بين أصدقائي السبعة وجدت سلف من قوم غلاظ شداد لو وزعت قسوة قلب واحد منهم على أهل الأرض ما بقي للرحمة سبيل إلى قلب إنسان ممن يسكنون تلك المعمورة لقد أتونا بغته دون ما مقدمات ، ولو أنهم ارسلوا إلي بالحضور إليهم ما استمعت لحظة فكثيرا ما أرسلوا ودعيت وما تأخرت إن الذي كان له أسوأ الوقع في قلبي توديع هؤلاء الأطفال الذين باتوا يشكون يتمهم عظم العباد وقد أخبر صاحب القلب الرحيم والخلق العظيم محمد صلوات ربي وسلامه عليه فقال : « من ودع مؤمنا فليس منا » وقال : « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » وقد فتح الله أبواب النار لتدخلها امرأة بسبب هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من حشائش الأرض حتى ماتت جوعا . وفتح الله أبواب الجنة لرجل كان عطشان ، لكنه نزل بئرا فشرب منها فوجد كلباً يلهث القرى فقال لقد بلغ مني مثل الذي بلغ مني فملأ له خفه ماءاً وسقاه فشكر الله له صنيعه فغفر له فأدخله الجنة ، فهل من مذكر ؟ فهل من معتبر ؟ ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ .

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبا

إن خروج الإنسان من بين أهله بغتة ودون مقدمات في ساعة متأخرة من الليل وقد هدأت العيون ونامت الطيور في أوكارها وهجعت الحمول وأغلقت الملوك أبوابها ولم يبق سوى باب الله إن هذه الساعة تدفع الإنسان دفعا أن يستعد في كل لحظة وحين للقاء الواحد الديان .

تزود من التقوى فإنك لا تدري اذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

إلـــى أيـــن

حملت فى سيارة بين الحرس المسلح وكأننى مجرم حرب أو هارب من وجه العدالة وأحدثت أقرأ « يس » فقال لى الحرس لا تحسبن علينا فنحن ننفذ الأوامر ووجدت ألا أنشغل عن قراءة القرآن بالرد عليهم فقد أسلمت كيانى كله لمن بيده الأمر وأنا لا أدرى من هؤلاء الذين أجدنى بينهم كما لا أدرى إلى أين يذهبون بى ولماذا ؟ وما المصير ؟ ووضعت كل الاحتمالات بين يدى وتذكرت قوله جل جلاله : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ وتذكرت قول القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى!!

إن اليقين فى الله يريح النفس ويطمئن القلب والإيمان سكينة إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيلا وما قدر لفكيك أن تصعاه فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة والمؤمن القوى هو الذى يفوض الأمر لله عند الشدائد .

كن عن همومك معرضا ... وكل الأمور الى القضا
وانعم بطول سلامة ... تليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط ... لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا

وقضت بنا السيارة أمام مكان علمت فيما بعد أنه قسم الوايلى وجلست وحدى فى مكان شديد الحرارة أغلقت أبوابه ونوافذه وتصبب الجبين عرقاً غزيرا وفتح الباب بعد ساعة ليدخل علىّ أفراد عرفت بعضهم ولم أتشرف بمعرفة الآخرين .

وكان من بينهم فضيلة الأخ « عبدالمتعال الجابرى » والحاج « حسن أحمد عيسى عاشور » وأفراد آخرون اختلفت أعمارهم كان معظمهم من الشباب الذى ضبط متلبساً بصلاة الفجر وتحركت الساعات وصلينا الفجر وأحضرت لنا سيارة ذهبت بنا إلى مكان كنا نحن أول داخليه لقد تجاذبنا أطراف الحديث فيما بيننا ما الذى جمع بين هذه الأفراد قوم متدينون وآخرون سياسيون شباب وشيب ولكن كانت نهاية المطاف إن الأمر لله وحده ، وغداً تتبين الحقائق وينجلى الغموض ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما

طال فلابد من دخول القبر ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ نعم إن سفينة نوح هي النجاة وسيظل الإسلام كما كان ومازال سفينة النجاة ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ فلمن كانت العاقبة ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ .

فكم زالت رياض من رباها ... وكم نادت بحبل في البوادي
ولكن نخلة الإسلام تنمو ... على مر العواصف والعوادي
ومجدك في حمى الإسلام باق ... بقاء الشمس والسبع الشداد

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

ثم إلى أين ؟؟

وتوقفت بنا السيارة أمام مؤسسة السجون في طرة وأمام سجن الاستقبال وتحت حراسة مشددة وجنود مدججين بالسلاح كأنهم يستعدون لغزو معركة فاصلة على أرض فلسطين في هذا الجو الرهيب وتلك الأصوات التي ارتفعت تمتلئ حجاب السكون أمرنا بالنزول واحداً واحداً حتى يفتشونا تفتيشاً دقيقاً حتى يدخل أحدنا إلى الزنزانة وليس معه أي شيء إلا ثيابه التي تستره فالقلم ممنوع ، والورق ممنوع ، وكل شيء ممنوع ، وبعد أن تم التفتيش تحت الزجر والنهر والردع وزعنا على الزنازين وكان في كل زنزانة عشرة ودخلت الزنزانة رقم ١١ على ٢ .

وأغلق علينا باب الزنزانة وقد صرف لكل واحد منا بطانية للنوم عليها والغطاء بها وما أن حبسنا وتعارفنا حتى أخذ النعاس يغالبنا ، فقد كانت الليلة التي أخذنا فيها من ديارنا ، وانتزعنا فيها ، انتزاعاً من بين أحضان أبنائنا ، كانت ليلة عصيبة على الأنفس والأبدان ولم نفتر إلا وقد غشانا النعاس ، وكان رحمة من الله وأمنا ذكرني ذلك بقوله جل شأنه . ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا ﴾ .

واستيقظنا على وقع أقدام الحراس تذرع المكان جيئة وذهابا كما كان لأصواتهم وقع ثقيل على الآذان ومرعب ومفزع للنفوس ، وكأننا أسرى حرب فى أيدى الأعداء وما أن استيقظنا حتى أخذ كل منا يسأل الآخر لماذا جىء بنا إلى هذا المكان ؟! فمن قائل : إنه بسبب أحداث الزاوية الحمراء وما سمى بالفتنة الطائفية !!

ومن سائل : لماذا جىء بالشيوعيين معنا ؟

ومن قائل : ولماذا جىء بالسياسيين والنصارى ؟

إنها أنماط من البشر يموج بعضها فى بعض لا يكاد يجمع بينها قاسم مشترك أعظم، لقد اعتقل فى هذه الليلة على حد قول المسئولين (١٥٣٦) اختلفت مذاهبهم ومشاربهم وتناقضت أفكارهم واتجاهاتهم ولكن غدا سيظهر ما كان مستورا وتتضح الأمور ولم تغرب الشمس فى هذا اليوم يوم الخميس الثالث من سبتمبر حتى كانت المجارى قد طفحت فأغرقت البطاطين وكان موقفا عصيبا فباب الزنزانة قد أغلق والأرض قد غطتها المياه النجسة وماء الشرب قد انقطع وقد جاءوا لنا بطعام تأباه النفوس النظيفة كما وصفه الأخ الأستاذ ، سليمان الشيمى ، الذى كان يعمل مدرسا للعقيدة فى معهد شبين الكوم الأزهرى وهو رجل عوضه الله عن نور بصره ذكاء قلبه وصف الشيخ سليمان طعام السجن فقال :

أما جبن فهو قطعة من جبال العصور الوسطى ، لا يعرف حقيقته إلا علماء طبقات الأرض ، وأما الفجل فإنه خشب مبلول ورءوسه تصلح أن تكون أرجلا للطبالى .

وأما الفول فإنه يصلح لفض المظاهرات السلمية ، وأما البصارة فهى طعام الأليم تغلى فى البطون كغلى الحميم ، وأما اللحوم فما أكل منها إنسان صحيح إلا أصيب بنزلة معوية حادة .

لقد جاءوا لنا بخبز هو إلى قطع الأسمنت أقرب وجبن انطبق عليه وصف الشيخ وعسل أسود حامض تشمئز النفوس من رائحته وطعمه ولكن فمن اضطر فى مخمصة فإنه لابد أن يكره على الأكل .

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

لقد كان اليوم يوما عبوسا قمطريرا وكانت الليلة ليلاء ، وكان شرها مستطيرا ولكنا كنا نستعذب كل هذا العذاب ابتغاء مرضاة الله إذ كان هدفنا ساميا طاهرا زاكيا فكان سجنا كسجن يوسف الصديق الذى قال : ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾

علم يرضى أن ينام على الحرير فوق السرير في معصية الله ورضى أن ينام على الحصير راضيا بطاعة الله ، وقال ما قال في السجن عندما خرج وفرج الله كربه قال للسجن : وداعا يا مقبرة الأحياء يا مشمت الأعداء ، يا محزن الأصدقاء ، يا مفرق الأحباء نعم .. إن أصحاب المبادىء السامية والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، يجدون في الليمونة الملحة شرابا حلوا لذيذا.

ومن تكن العلياء همة نفسه ... لكل الذى يلقاه فيها محبب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعيه اليراع المثقب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية ... لها بين أطراف الأسنة مطلب
إذا أنا لم أعطِ المكارم حقها ... فلا عزلى حال ولا ضنى أبُ

لقد تعلمنا الثبات على المبدأ من أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، عندما قال في ثبات الجبال وسمو النجوم : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

إن موقفه ﷺ تزاحم الشمس في الجلاء وتناضح الجوزاء وترتفع بالنفوس من غياهب الظلمات وفنون الدجى وحضيض الغبراء إلى بادح العلياء ، ترتفع بها من كثافة المادة ، إلى لطافة الروح ومن مدارج الجمال ، إلى مسابح الأفلاك في أبراجها

إنه الصامد الثابت ، إذا ادلهمت الخطوب واحتدمت المحن .

أليس هو الذى قال يوم الطائف لربه : إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ؟! أليس هو الذى وقف يوم حنين يعلنها عالية مجلجلة مدوية في جموع المشركين : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا داعيا للواحد الديان ... يا هازما للبغى والطغيان
يا رافعا صوت العدالة عاليا ... ومؤذنا في الناس بالقرآن

صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان في الله مصرعى

إن أصحاب المبادىء ليس أمامهم هدف إلا رضا الله ، وليس لديهم غاية إلا رفع راية الحق ، ولسان حال كل منهم يقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

الخطـــاب المشـــئوم

علمت أن المصلين فى مسجد عين الحياة قاموا بمظاهرات بعد صلاة الجمعة لما علموا أننى قد تم إلقاء القبض علىّ كما قام المصلون فى مسجد النور بنفس المظاهرات احتجاجاً على اعتقال عدد من الدعاة إلى الله وكان الناس ينتظرون الخطاب الذى سيلقيه السادات يوم السبت الخامس من سبتمبر وقد سمى بعض أصحاب الأقلام وحملة المقاقم والمناجر : سموا الخامس من سبتمبر بثورة ثالثة فتكون الثورة الأولى يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، والثانية يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، والثالثة يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١ ، وهكذا يفعل المنافقون بالمجتمعات، إنهم موجودون فى كل زمان ، وإنهم عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة فى الضراء . هل يسمى يوم الظلم ثورة ، ثورة على من ؟ ثورة على المظلومين ؟ أم ثورة على المبادىء والقيم ؟ إن كان ذلك كذلك فإنها ثورة ظالمة والظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ .

إن عبدالناصر كان ظالماً ولكن السادات قبل هذا الظلم وسن له القوانين الجائرة .

لقد أجرى استفتاء على القرارات التى اتخذها ضدنا وأدخل بمقتضاها السجون حتى صارت مهزلة استفتاء فى مصر تضحك الثكالى ، وصارت هناك نكتة تتردد على ألسنة الناس فى الانتخابات والاستفتاءات تقول هذه النكتة: إن الرئيس الأمريكى كارتر طلب من السادات أن يرسل له النبوى إسماعيل ليجرى الانتخابات بينه وبين ريجان ، وذهب النبوى وأجرى الانتخابات على ما يرام واتصل به السادات وسأله قائلا : يا نبوى ، من الذى فاز فى الانتخابات أكارتر أم ريجان ؟ فقال النبوى : لا هذا ولا ذاك . قال السادات إذن فمن ؟ قال له: سيادتكم يا فندم ؟ أيستفتى على الظلم وتكون نتيجة الاستفتاء كالعادة : خمس تسعات ؟!! إن هذا لشىء عجاب !!

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

تبارك ربنا وتعالى يا من تنث وتؤلف الحق :

﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون - أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ .

يرحم الله أمير الشعراء إذ يقول :

يا له من بعبع عقله فى أذنيه
أثير الهتاف فيه وانطلى الزور عليه
ملأ الجو صراخاً غيه ساذج فظيه

ويقف السادات يخطب فى الحرس من مستمر وقد فقد صوابه ، وطاش لبه ، وكأنه أصيب بمسعار فأنشب أنيابه وعضه فأوعد وهدد وأرغى وأزبد وحمل على الجماعات الدينية ، وحمل لإخوان المسلمين مخالب الأسد كما سماه كبير الدعاة الإسلاميين ، فرمى هذا بالجنون وذاك بالبلادة ، وذاك بأنه ، فرمى كالكلب ، ونفى أن يقول : ما علمت لكم من إله غيرى أو أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، كما خصنى فى بيان من بياناته بتهمة كاذبة خاطئة ، ذكر فيها أن الرئيس السودانى جعفر النميرى قد شكانى إليه ، وأننى أهاجمه ، وماذا يحدث لو صح هذا ؟ أهناك أحد فوق مستوى التوجيه ؟ أليس من عادة الأمراء والملوك أن يسألوا العلماء المخلصين النصح ؟ ألم يقل أحد الناس لعمر من الخطاب اتق الله يا أمير المؤمنين ؟ فهرع أحد الجالسين فقال لعمر وقل : لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . ألم يقل عمر ذات يوم : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى ؟ ألم يقل لأهله اتقوا الله يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ؟ ألم يقل الله تعالى لنبيه ومصطفاه ﷺ يا أيها النبى اتق الله ﷺ ألم يقل خليفته أبو بكر حينما بويع بالخلافة أيها الناس لقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوموونى أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق منه ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، وعصيب فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ .

إن تعجب فاعجب لأمر هؤلاء الذين يتأججون ناراً إذا قيل لهم اتقوا الله في الرعية ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ حتى جلال الله إذ يقول : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ لقد كان عتاب السادات في الخامس من سبتمبر أسوأ الأثر على قلوب الناس فقد أوعد بأنه لن يرحم ، ونسي خلقه ، نسي أن من لا يرحم لا يُرحم ، ونسي أن الرحمة لا تنزع إلا من شقي ، ونسي ما رواه أبوبكر عن سيد الخلق عن الأمين جبريل عن رب العزة أنه قال : إن أردت رحمتي فارحموا خلقي .

حتى قول الصادق المصدوق : الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

وقوله : اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه .

صدق رب العزة إذ يقول « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً » .

يـوم التحقـيق

مرت بنا الأيام ثقيلة متباطئة كأنها سلسلة من الجبال تمشي فوقها فانهيش في الصدور كمد ، والناس قد دنسوا وصاروا أشباحاً خاصة كبار السن الذين أصبحوا لا يستطيعون أن يقوموا بشئون حياتهم ، والذين قد أصيبوا بأمراض مزمنة ، وأصبح الطعام لا يلذ لحالب صحية ، فمريض الضغط لا يجد إلا جبناً قد قطع من جبال الملح ، ومريض السكر لا يجد إلا عسلاً أسود حامضاً تركه راعيه الأسود ، ولولا أن تداركنا حق بعض هؤلاء لكنا نحن في أحداد عديدة !!

أعلنوا أن التحقيقات قد بدأت وبين آونة وأخرى كانوا يعلنون على الأحياء الذي سيحقق معهم ، وكان موعدي مع التحقيق يوم الخميس الرابع و عشرين من شهر سبتمبر

ففي صبيحة هذا اليوم جيء بقافلة من السيارات وفي موكب مسلح تتقدمه الدراجات البخارية التي تمزق مروق السهم من الرمية وقد انطلقت عشرات تفسح الطريق لسيارتنا التي حشرنا فيها حشراً ، وأخذ الموكب يتهادى شيئاً فشيئاً لا يخضع لقواعد المرور لأنه فوق القوانين كلها حتى أستقر بنا المقام أمام المبنى الذي سيحتفل معنا فيه ، ودخلت على المحتفل ووجوه أعضائه ، وكان أكثرها يدور حول خطيب ، ومن أسئلة التي مازلت أذكرها هذا السؤال الخبيث : لماذا تهاجم نهلي ؟ وكأن نهلي هذه قد أصبحت ذاتاً مقدسة لا تمس !! ومن أرادها سوء فصمه الله وكأنها كعبة الله في أرضه أو مبعوثة العناية الإلهية ، وتمس عناية الربانية سيدة المصورة ، والجوهرة المكنونة !!

قلت : إنما كنت أطالب بتأخير فواتيرها حتى تصبح نقية ، فقد صرفت الناس عن صلاة العيد في رمضان ثم قلت : لقد صرت كالعلل تصيب الفواتير وتقصر الفواتير ، وتوالت الأسئلة :

هل كنت تقصد بقولك على الذين يحتفلون بعيد لا يجدر جحودهم ؟

قلت : وأي شيء في هذا ؟ ثم أي تهمة في قلت بكفر ؟ أليس الذين كفروا أحرار الصدق المعصوم مصيبة ؟ قالوا : بلى ؟ قلت : فلله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وسئلت لماذا تهاجم عيد الأم ؟

قلت : لأنه بدعة وفدت علينا من دولة فيما فيما يسمى بالإعلام ما يسمى عيداً لا عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، فحرام علينا أن نخصر البر بأمه يوم واحد ، ونحقها للاثنتا وأربعة وستين يوماً .

قل : لماذا تهاجم الكرة ؟ قلت لأنها تحولت إلى رياضة مذمومة وأصبح صورها كالخمر والميسر ؟ توقع العداوة والبغضاء بين الناس وتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة .

وسئلت : لماذا تهاجم الإعلام ؟

قلت : لأنه أصبح يهدم ولا يبني ويفسد ولا يصلح ويورث ضعف الوازع الديني والتفسخ الأخلاقي ، والإخلال الاجتماعي ، والناس على دين إعلامهم. وقد قيل أعطني شاشة أغير بها شعباً ، فهل شل هذا الإعلام الذي يدور حول فيلم أو مسرحية ، أو مسلسل ، أو فواتير وقد صرت تسميه الساقطات في حلاوه ، هل مثل هذا يبني النفوس القوية المتصفة بالصدق المتحلية بالأمانة لقد استطاع الإعلام أن ينسي الناس أن شهر رمضان شهر القرآن والصيام والبر والنصر والقدر والقيام ، ويسر ، وهكذا كانت الأسئلة . وهكذا أجبت وتم تحقيق وعدت إلى السجن أنتظر ما سوف تتمخض عنه القضايا ، وكان الإعلام.

دائما يضع نصب عيوننا قوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

مصـــرع الســـادات

لا تركنن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيشُ الآخرة

تباركت ربنا وتعالت الوجود ملكك والقضاء حكمك أنت مالك الملك ومليك الملوك أنت الواحد فى ذاتك لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شبيه لك ، الواحد فى أفعالك لا شريك لك .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راقى
شخوص وأشكال تمر وتنقضى لتفنى جميعا والمهيمن باقى

أنزلت يا إلهى على نبيك كتابا فيه نبأ من قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أذله الله . ولقد نص الله تعالى عيانا فى هذه الكتب قصص قوم تجبروا وتكبروا ونسوا أن للكون إلها يسير أحكامه فيفعل ما يشاء ، كما نسوا أن فى السماء ملكة قد كُتب عليها ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ كان من هؤلاء الجبابرة رجل غرّه ملكه فنادى وقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ . وغرّه سلطانه فقال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ . وغرّه جبروته فقال : ﴿ ما أريكم إلا ماأرى ﴾ .

وقص علينا قصة رجل غرّه ماله فنصحه قومه بخمس نصائح :

قالوا له : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين – وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة
– ولا تنس نصيبك من الدنيا .
– وأحسن كما أحسن الله إليك .
– ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

فماذا قال ؟

لقد غرّه المال فأنساه ذكر الله قال إنما أوتيته على علم عندي فقال له صاحب العزة والجبروت : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ . لقد سيطر عليه سلطان المال وطغى عليه رنين الذهب وبريق الفضة ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يُلقاها إلا الصابرون ﴾ .

وتنسى قارون أو تناسى أن الدنيا إذا حلت أوحلت وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قبور تسي وما تنبا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علامات !!

قال تعالى : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

صدقت يا ربنا وبلغ رسولك الذي قال : « إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . أقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

ويشاء ربك أن يعقب على هاتين القصتين في سورة القصص قصة الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة بقوله : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ . كما شاء ربك أن يختم السورة نفسها بقوله : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

وعـــد بالزيـــارة

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتنّ إلا خالي البـــال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

ووعدتنا إدارة السجن بمناسبة قرب عيد الأضحى المبارك بفتح باب الزيارات حيث يزورنا الأهل ، ولكنهم جعلوها زيارة سلكية . أي يحول بيننا وبينهم حاجز سلكي يشوه جمال الزيارة حيث يكون بين الزائر والمزور حائل سلكي لا يسمع كل منهما الآخر إلا إذا تكلم بصوت مرتفع فما ظنك بأصوات العشرات ترتفع في وقت واحد ، وهو وقت الزيارة ، وحد كل منهم يبدي على الآخر يسأله عن حاله وحال أولاده وذويه .. الحق أن هذه الزيارة

التي وُعدنا بها كان لها أسوأ الأثر في النفوس ، حتى أنني أذكر عندما التقيت بالدكتور عبدالله رشوان ، وكان معتقلا معنا قلت له : هل ستزور إن شاء الله ؟ فقال : لا ، إنها زيارة لا تليق إلا بالقردة ولسنا قردة .. وعقدت كل زنزانة جلسة في تلك الليلة ليناقشوا تلك الزيارة هل يقبلونها ؟ وعقدنا جلسة في زنزانتنا ، واختلفت الآراء بيننا . فمنا من قبل الزيارة وقال : « شيء أحسن من لا شيء » ومنا من رفضها وقال : إن ضررها أكثر من نفعها إذ أنها ستثير الأحزان ولن نتمكن من إجراء أي حديث مع الأهل حيث اللقاء غير مباشر . وسئلت الرأي ، فقلت : أنا لا أقبل ولا أرفض ولكن أفوض الأمر إلى الله وحده ، ودعوت الله قائلا : اللهم رضّنا بقضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

وجاء الليل وقد أغلقت أبواب الزنازين ، والزيارات ستبدأ صبيحة الغد والقلوب واجفة وقد برّح بها الشوق للأهل والأبناء ولكن لا يعلم ما في غد إلا الله وحده .. وقبيل الفجر جاء من يوقظني ويكاد يصاب بالجنون من شدة الفرح ويقول : قم لقد قتل السادات ولكني لم أعره التفاتا فقد ظننت أن هذا نوع من الشائعات التي يُقصد بها تغيير الجو الكئيب . ولكني صحوت على المعتقل كله يهتف بصوت واحد : لا إله إلا الله . وكادت جدران السجن تهتز من هدير الحناجر التي تهلل وتكبر حتى اضطر مأمور السجن أن يذيع نبأ موجزا قال فيه : لقد توفي الرئيس السادات وأعلنت حالة الطوارىء من أسوان إلى الإسكندرية وازدادت الأصوات حماسة ، فقد أصبح الخبر يقينا لا مراء فيه وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . سبحان من يقول : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ ومن يقول : ﴿ وإنا لنحن نحيي ، ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

ومن يقول : ﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾ .

كيف بلغنا نبأ موته ؟

كنا ممنوعين من سماع الإذاعة وقراءة الصحف بحيث صرنا ممنوعين من الاتصال بالعالم الخارجي لا ندري عنه شيئاً كما يقول القائل :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلا نحن بالأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

وكان معنا أمر الشر بإذاعة الأنباء عن طريق الأخوة الذين بهم اعتقالهم ويحملون أحدث الأخبار من الخارج ورأت إدارة السجن أن ينقل هذا الأمر الذي يذيع الأنباء بحيث يعزل في الزنازين الأرضية حتى لا يتمكن من إذاعة الأنباء وشاء ربك أن يكون نقله حيراً فيوم مات السادات جيء ببعض المعتقلين ليلاً حيث وضعوا في الزنازين الأرضية فجاء هذا الأخ يسألهم هل من جديد حدث فأخبروه بأن السادات قد قتل وإذا بهذا الأخ يصيح بأعلى صوته وكان جهورياً صاح قائلاً : بيان هام وظل ينادي حتى استيقظ جميع ونظروا إذاعة هذا البيان فقال : أيها الأخوة لقد قتل السادات اليوم وشه على ما أقول وكيل وشهيد وكان هذه الكلمة كانت شرارة كهربائية فقام الجميع مكبرين مهللين حيث هزت جنبات السجن وكان زلزالا يرج الأرض رجاً ويسير الجبال سيراً وما تحدثه إدارة السجن معبراً من تأكيد الخبر وفي الصباح أمرت إدارة السجن بإنتداب بعض الإخوة الذين سموا بشرة الأخير في المذياع وأسمعوا المعتقلين .

وهكذا كانت المأساة بل سهاة حاكم استبد برأيه حتى جاء اليوم الذي قال فيه ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ وقال يبدو لن أرحم أو يسع من يدعي المالكين أن يعتصبه أراد أن يقتفي بسادس الخلفاء الراشدين كما سيرا فاروقاً من قبله أن البيت الطيب عطفين على فرعون حسين بن علي رضي الله عنه أجمعين والخارج حدق تعتريات بطلاقة لقد قال الفرعون بن كنعان من قبل : أنا أحيي وأميت وقال فرعون : أنا ربكم الأعلى وقال ما علمت لكم من إله غيري ، وقال : ما أريكم إلا ما أرى . وقال فرعون : إني أوتيته على علم عندي قال تعالى : فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، .

إن قوى الشر مهما تحالفت وإن الطغاة مهما تكبروا أو تمردوا فمثلهم كمثل العنكبوت الحديث بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

لقد قتل السادات بين رجال جيشه وفي عصر يوم وصوا أنهم ما يعتقد حضوره من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد جاء من قتل في يوم الزينة بعدد جميع الذين نبذت يوم معلوم وعلى مرأى ومسمع من العالم أجمع وعلى صورة جهرة الإعلام .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ .

إن يد الله تعمل في الخفاء فذروها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها اقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن أعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ قف عند قوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وعند قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾ وعند قوله تعالى : ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ وعن قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ قف عند هذه الآيات تجد يد الله تعمل في الخفاء وتجد أن قلوب بني آدم جميعاً بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد تصرفها كيف يشاء ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ هل أغنت قواته عنه شيئاً ؟ إن الله تعالى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض وقد قال سبحانه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

فيا ابن آدم إذا أغرتك قوتك فلماذا استحكمت فيك شهوتك وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ماذا بعد قتل السادات

لقد ألغوا الزيارة التي وعدونا بها فقد حدثت أحداث جسام فقد رحلت إلى سجن أبي زعبل ومرت بنا الذكريات الأليمة عبر السنين الخاليات فهذا هو السجن الذي كنا فيه من قبل سنة ١٩٦٧ وقد ساءت حاله حتى أصبح لا يطاق حيث أسراب الذباب نهاراً وجحافل البعوض ليلاً بالإضافة إلى ما تحتويه دورات المياه من سوء دونه أي سوء أضف إلى ذلك سوء التغذية والتهوية وما حل بنا من إرهاب شديد فقد كان ينادي على بعض الأسماء في منتصف

الليل ليذهب بهم إلى سجن الاستقبال حيث دارت رحى العذاب بعنف ولقد عشنا في هذا الجو الكئيب من التاسع والعشرين من أكتوبر إلى السابع والعشرين من نوفمبر حيث ذهب بنا إلى مستشفى ليمان طرة ولقد كان الله لطيفاً بنا حيث لم نمكث في هذا المستشفى أكثر من يوم ولست أدري لماذا سمّوه مستشفى فليس فيه ماء ولا غذاء ولا هواء ولا دواء ولكننا لا نقف كثيرا عند الأسماء !!

إسماء مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

ولقد ذهب بنا من هذا المستشفى إلى سجن ملحق طرة حيث غادره السياسيون الذين تم الافراج عنهم في حفل مهيب . وبقينا باللحق يوماً حيث ذهب بنا إلى عنبر المعتقلين بالقصر العيني حيث تنفسنا الصعداء فكانت الزيارة لا تنقطع من الأهل والأحباء والأبناء والأصدقاء وتم الإفراج عنا بعد ذلك في اليوم السابع والعشرين من يناير ١٩٨٢ خرجت من السجن إلى البيت ولكن لم يصرح لي بالعوده إلى المسجد وظللت رهين البيت حتى كتابة هذه السطور في يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر شوال ١٤٠٦ السادس من شهر يوليو ١٩٨٦ .

مجال التأليف والكتابة

في سنة ١٩٦٩ رأيت أن يتعاون اللسان مع القلم وأن يكون بجانب المسجد مكتبة حتى يسيرا في طريق تثبيت العلم فألفت كثيرا من الكتب خرج منها إلى النور خمسة وأربعون كتاباً وإليك أسماؤها .

١ - طريق النجاة .
٢ - البطولة في ظل العقيدة .
٣ - رياض الجنة .
٤ - نفحات من الدراسات الإسلامية .
٥ - بناء النفوس .
٦ - أصحاب النفوس المطمئنة .
٧ - حياة الإنسان .
٨ - مع التوحيد والأخلاق .
٩ - اليوم الحق .
١٠ - صور من عظمة الإسلام .
١١ - إرشاد العباد .
١٢ - أضواء من الشريعة الغراء .
١٣ - الرمث والجزاء .
١٤ - شفاء القلوب .
١٥ - حقائق وحديث عن الروح .
١٦ - حديث من القلب .
١٧ - الصلاة رأس العبادات .
١٨ - الإسلام وأصول التربية .

١٩ - الوصايا العشر فى القرآن الكريم .
٢٠ - ورثة الفردوس .
٢١ - الهدى والنور .
٢٢ - جند السفينة .
٢٣ - أعد الزاد .
٢٤ - الفتوحات الربانية .
٢٥ - رحلة إلى الدارة الأخرة .
٢٦ - صم عن الدنيا وأفطر على الموت .
٢٧ - الصراع بين النفس والمال .
٢٨ - اخلص العمل فإن الدهر بصير .
٢٩ - مناهب الرسالة المحمدية .
٣٠ - سياحة مباركة .
٣١ - فضل القرآن يوم الحشر .
٣٢ - مصارع الظالمين .
٣٣ - الصلح مع الله .
٣٤ - الناس بخير ما تناصحوا .
٣٥ - الوقوف بين يدى الله تعالى .
٣٦ - حول مائدة الإسلام .
٣٧ - غذاء الروح .
٣٨ - هالات من نور .
٣٩ - ساعة صفاء مع النفس .
٤٠ - فى رحاب السكينة .
٤١ - الإسلام شجرة طيبة .
٤٢ - إذا ذكر الله تزلت الطمأنينة
٤٣ - رسائل رحمانية النفحات .
٤٤ - من حوار الخالق إلى رحاب الخلق .
٤٥ - منطق الحق المبين

وسوف أشير إشارة موجزة إلى ما اشتملت عليه بعض هذه الكتب من موضوعات .

طريق النجاة

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

القرآن العظيم وأثره في النصر .
من قضايا القرآن الكريم .
أضواء من السنة على طريق الهدى .
العقيدة والتضحية .
الطريق الأقوم .
القرآن : طريق العصمة من خطوات الشيطان .
دروس خالدة .
عواقب الإعراض عن ذكر الله .
توجيهات ربانية .
مسلك الشيطان مع الأنبياء .
نتائج الإعراض عن ذكر الله : النتيجة الأولى .
النتيجة الثانية .
توجيهات سنية .
وقفة اعتبار وعظة .
نتائج الإعراض عن ذكر الله النتيجة الثالثة .
من صور يوم القيامة .
نتائج الإعراض عن ذكر الله النتيجة الرابعة
حرص الرسول ﷺ على أمته .

البطولة في ظل العقيدة .

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

الحروب الصليبية .
كيف بدأت تلك الحروب ؟
نهضة ساركة .
طريق النجاة .
فجر جديد .

الرباط فى سبيل الله .
العزة فى الجهاد .
عماد الدين والجيوش الغازية .
بعد وفاة عماد الدين .
نور الدين ومدينة الرها .
الحملة الصليبية الثانية .
ذكر الله فى الجهاد .
أعداء البطولة والعقيدة .
صلاح الدين الأيوبى .
شهادات من الأعداء .
الجهاد المقدس .
صلاح الدين ومبدأ الشورى .
مع سير الأحداث .
حول بيت المقدس .
منزلة المسجد الأقصى .
إن الدين عند الله الإسلام .
صلاح الدين وموقعة حطين .
صلاح الدين وبيت المقدس .
نهاية صلاح الدين .
خواطر وذكريات .
الحملتان الصليبيتان : الرابعة والخامسة .
حصار دمياط .
الحروب الصليبية السادسة .
عودة بيت المقدس إلى أيدى المسلمين .
ملك فرنسا والحملة الصليبية السابعة .
موقعة دمياط .
نهاية الحرب الصليبية السابعة .
اللقاء بين الاستعمار والصهيونية .
تراجمات لجنه بالترمان
ما هى الصهيونية ؟
مؤتمر بال .

الصهيونية حركة سياسية عنصرية
خطوات تنفيذ المخطط الاستعماري الصهيوني .
هل هناك حملات بعد ما ذكرنا .
الحروب الصليبية وأثرها في أوروبا .
الحضارة الإسلامية في أوربا .
أثر الحروب الصليبية في انحطاط العالم الإسلامي .

رياض الجنة

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

رحلة مع القرآن العظيم .
أقوال الأئمة فيه .
أقوال المستشرقين فيه .
الحث على مدارسة القرآن .
فضل تعلم القرآن .
آراء المنصفين من علماء الغرب في القرآن الكريم .
الترغيب في تلاوة القرآن .
دعوى باطلة .
الحرب للقرآن حقه .
حاجة العالم إلى الإسلام .
الرشوة المقنعة .
من المفلس ؟
حرمة الدماء في الإسلام
حرمة المال في الإسلام .
الإسلام : شريعة العقل والرحمة .
حق الرعية على الراعي في الإسلام .
الإسلام شريعة الأخلاق .
محمد نبي الرحمة ﷺ .
شرعة الحق في الإسلام .
الرسول رحمة مهداة .
المساواة في الإسلام
العدالة في الإسلام .

محمد : جعل من العبيد سادة .
زيد بن حارثة
بلال بن رباح
سلمان الفارسى
أهميه الدعوة .
ذكر الله تبارك وتعالى .
حقيقه الذكر . ما هو الذكر ؟
فضل الإكثار من ذكر الله
فضل مجالس الذكر
أدب الذكر .
فضل من قال لا إله إلا الله .
فضل التسبيح والتحميد .
الترهيب من عدم ذكر الله .
فضل الاستغفار .
الذكر المضعف وجوامعه ..
ما ينبغى من اخطاب أخاه المسلم
أذكار النوم
المؤمنون الصادقون

بناء النفوس

وقد اشتمل هذا الكتاب على الموضوعات التالية :

العقيدة وأثرها فى التربية .
التربية فى مكة
كل مولود يولد على الفطرة
العقيده الصحيحة
العقيدة ومراقبة الله تعالى
الداء والدواء
الإيمان والإخلاص
إنما الأعمال بالنيات
الإخلاص فى الجهاد

النفاق
كلمة عن الوفاء
الرياء وأثره فى النفوس
الإيمان وبناء النفوس
سورة النحل ووحدانية الله تعالى
عالم الحيوان
عالم النبات
نعم الله على خلقه
العلم الحديث ووحدانية الله تعالى
عبرات فى الحج الإلهى
وقفة تأمل
ولا يظلم ربك أحدا
فضل الله على عباده
عسل النحل وفوائده
إلهى ! ما أعظمك
العقاد والرد على المشركين
الإيجاد والعدم
هذا خلق الله
عالم الطير
لمحة قرآنية
الحكمة الإلهية العليا
صاحب اللواء المعقود
قواعد البناء القوية
العدل ونتائجه والظلم وعواقبه
صلة الرحم
الظلم ظلمات يوم القيامة
الوفاء بالعهود فى الإسلام
مشيئة وحكمة وتوجيه

رحمة الإسلام

الشذوذ الجنسي

ما عقوبة من أتى هذا العمل ؟

ما رأى الفقهاء ؟

الاستمناء

آراء الفقهاء فيها

ما العلاج ؟

ماذا يقول العلم ؟

الزهري

الزهري والجهاز العصبي

السيلان

إصابة المرأة

القرحة الرخوية

القرحة الأكالة

ماذا يقول العلم عن الشذوذ الجنسي ؟

كلمة الربا - ما هو الربا ؟

ما حكمه ؟ . حرمة الربا بطريق السنة

قوة الإيمان بالله

فضل الجهاد في سبيل الله .

نفحات من الدراسات الإسلامية

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

القرآن قانون الله السماوي لعباده

صراع بين الحق والباطل

دروس في العقيدة

فضل لا إله إلا الله

وصايا نبوية

سنة الله في عباده

عظة وعبرة .

منطق العدالة الإلهية

عود على بدء

وجه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ رأي جديد في تفسير الآيات القرآنية من أول سورة الإسراء حتى قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ .

بشرى للمؤمنين
المسجد الأقصى
عمر في بيت المقدس
محمد ﷺ أستاذ الإنسانية الأعظم
نظرة الإسلام إلى الأموال العامة
مع أمير المؤمنين عمر في بيت المقدس
موقف عرفل من هزائم
محمد نبي الرحمة
معركة القادسية
من أخلاق الإسلام
في طريق النصر ؟
عوامل النصر

ورثة الفردوس

ويشتمل على الموضوعات التالية :

قد افلح المؤمنون
المؤمنون
صفات المؤمنين
فضل المساجد
فضل تنظيف المساجد
فضل السعي إلى المساجد
فضل الصلاة في المساجد
على كل عضو صلاة
كثرة الخطى إلى المساجد
أبواب الخير كثيرة
كيف تمحو خطاياك وترفع درجاتك ؟
فضل المشي في الظلم إلى المساجد
فضل الخروج لأداء الصلاة

دعاء مأثور
أحب الأشياء إلى الله وأبغضها إليه
فضل الجلوس في المساجد
الشهادة بالإيمان
مجالس مباركة
أوتاد المساجد
للمساجد آداب
تخطي رقاب الناس
المرور بين يدي المصلي
دفع المار بين يدي المصلي

الصلاة

الصلاة مطهرة من الذنوب
خطبة النبي ﷺ
الله تعالى يسأل الملائكة عن عبده
أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة
مكانة الصلاة في القرآن
عناية الإسلام بالصلاة
أقوال العلماء في تارك الصلاة
الحد الشرعي لتارك الصلاة

موقف جليل

المحافظة على أدائها في وقتها
رؤيا سوية كريمة
شروط الصلاة
شروط صحتها
متى تكون الصلاة مقبولة ؟
الصلاة المفروضة
النوافل
فضل النوافل

صلاة التطوع في البيت
أفضل صلاة التطوع

السنن الراتبة
سنة الفجر
عناية الشرع بأدائها
ما ورد من الدعاء بعد أدائهما
سنة الظهر
ما عددها
سنة المغرب
سنة العشاء
سنن غير مؤكدة
ركعتان أو أربع قبل العصر
ركعتان قبل المغرب
ركعتان قبل العشاء
صلاة الوتر
عدد ركعاته
النوم على طهارة
قيام الليل
منازل الناس ثلاث
احياء الليل بتلاوة القرآن
وقت قيام الليل
عدد ركعات قيام الليل
الطريقة الفاضلة

مع التوحيد والأخلاق

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

الرسالة الخالدة
هذا خلق الله
لا مجال للصدفة فى هذا الكون
الكون يتحدث عن وحدانية الله
آيات ناطقة بالحكمة والقدرة
آية أخرى
آية الله فى الماء

آية الله في نظام الفلك
الشمس والأرض والقمر والنجوم
عناية الله بالكوكب الأرضي
حقيقة علمية
من عناية الله بعباده
لحم الخنزير
الإيمان طمأنينة وأمان
الدواء الناجح
تأملات وتنبيهات
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق
مقارنة بين عصرين
كان رسول الله قرآنيا
تحذير وإرشاد
فضل تلاوة القرآن
نفحات مباركة
من أقوال الرسول عن القرآن
الذين يحبهم الله
الإحسان
التوبة والطهارة
حقيقة التوبة
ويحب المتطهرين
نظرة في الآية الكريمة
ماذا يقول الطب الحديث
آلام الحيض
عرضة حائض للأمراض
أذى وطء المرأة أثناء الحيض
الأذى الذي يصيب الرجل
الناحية النفسية في المنع
أحكام شرعية
دم النفاس
ما يحرم على الحائض والنفساء

ده الاستحاضة
احكام تتعلق بالغسل
مسائل تتعلق بالغسل
ما هي الأغسال المستحبة ؟
اتباع رسول الله ﷺ
الأسوة الحسنة
رجاء الله واليوم الآخر
ذكر الله تعالى .
آداب الذكر
أنواع الذكر
الصلاة على رسول الله ﷺ
كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ
بركات الصلاة على رسول الله ﷺ
من أحق الناس ؟
الصلاة على المختار يوم الجمعة وليلتها
هؤلاء أحبهم الله
بالتقوى .
بعث الصابرين
من أقوال الرسول ﷺ في الصبر
المقاتلون في سبيل الله .

أصحاب النفوس المطمئنة

ويشتمل على الموضوعات التالية .

حديث الغزالي عن الموت
سكرات الموت
الأعضاء عند سكرات الموت
رؤية المطيع لملك الموت
رؤية الملكين الحافظين
ليت يعرف أين مقعده

الموت حق على جميع العباد
وفاة النبي ﷺ
موقف الصحابة بعد وفاة الرسول
كيف غسل رسول الله ﷺ
لنا في موت رسول الله عبرة
لقاء الله وحده
أبو حازم وسليمان بن عبدالملك
حسن الظن بالله
عثمان بن عفان يبكي
اصطبحوا مع الله
كلمات طيبة
من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله
الخوف من الله
ما يرقق القلوب
نبذة عن وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
كيف استشهد عمر ؟
شهادة النبي ﷺ لعمر
شهادة علي بن أبي طالب لعمر
وفاة عثمان بن عفان
سخاؤه وجوده
خصائص عثمان
وفاة علي كرم الله وجهه
كيف توفي رضي الله عنه ؟
فصل في كلام الصالحين وهم على فراش الموت
عبدالملك بن مروان
معاذ بن جبل وسلمان الفارسي
بلال بن رباح
عبدالله بن المبارك
إبراهيم النخعي

ابن المنكدر
عامر بن عبد قيس
ابن المبارك
أبو القاسم الجنيد
المعروف بابن الكاني
يوسف بن أسباط
الإمام الشعبي
أحمد بن خضرويه
تذكرة لأولي الألباب
يا بن آدم
في زيارة القبور
حديث عن الموت وحقيقته – إلى النفخ في الصور

ساعة صفاء مع النفس

الصدق هو الأساس في بناء النفس المطمئنة
الصدق مع النفس
صدق النية وأثره في تيسير الأمور
الصدق منجاة
الصدق أول الطريق إلى الجنة
إن تصدق الله يصدقك
صدق السلوك
الصدق من أمهات الفضائل
الصدق والصدقة
جامعة العبادات الإسلامية
مدرسة الصوم
الصيام بين الإيمان والتقوى
الروح والنور وليلة القدر
آية الدعاء بين آيات الصيام
صيام التطوع بعد رمضان

الإسلام شجرة طيبة

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

اعرف بالقرآن حقه

من حق القرآن على كل مسلم

نصائح لأهل القرآن ومستمعيه

شهادات الأجانب من علماء الغرب بالقرآن الكريم .

أنوار القرآن من وبركات الأوقات

نفحات ربانية

ذلك الفضل من الله

سيد الأيام

منحة إلهية لأمة خير البرية

يوم المزيد

فيه ساعة إجابة

لا تيأسوا من روح الله

الصراع بين النفس والمال

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

(الغنى في القناعة)

صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾

عندما نطالع آيات الله ونصافح كلماته في كتابه ونتعبد بتلاوته نطالع دروسا ونفوسا نعم : ما أجمل القرآن إذا عرض الدروس على النفوس واستخلص العواقب واستنتج العبر إنه الكلام الوحيد الذي نلتمس فيه الحكمة البالغة والعبرة النافذة على لا نجد لها تفسيرا أعظم من كلام رسول الله ﷺ فاستمع إليه ﷺ وهو يقول في هذا المجال الذي نحن بصدده « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »

من حوار الخلق
إلى رحاب الحق

وقد اشتمل على الموضوعات التالية :

البعث حق
منهج القرآن فى إثبات البعث
الجنة والنار
تكذيب الجاحدين
أطوار خلق الإنسان
المعادلة فى البعث
قوم أحياهم الله بعد موتهم
أصحاب موسى عليه السلام
بعض شبهة البعثة
قصة العزير
إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام
البعث فى القرآن الكريم
عالم الأرحام
منح إلهية للطائعين
دلالة احياء الأرض على البعث
النموذج الثانى للاستدلال على البعث
كلمة العلم فى إثبات البعث
عود على بدء
شبه المنكرين ودحضها
النفخ فى الصور
عجب الذنب
حديث عن الصور
ما هو الحشر ؟
أول من تنشق عنه الأرض ؟
أرض المحشر

إلى أين تصير الأرواح ؟
كلمة عن تلاقى الأرواح
أعمال الأحياء والأموات
المثابرة
الناس على مراتب فى لقاء ربهم
السؤال فى البرزخ
الأحاديث الدالة على حقيقة نعيم القبر وعذابه
عبر بلغة
الأسباب المنجية من عذاب القبر
عظمة الاستعداد للموت
أدب الذكر
استحباب الاجتماع فى مجالس الذكر
فضل من قال لا إله إلا الله مخلصا
فضل التسبيح والتحميد والتهليل
فضل الاستغفار
ذكر كفارة المجلس

دعوة أسأل الله قبولها

كنت دائماً أدعو الله قائلا : اللهم إنى أسألك علما نافعاً ورزقا واسعا وشفاء من كل داء وكثيرا ما سألت الله أن يوفقنى لتفسير كتابه حتى أتوج أعمالى بهذا العمل الجليل وقد وفقنى الله تعالى فعكفت على كتابة التفسير تفسيرا توجهت فيه اليسر والوضوح والتركيز والعناية بالأبحاث العلمية وقد وصلت فى التفسير حتى كتابة هذه السطور أول ذى القعدة ١٤٠٦ السابع من يوليو ١٩٨٦ وصلت إلى قوله جل شأنه فى سورة التوبة :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾

وقد كان من بشير اليمن أن يختتم هذا الكتاب (قصة أيامى) بهذه الخاتمة السعيدة (الفوز العظيم) إنها أمنية كل مسلم وهدف كل مؤمن ورجاء كل مخلص منهم جعلنا من

الذين فازوا بهذا الشرف الرفيع والذين وصفتهم بقولك الكريم : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ .

يا إلهي

رضاك خير من الدنيا وما فيها
يا مالك النفس قاصيها ودانيها

فليس للنفس آمال تحققها
سوى رضاك فذا أقصى أمانيها

فنظرة منك يا سؤلي ويا أملي
خير إلي من الدنيا وما فيها

سيدي يا أبا القاسم يا رسول الله

انت الذي من نورك البدر اكتسى
والشمس مشرقة من نور بهاك

انت الذي لما رفعت الى السما
بك قد سمت وتوجت لسراك

انت الذي ناداك ربك مرحبا
ولقد دعاك لقربه وحباك

وخفضت دين الشرك يا علم الهدى
ورفعت دينك فاستقام هناك

ماذا يقول المادحون وما عسى
ان تجمع الكتاب من نعماك

صل عليك الله يا علم الهدى
ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

خاتمـــة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

وبعـــد .

فهذا كتاب قصة أيامي حاولت جهد طاقتي أن أضع فيه تجاربي في مجال الدعوة في مدة استغرقت ثلث قرن من الزمان شرفني الله تعالى فيها بالدعوة إليه ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ وقد سألت ربي جلت قدرته أن يكون هذا الكتاب سراجاً يستضيء به السارى في سبيل الله فإنه جهد متواضع لكنه نابع من تجاربي في مدرسة الدهر وأساتذتها الأيام والليالي .

ولقد خلصت من هذه التجارب إلى أن الدنيا ما هي إلا مزرعة للآخرة فعلى العاقل أن يغتنم خمساً قبل خمس شبابه قبل هرمه وصحته قبل سقمه وغناه قبل فقره وفراغه قبل شغله وحياته قبل موته . فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

غداً توفى النفوس ما كسبت
ويحصد الزارعـــون ما زرعـــوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

الحمد لله أوله وآخره وصلى الله على سيدنا محمد

المؤلف

عبدالحميد كشك

فهرس

مقدمة	٥
قصة أيامي	٧
المولد والنشأة	٧
صعود المنابر	٩
مرض الوالد	١٢
وفاة الوالد	١٣
الواقع المر	١٣
بين المسكن والمعهد	١٥
مجيء الأم إلى القاهرة	١٥
على أبواب الامتحان	١٧
مفاجأة	١٨
إن الفرج مع الضيق	١٨
أمام اللجنة	١٩
مع الشيخ أحمد الكرمي	٢١
البحث عن صديق	٢٢
العام الجديد	٢٣
هل من صديق	٢٤
وجاءت السنة التالية	٢٨
في مساجد الجمعية الشرعية	٢٩
إخوان كرام	٣١
دعوة مستجابة	٣٢
أمنية تحققت	٣٤
عام حاسم	٣٥
شدة أعقبها تيسير	٣٦
في يوم الامتحان	٣٨

المجتمع الممزق ١٥٩
عوامل النصر ١٦١
مقاول الهدم ١٦٣
مجتمع مفكك العرى ١٦٦
نفاق رخيص ١٦٩
الإيمان قوة والنفاق ضعف ١٧٢
ذات ليلة ١٧٣
سيف الحياء ١٧٣
موقف نبيل ١٧٤
دعوة غريبة ١٧٥
اقتربت الساعة ١٧٦
يوم النكسة ١٧٧
مع البهائيين في أبي زعبل ١٨٠
حقيقة البهائية ١٨٣
ماذا قال الباب في دعوته ١٨٦
مخالفات الباب ١٨٧
نماذج من تفسيرهم ١٨٨
نموذج آخر ١٩٠
لا جهاد في البهائية ١٩٧
عقائد البهائيين ١٩٩
أيام يقدسها البهائيون ٢٠٢
فتح باب الزيارة ٢٠٧
شيء عجيب ٢٠٨
موقف حرج ٢١٠
يوم الإفراج ٢١١
وفود الناس تأتي للتهنئة ٢١٢
واقعة عجيبة ٢١٣
فرس الغني وبقرة الفقير ٢١٤
العودة إلى المسجد ٢١٤

قاهر الجبابرة ٢١٦
موقف حرج ٢١٨
مضارع الظالمين ٢١٩
الأحقاد تتحرك ٢٢٢
عقارب البغضاء ٢٢٤
عمر بن الخطاب ٢٢٥
وعيد وإنذار ٢٢٧
وعد وإغراء ٢٢٨
لقاء غاضب ٢٢٩
لقاء عاصف ٢٣٢
عالم يخشى الله ٢٣٤
جامعة المنيا ٢٣٥
استدعاء من وزارة الداخلية ٢٣٦
دعوة من وزير الإعلام ٢٣٧
دعوة من شيخ الأزهر ٢٣٨
ماذا قال لى شيخ الأزهر ٢٤٠
لمن ولمن ٢٤١
الخطبة رقم ٤٢٥ ٢٤٥
ليلة القبض ٢٤٧
إلى أين ٢٥١
ثم إلى أين ٢٥٢
الخطاب المشئوم ٢٥٥
يوم التحقيق ٢٥٧
مصرع السادات ٢٥٩
وعد بالزيارة ٢٦٠
كيف أبلغها نبأ موته ٢٦١
ماذا بعد قتل السادات ٢٦٣
مجال التأليف والكتابة ٢٦٥
طريق النجاة ٢٦٧

رياض الجنة ٢٦٩
بناء النفوس ٢٧٠
شفاء القلوب ٢٧٢
صور من عظمة الإسلام ٢٧٢
نفحات من الدراسات الإسلامية ٢٧٤
ورثة الفردوس ٢٧٥
مع التوحيد والأخلاق ٢٧٧
أصحاب النفوس المطمئنة ٢٧٩
الصراع بين النفس والمال ٢٨٢
من حوار الخلق إلى رحاب الخلق ٢٨٣
في رحاب السكينة ٢٨٤
منطق الحق المبين ٢٨٥
أعد الزاد ٢٨٥
دعوة أسأل الله قبولها ٢٨٦
خاتمة ٢٨٩

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المختار الإسلامي